بول راسينيه
ترّهات أوليسيوس
الذاكرة
للنشر والطباعة والتوزيع
Bibliotheca Alexandrina
0013767

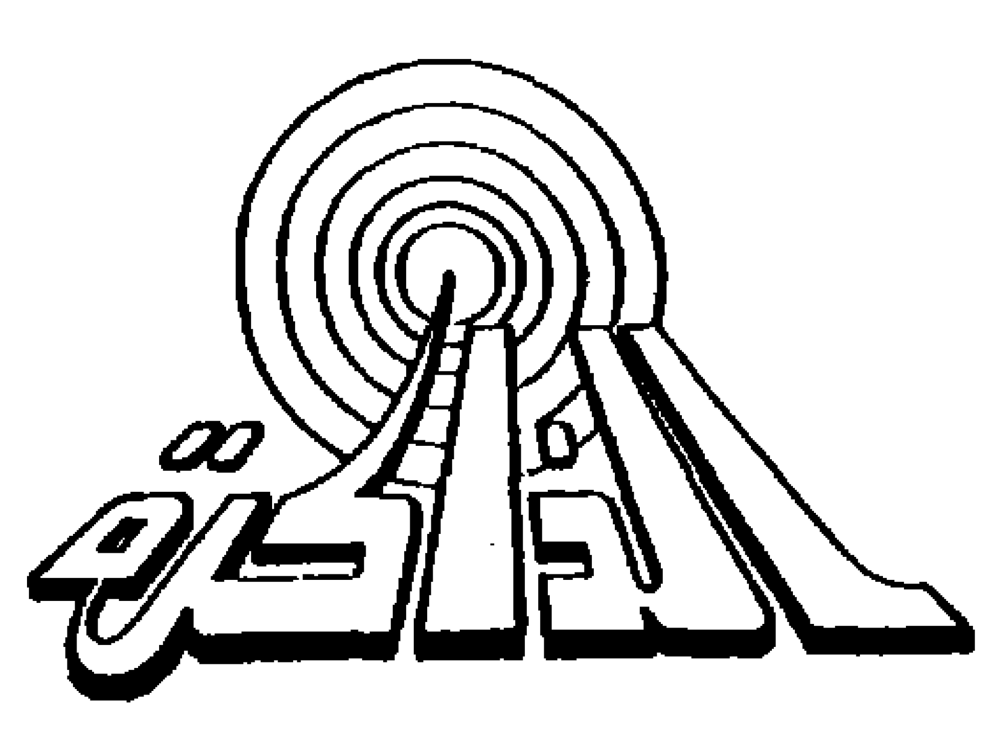
بول راسينيه

ترّهات أوليسيوس

ترجمة: هشام حدّاد

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن
فكـــر مؤلفيهـــا
ولا تعبر بالضـــرورة عن رأي الــدار

الطبعة الأولى- 1998



بيروت ـ لبنان ـ الغبيري ـ مستديرة المطار
هاتف: 282414 - 305629

«دعهم يقولوا، دعهم يلوموك، يدينوك، يسجنوك، دعهم يشنقوك، ولكن انشر فكرك، وهذا ليس حقاً، بل هو واجب. فالحقيقة الكاملة هي للجميع... الكلام أمر جيّد، والكتابة أجود؛ أما الطباعة فهي أمر ممتاز... إذا كانت أفكارك حسنة، استُفيد منها، وإن كانت سيئة، صُححت، واستفيد منها أيضاً. بيد أن التعسّف... وما أشد حماقة هذه الكلمة؛ فالذين اكتشفوها، هم الذين يتعسفون بالصحافة، وذلك بطباعتهم ما يشاؤون؛ وهم يخدعون، ويفترون، ويمنعون نشر الرد عليهم...»

پول لويس كورييه

اكتب كما لو أنك وحيد في هذا الكون، وكما لو أن ليس هناك ما تخشاه من تعصب الناس.

لا ميتري

إلى ألبير لوندر
تحية بعد الوفاة

إلى جان بول
ليعلم أن أباه لم يحمل ذرة من الحقد

منذ التحرير، قام العديد من الشهود، وبفيض هائل من التفاصيل، وبتفاوت في النجاح والموهبة، برسم لوحة الرعب في معسكرات الاعتقال. ولم يكن من الممكن أن يغيب عن الرأي العام أن خيال الروائي، أو فيض وجدان الشاعر، أو الانحياز المغرض للسياسي، أو مرارة حقد الضحية، كل ذلك سواء أكان كل بدوره، أم مجتمعاً، يصلح خلفية للوحة المتعلقة بالروايات التي نشرت حتى الآن. وهكذا رأيت، بدوري، أن الوقت قد حان لشرح هذا الرعب بريشة بعيدة عن الانفعال، نزيهة موضوعية، غير منحازة وغير رحيمة في آن واحد، للراوي -الذي كان شاهداً أيضاً، واأسفاه!- المهتم فقط، بإعادة الحقيقة إلى نصابها من أجل مؤرخي وعلماء اجتماع المستقبل.

ب. ر.

تقديم

يتألف هذا الكتاب من جزأين كان قد صدر كل منهما مستقلا في عامي ١٩٤٩ و ١٩٥٠ وهما للكاتب الفرنسي پول راسينيه الذي عمل في صفوف المقاومة الفرنسية في أثناء الحرب العالمية الثانية ضد الاحتلال الألماني، وتم توقيفه وترحيله إلى معسكرات الاعتقال الألمانية حيث بقي تسعة عشر شهراً في معسكري (بوشنڤالد) و (دورا).

بعد أن تم الافراج عنه في نهاية الحرب، عاد إلى منطقته التي كان يعيش فيها في شرقي فرنسا وزاول عمله السياسي في صفوف الحزب الاشتراكي الذي كان ينتمي إليه.

لاحظ بعد عودته أن هناك مبالغة في وصف معسكرات الاعتقال الألمانية، كما أن هناك خطأً ناجماً عن تحميل النظام النازي وأدوات قمعه، وهي الشرطة العسكرية الألمانية، المسؤولية الكاملة عما جرى من عمليات تعذيب وإبادة في هذه المعسكرات، فالمعسكرات كانت تدار إدارة ذاتية من السجناء أنفسهم، وجماعة الادارة الذاتية هم غالباً من كانوا يرتكبون هذه الأعمال الوحشية.

ويضيف راسّينيه أن معسكرات الاعتقال النازية مثلها مثل كل معسكرات الاعتقال في العالم، وهذه المعسكرات مستمرة بعد الحرب وبعد أن زالت في ألمانيا، وفي كثير من الأحوال أصبحت الضحية هي الجلاّد.

كما أثار موضوعات كثيرة، شاعت من خلال أقلام الكتّاب الذين اختصوا بأدب المعتقلات -كما أطلق راسينيه على هذا النوع من الكتابات- ومن خلال محاكمات نورمبرغ، التي شك في عدالتها، وهذه الموضوعات تتناول مدى صحة استخدام غرف الغاز لإبادة الملايين من السجناء في المعسكرات، ودور كثير من الفئات السياسية المعتقلة في عمليات القمع والإبادة والمراءاة للسلطات النازية المتمثلة

بالشرطة العسكرية الألمانية، ومزاعمهم في التنظيمات السياسية داخل المعسكر.

ومن هنا جاء عنوان الكتاب «ترهات أوليسيوس» تشبيهاً لهم بأوليسيوس بطل الأوديسة لهوميروس إذ كان يضيف كل يوم مغامرة جديدة إلى مغامراته ليرضي جمهور ذلك العصر ويبرر غيبته الطويلة في نظر أهله.

تعرّض راسينيه بسبب كتابه إلى المحاكمة من السلطات الفرنسية والفصل من الحزب الاشتراكي والاتهامات الكثيرة من الكتاب والصحفيين بالعمالة والكذب على الرغم من أنه كان عاجزاً جسدياً بسبب التعذيب الذي لقيه خلال اعتقال السلطات الألمانية له.

ومركز الدراسات العسكرية يقدم ترجمة هذا الكتاب للاطلاع على وجهة نظر بعض الذين كان لهم رأي منفرد بين آراء كثيرة مخالفة حول هذا الموضوع ويؤكد أن وجهة النظر هذه خاصة بمؤلفها الذي يرى أنه لا مبرر للمبالغة أمام حقائق هي كافية في حدّ ذاتها.

تمهيد

بال، ١٩ تموز - بوشنڤالد، ما كنا نعتقد أنه تراجع إلى مصافّ الذكريات المرّة التي خلفتها اللصوصية النازية، عاد ليصبح معسكراً للموت البطيء حيث ينقرض الأفراد الذين يُرى أنهم خطرون على النظام. وهذا المعسكر مع سبعة أخرى تضم زهاء عشرة آلاف معتقل، وأشهرها كآبةً معسكرا أوريانّنبورغ وتورغو.

وقد استطاع صحفيان دانماركيان، غامرا بحياتهما، الاتصال بالسجناء، وأدليا بتقارير عن مشاهد مرعبة. ففي تورغو، على سبيل المثال، وفي أكواخ مساحة كل منها ٢٥ متراً مربعاً، يتكدّس كالبهائم من ١٠ إلى ١٨ نفراً. وفي ظروف صحية تدعو إلى الرثاء، وتُقدم إلى هؤلاء التعساء وجبة مؤلفة من الحساء وكسرة خبز يابس. وقد أوضح عدد من الناجين أنهم أُوقفوا ليلاً من قبل عسكريين روس يعملون بالتعاون مع الشرطة الألمانية، وأُخضعوا خلال ساعات تحت الأنوار الكثيفة للكشّافات لأصناف العنف الذي كان يُظن أن الألمان يملكون سرّه وحدهم.

والمستهدفون، على الأخص، هم العسكريون، والموظفون القدامى، وأصحاب الأراضي، ومديرو المصانع، والمثقفون.

(الصحف، ٢٠ تموز ١٩٤٧)

لندن، ٢١ تموز (رويتر).- أعلمت اللجنة المركزية لجبهة التحرير الوطني اليوناني الحكومات الاميركية، والروسية، والبريطانية، والفرنسية، وكذلك مجلس أمن اتحاد النقابات العالمي أن الخمسة عشر ألف شخص الذين أُوقفوا مؤخراً وهُجّروا من قبل الحكومة المركزية في اليونان، موجودون حالياً في جزر مختلفة، دون مأوى

ولا غذاء.

وتقول رسالة الجبهة مؤكدة: «إننا نستشهد العالم المتحضر طالبين منه أن يعمل على مساندتنا لوضع حدّ لآلام الشعب اليوناني. إن الوضع القائم في هذا البلد يشكل وصمة عار في جبين الحضارة.»

(الصحف، ٢٢ تموز ١٩٤٧)

واشنطن، ٢٠ آب. -كشفت تقارير آتية مؤخراً من رومانيا إلى وزارة الخارجية الأميركية أن زهاء ألفي ضحية من الحملة الأخيرة على قادة أحزاب المعارضة، والتي شملت جميع أنحاء البلاد، والتي قادها نظام غروزا، الذي يسيطر عليه الشيوعيون، موجودون حالياً في سجون، ومعسكرات اعتقال، حيث يخضعون إلى معاملة قاسية ولا إنسانية «بهدف القضاء عليهم، على ما يبدو.»

(الصحف، ٢٢ آب ١٩٤٧)

«رغبة مني في إلقاء نظرة على السجناء الذاهبين إلى عملهم، استيقظت في ساعة مبكرة؛ كان يهطل مطر بارد؛ بعد السادسة بقليل، شاهدت وصول وحدة تضم زهاء أربعمائة سجين من الجنسين، كانوا يمشون أرتالاً عشرة عشرة تحت حراسة مشددة، متوجهين نحو المصانع السرية.

«مضت عليَّ سنوات وأنا أشاهد بؤساء من هذا النمط، ولم يدُرْ في خلدي أنه كان من المقدر عليَّ أن أتأمل في يوم من الأيام مخلوقات ذات مظهر أكثر مأساوية مما شاهدت في الأورال أو في سيبيريا. كان الرعب هنا وحشياً بحتاً، ويتجاوز كل حدود الخيال. كانت وجوه الموقوفين قد ذهبت منها الدماء، ذات لون مرعب شاحب

يشبه الأقنعة التي يضعها المتظاهرون بالموت، وكأنك أمام جثث متجولة، مسمومة بالمواد الكيميائية التي يعالجونها بأيديهم في مطهرهم الرهيب تحت الأرض.

«كان يوجد بينهم رجال ونساء في الخمسين من عمرهم أو تجاوزوها، ولكن هناك أيضاً شباب تجاوزوا العشرين بقليل. كانوا يروحون في صمت مرهق، كأنهم أناس آليون، دون أن ينظروا حولهم، كانت أرديتهم على نحو مثير للدهشة. كان العديد منهم ينتعل قبقاباً من المطاط مربوطاً بخيوط، وآخرون غطوا أقدامهم بالخرق البالية، بعضهم ارتدى زيّ الفلاحين؛ بعض النساء ارتدين معاطف الاستراكان الممزقة، وتعرّفت من خلال بعض السجناء على آثارٍ من اللباس الرفيع المستوى، ومن منشأ خارجي. وفي الوهلة التي كان يمر فيها الموكب المنكوب أمام البناء الذي كنت أراقب المشهد منه، انهارت امرأة فجأة. وشدّها حارسان خارج الرتل، ولكن لم يبد على أيّ من المساجين ما يدل أنه قد شاهد ذلك. فكل مودّة وكل رد فعل بشري كانا ميتين لديهم».

«ولكن، قد يتساءل بعض الناس من ذوي النوايا الطيبة هل هذا الأمر يمثل أوضاعاً استثنائية، حقاً إنها أعمال وحشية ولكنها منفردة، حتى في الأوساط العمالية الأكثر إخلاصاً هناك أناس اعتقدوا أن المضطهدين في روسيا هم قلّة من الناقمين وهي قلة محصورة جداً. مع أنه من غير الممكن لكل ذي فكر مجرد عن اتخاذ المواقف المسبقة من أن يلحظ الطابع التوسعي للاتجاه نحو تعميم الأشغال الشاقة التي تترسخ في روسيا.»

وهذه معلومات كرافشنكو ذات الصلة بالكتلة البشرية التي تمثل أداة هذه الأشغال الشاقة.

«وحدات أخرى تصل من اتجاهات مختلفة كانت تأتي إلى الجحيم الواقع تحت الأرض. كانوا يأتون من مستعمرات مفوضية الشعب للشؤون الداخلية، المختبئة بعيداً في الغابات، وعلى مسافة عدة كيلومترات فيما بينها. في المساء شاهدت وحدة أطول

بمرتين من التي شاهدتها صباحاً؛ كانت تتعثر في الوحل وتحت المطر في طريقها إلى العمل الليلي».

«لم يُسمح لي بالنزول تحت الأرض، والحقيقة أنه لم تكن لدي تلك الرغبة، ولكن الأحاديث التي أجريتها خلال اليومين اللذين أمضيتهما هناك، أتاحت لي أن أكوّن فكرة على دقّة كافية عن كل الشقاء الذي كان يلقي بظلاله على هذا المكان. كان المعمل الذي يقع تحت الأرض سيء التهوية، إذ أن بناءه قد تم في قمة الاضطراب دون الاهتمام بأية حال من الأحوال بصحة العمال. بعد بضعة أسابيع يقضيها المرء في استنشاق الأبخرة الضارة وعفونتها، يتسمم الجسم البشري إلى الأبد. كانت نسبة الموت مرتفعة إلى أبعد الحدود. كان المصنع يستهلك «المادة البشرية» على نحو أسرع من المواد الأولية التي يحولها.

«كان مدير المؤسسة شيوعياً ذا وجه متجهم، يضع على سترته وشاحاً، لم أدرِ ما هو، وصفاً من الأوسمة. حينما أتيت أسأله عن عماله، نظر إليَّ باستغراب، كما لو أني أسأله عن أخبار قطيع من البغال موجهة إلى السلخ».

(ف.ا. كرافشنكو ، أثرت الحرية)

ليون، ١٥ حزيران. -أودع المفوض جوڤان السجن، فقد أثبت التحقيق الذي جرى بحقه أن الموقوف ي... مات من الضربات التي تلقاها خلال التحقيق معه

(الصحف، ١٦ حزيران ١٩٤٧)

باريس، ٣١ تموز. -لقيت اثنتان وعشرون سجينة بتهم خفيفة حتفهن مساء أمس، حوالي الساعة ٢٣، في حريق شب، لأسباب لم تحدد بعدُ، في المهجع -المشغل ١٢ في سجن توريل.

لم تكن ثكنة توريل القديمة والواقعة في شارع مورتييه قرب باب (ليلاً) مهيأة لإيواء السجناء، ونظراً لبنائها الذي يدعو إلى الرثاء، فقد تخلى عنها الجيش منذ عهد بعيد، وظلت كذلك إلى أن استخدمها الألمان، فعلى الرغم من بنائها المتهدم والمحروم عملياً من التمديدات الصحية، فقد كدّس العدو فيها وعلى مدى سنوات المواطنين الذين كان يود إحالتهم إلى المحاكم الخاصة. وعند التحرير تم اعتقال آلاف المذنبين، وأرسلت السلطات الفرنسية في الأيام الأولى من حملات التطهير العديد من المتعاونين مع الألمان، لم يكن عدد السجون كافياً، بيد أن ذلك يعود إلى ثلاث سنوات خلت.

ومنذ ذلك الحين، لم يطرأ أي تبديل في إيواء السجناء من الشباب والرجال والنساء الذين لا يمكن قبولهم في سجنَي (فرين) و(لابيتيت روكيت)، فكان الموقوفون يعيشون هنا في مهاجع تحتوي على أسرّة ذات طوابق مماثلة لتلك المستخدمة لأسرى الحرب في ألمانيا مفصولة بحواجز من الألواح الخشبية، إذ أن الخشب هو المادة الأساسية في البناء.

هذا السجن الذي يشغل المبنى المركزي للثكنة، يضم حالياً ٣٨٠ سجيناً يعملون خلال النهار في أشغال يدوية تتكون من صنع قلادات من شرائح السلولويد والمواد البلاستيكية.

ومن الجدير بالذكر، أن النساء الموقوفات بجنح بسيطة والموزعات على زمر من ٢٥ إلى ٣٠ امرأة تغلق عليهن الأجنحة من الساعة السابعة مساء حتى التاسعة صباحاً.

وهكذا شاهد، مساء أمس في الساعة ٢٢.١٥، عابرُ سبيل ألسنةَ اللهب الطويلة التي شبت عقب انفجار سريع، وأنذر بالخطر، بينما كانت السجينات اللاتي دبّ فيهن الهلع يتشبثن بحواجز النوافذ ويطلبن النجدة.

رفض الحراس فتح الأبواب سواء أكان ذلك بسبب التكاسل أم النذالة أم تنفيذاً للأوامر التي تلقوها، فما كان من جنود مركز التجمع رقم ٢٠٢ إلا أن اخترقوا

أبواب المهجع-المشغل رقم ١٢ القائم في الطابق الأول لإنقاذ البائسات.

ولكن هذه العملية استغرقت ردحاً من الزمن. وحينما تمكن الجنود من الدخول لم يجدوا سوى ٢١ جثة، أما السجينة الثانية والعشرون والتي احترقت بوحشية. فلم يزل فيها رمق من الحياة، وقد تم نقلها إلى مستشفى (تينون) ولكنها ماتت.

(الصحف، ١ آب ١٩٤٧)

أولئك المهاجرون، الذين يلقون بهم من قفص إلى آخر يتدحرجون في المعسكرات. أيّ ضيق وأيّ غضب يرتسم على وجوه أولئك المهاجرين المتشنجين على قضبان أقفاصهم، بينما كان الجنود، على عبّارة السفينة ينهالون بالضرب على أولئك الذين يقاومون. في شجار حامي الوطيس، انهال الجنود على مهاجري (الرانيمدبارك) الذين رفضوا النزول في هامبورغ... وبضربات المطارق كانوا (يقنعون) المهاجرين بالنزول من السفن-الأقفاص... الخ، الخ.

(الصحف، ٩ و ١٠ أيلول ١٩٤٧)

بعد فتنة معسكر لانويه. خلال فراره من معسكر لانويه الواقع على بعد ٣٠كم من تولوز والخاص بالمعتقلين السياسيين، قُتل روجيه لابا وهو رائد بحري سابق، تم اعتقاله بسبب تعاونه مع الألمان، برصاصة أصابته في قلبه، أطلقها أحد الحراس. وقد صرح السيد آمور مدير إدارة السجن أن «الموقوف كان قد سلّم نفسه للحراس حينما تم قتله، فهناك إذن جريمة».

(الصحف، ١٨ أيلول ١٩٤٧)

لاروشيل، ١٨ تشرين الأول ١٩٤٨. لدى التحقيق مع الضابط السابق ماكس جورج رو البالغ من العمر ٣٦ عاماً والذي كان مساعداً لقائد معسكر الأسرى الألمان في شاتلايون–بلاج، بتهم شائنة تبين أنه مذنب فيها، أعلم قاضي التحقيق بذلك المحكمة العسكرية في بوردو حيث أحيل رو. والضابط السابق يمضي حالياً عقوبة ثمانية أشهر سجن، حكم عليه بها في آب الماضي في لاروشيل بتهمة سوء الائتمان والنصب لحساب عصابات مختلفة.

والجنح المرتكبة من قبل رو في معسكر الأسرى أخطر على نحو كبير للغاية. فقد كانت جرائم حقيقية وعلى قدر من الهول مما يبدو أنه من العسير أن يتحمل رو وحده مسؤوليتها أمام القضاة. وقد قام هذا الشخص الدنيء بإرغام العديد من أسرى الحرب على خلع ثيابهم وجلدهم بسوط مرصّص. وقد لقي اثنان من التعساء حتفهما أثناء جلسات الجلد هذه.

وهناك شهادة مفحمة للطبيب الألماني كلاوس شتين الذي كان موقوفاً في شاتلايون لدى سؤاله في بلدة كيل حيث يقيم. فقد أفاد السيد شتين أنه من أيار وحتى أيلول ١٩٤٥ أثبت وفاة خمسين من مواطنيه في معسكر أسرى الحرب. وكان سبب موتهم سوء التغذية والأشغال الشاقة والخوف المستمر الذي كان يعيشه هؤلاء التعساء من توقع تعذيبهم.

وكان النظام الغذائي للمعسكر، الذي كان بإمرة الرائد تيكسيه، يتكون في الواقع من صحن حساء خفيف وكسرة من الخبز. أما باقي المخصصات فكانت تذهب إلى السوق السوداء. وقد مرت فترة تجاوزت فيها نسبة الزحار ثمانين بالمائة.

وقد قام تيكسيه ورو مع مرؤوسيهما، بالإضافة إلى ذلك، بتفتيش أسراهم، ونهبوا منهم كل ما غلا ثمنه من حاجاتهم، وقد قُدّر مجموع السرقات والأرباح التي حققها اللصوص ذوو الرتب العسكرية بمائة مليون، واستطاع هؤلاء أن ينظموا أمورهم أحسن تنظيم فأرسلوا الحوالات المصرفية والحلي مباشرة إلى بلجيكا

بالسيارة.

ولعلنا نأمل أن يحبس المذنبون الآخرون مع رو في حصن (ها) وأن تفرض العقوبة الرادعة بحق هذا النمط من مجرمي الحرب الحقيقيين.

(الصحف، ١٩ تشرين الأول ١٩٤٨)

قُتلت، خلال سنة ١٩٤٤، امرأة شابة من الجنسية الصربية، تدعى بيلا موشكا تيروفيتش من مواليد ١١ كانون الثاني ١٩٢١ في ليون، وقد قامت المقاومة بقتلها لأنها وشَت في رسالة عن أحد عشر شخصاً في (بون دي فيل)، وبعد ذلك ببضعة أيام قتل طفلها البالغ من العمر ٨ أشهر في اصطبل مزرعة في كوخ (مون التابع لكريج.

وفي شهر آذار قبضت الشرطة الجوالة على اثنين من مرتكبي هذه الجريمة: غاستون كونفير، ٣١ عاماً القاطن في شارع تونكين في ليون، ولويس شامبون، ٣٧ عاماً، وأصله من (غران كروا) في اللوار، صاحب فندق المحطة في (بون دي فيل)

وقد تخلت محكمة بورغ عن هذه الدعوى لمصلحة المحكمة العسكرية. وقد أحيل المتهمان إلى سجن (مونلوك).

(الصحف، ٢٨ نيسان ١٩٤٨)

بعد أن أدرك قادة الحزب الشيوعي في مرسيليا أن حزبهم بأجمعه متّهم بقضية (غاستو) فقد حاولوا بشدة تبرير قتل مفوض شرطة (الإستاك)، بشيء من الرعونة.

فقد نظموا من أجل (ماركيتي) لقاء جماهيرياً تجرأ خلاله أحد الخطباء على القول:

- كان (غاستو) مكروهاً من الجماهير، وكان من الممكن أن تساء معاملته لو أنه سلّم إليها...

وقد اكتفى (ماركيتي) بإطلاق رصاصة على عنقه بعد أن قطع لسانه وحرق أعضاءه التناسلية بلهيب شمعة.

(الصحف، ٢٧ تشرين أول ١٩٤٨)

يستقبل معسكر اعتقال (بوشنفالد) في القطاع السوفييتي منذ ١٤ أيلول، موقوفين جدداً. وقد وصل السجناء الجدد إلى محطة (ڤايمار) في ست وثلاثين مقطورة شحن، تحتوي كل مقطورة من ٤٠ إلى ٥٠ رجلاً وامرأة من جميع الأعمار، وكذلك الأطفال والشيوخ. وقد سار السجناء على أقدامهم من ڤايمار إلى معسكر الاعتقال.

وعلى الرغم من أن الشوارع قد أخليت بناء على أمر الشرطة، فقد حاول المعتقلون تحريض الجمهور وهم يصيحون بأنهم أعضاء في أحزاب برلين الديمقراطية. وفي الأيام التالية، قام أربعة عشر قطاراً يتألف كل منها من ٣٠ إلى ٤٠ مقطورة بنقل المعتقلين مباشرة من ڤايمار إلى معسكر بوشنڤالد.

(وكالة الصحافة الفرنسية ١١ تشرين الثاني ١٩٤٨)

طلب، اليوم، ألف وثلاثمائة نازح يعيشون في معسكر (داشو) الواقع في القطاع الأميركي، من حكومة باڤاريا خنقهم في غرف الغاز المستخدمة من النازيين ليضعوا حداً لشقائهم.

وقد قام اللاجئون أمس بالإضراب عن الطعام ليلفتوا الأنظار إلى مصيرهم ويحتجوا على شروط معيشتهم.

(رويتر، ١٤ تشرين الثاني ١٩٤٨)

يقع في الجنوب الجزائري، وبالضبط في (عين صفرا) معسكر وضع فيه، بلا نظام، مدانون من الحق العام، ومدانون شباب من المحاكم أمضوا عقوبتهم وعليهم

أداء خدمة العلم. وهذا ليس معسكر معتقلين، بطبيعة الحال، ولكنه معسكر «مبعدين» فارق بسيط !

(كارفور، ٢ كانون الأول ١٩٤٨)

وإليكم الآن رأيان :

بعد التحرير كان المعتقلون السياسيون يعدّون بعشرات الألوف، بل وفي البداية بمئات الألوف، وقد قاموا بتكديسهم في معسكرات كان تنظيمها يدعو إلى الرثاء وفي شروط يحق لنا أن نقول عنها لا تطاق. ولو أن الناس عرفوا هذه الشروط، لخرجوا، ولا ريب، عن لامبالاتهم، التي غالباً لا يلامون عليها. وهي في الحقيقة مؤسفة ولكنها كثيراً ما تعود إلى النقص في المعلومات... إن عدد وظروف هؤلاء المعتقلين يطرح مشكلة مثيرة للقلق من وجهة نظر رباعية، على الصعيد المسيحي، وعلى صعيد العدالة، والوحدة الوطنية، ونهوض البلاد.

(جورنال دي جنيف، ١٩ شباط ١٩٤٩)

طالما أن المعسكرات بقيت مسالخ رمادية زاخرة فنحن أيضاً داخل المعسكرات.

إن الفكر الذي يخضع له، في هذه اللحظة رجال آخرون للسياط نفسها، ويرتجفون من البرد نفسه، ويموتون من الجوع نفسه، هل هو فكر محتمل لدينا ومن أجلنا نحن الذين نعلم؟

ليون مازو

(نشرة اتحاد معتقلي المقاومة، آذار ١٩٤٩)

الجـــزء الأول

1

التجربـة المعاشة*

* صدر عام ١٩٤٨ بعنوان : اجتياز الخط

.... الحقيقة أن الضحية كما الجلاد، كانا دنيئين: وأن درس المعسكرات، هو الأخوة في النذالة؛ وأنك، إن لم تتصرف بدناءة، فلأن الوقت لم يساعد، والشروط لم تكن ملائمة؛ وأنه لا يوجد سوى فارق في الإيقاع في تشويه الكائنات؛ وأن البطء في الإيقاع هو سمة ذوي الباع الطويل؛ ولكن الأرض المجبولة بالسماد العضوي، يظل أسفلها يعلو ويعلو ويعلو، وهذا هو حتماً الأمر نفسه، ومن سيصدق ذلك؟ لا سيما أن الناجين بأنفسهم لن يعرفوا شيئاً. إنهم يخترعون، هم أيضاً، صوراً باهتة عن (إبينال)، وأبطالاً باهتين من المعجون الكرتوني، وإن شقاء مئات الألوف من الموتى سيستخدم أشياء محرمة في هذه القوالب الجاهزة.

دافيد روسيه

(أيام موتنا)

الفصل الأول

حشر شتات البشرية على أبواب الجحيم

الساعة السادسة صباحاً، على أغلب الظن؛ ونحن هناك، زهاء عشرين رجلاً من مختلف الأعمار والأوضاع. الكلّ فرنسيون، يرتدون أعجب اللباس وأغربه، متحلقون بهدوء حول منضدة كبيرة ذات حامل. لم نكن يعرف بعضنا بعضاً، ولم نحاول قط التعارف. كان يبدو علينا البكم ونحن مكتفون بمواجهة بعضنا بعضاً باحثين، بشيء من الفتور، عن أن يكشف أحدنا الآخر. ولدى شعورنا بارتباطنا المقبل بمصير مشترك، أحسسنا أنه قدر علينا أن نعيش تجربة أليمة، وعلينا التسليم بتقارب بعضنا بالآخر، ولكننا سلكنا سلوكاً يوحي بأننا نرغب، قدر الامكان، بتأخير اللحظة المناسبة: فالجليد يوشك على التحطّم.

استغرق كلّ منا في ذاته، كنا نحاول استعادة شريط أفكارنا، ومطابقة ما حصل لنا مع الواقع: لقد ذقنا الأمرّين خلال ثلاثة أيام بلياليها. كنا مائة في المقطورة الواحدة نعاني الجوع والظمأ والجنون والموت؛ وعانينا الإنزال من المقطورة، تحت الثلج، ووسط أزيز رصاص المسدسات، وزمجرة الرجال، ونباح الكلاب، تحت سياط هؤلاء، وأنياب أولئك؛ «الحمام البارد، والتعقيم، وبرميل النفط، إلخ... لقد أصابنا ذلك كلنا بالخبل. كان الانطباع لدينا أننا اجتزنا توّاً المنطقة المجردة، وأننا شاركنافي سباق حواجز، تكاد تكون مميتة، مدرجة بمهارة، ومحدّدة بدقة متناهية.

بعد الرحلة مباشرة ودون أية مرحلة انتقالية، كان هناك صف من القاعات والمكاتب والممرات تحت الأرض، آهلة بكائنات غريبة متوعدة، لا يخلو أيها من شكليات غريبة ومهينة. هنا المحفظة وخاتم الزواج، والساعة وقلم الحبر وهنا السترة والبنطال، وهناك السروال والجورب والقميص؛ وأخيراً الاسم: سرقوا منا كل شيء؛ ثم

الحلاق الذي استأصل الشعر من كل زاوية، وحمام السائل المطهّر والحمام البارد، وأخيراً العملية العكسية: في هذه الكوة قميص من الخرق، وفي تلك سروال ذو ثقوب، وفي الأخرى بنطال مرقع، وهكذا دواليك حتى النعلين والشريط المسجل عليه الرقم مروراً بالسترة الرثة أو التي أصبحت غير صالحة للاستعمال، والقلنسوة الروسية أو قبعة الجندي الايطالي ذات الريشة، ولم يعيدوا إلينا محفظة ولا خاتماً ولا قلم حبر ولا ساعة يد.

وقال أحدنا وقد أراد أن ينبس بكلمة، وهو يلوح برقمه:

- إن الأمر* كما هو عليه في شيكاغو، حين الدخول إلى المعمل هم خنازير وحين الخروج معلبات، وهنا يدخل المرء إنساناً ويخرج رقماً.

ولم يضحك أحد: حقاً ليس هناك فارق كبير ما بين حال الخنزير وعلبة الكونسروة، وبين حالنا، ما كنا عليه وما أصبحنا.

حينما وصلنا، ضمن هذه المجموعة الأولى، إلى هذه القاعة المضيئة، النظيفة، الجيدة التهوية، والتي شعرنا بالارتياح إليها منذ النظرة الأولى، أحسسنا بالفرج بعد الشدة، تماماً، بلا ريب، مثل أورفيوس وهو صاعد من الجحيم، ثم عدنا إلى أنفسنا، وإلى اهتماماتنا، إلى تلك التي تسيطر وتحدّ من كل رغبة في التأمل الداخلي والتي يمكن قراءتها في الأعين جميعها:

- هل سنأكل اليوم؟ متى سنستطيع النوم؟

نحن في بوشنڤالد، البناء ٤٨، الجناح رقم (١)، إنها الساعة السادسة صباحاً، على ما يبدو، واليوم الأحد - الأحد ٣٠ كانون الثاني ١٩٤٤. يا له من أحد قاتم.

البناء ٤٨ مبني من الحجر المغطى بالقرميد، خلافاً لكل الأبنية الأخرى تقريباً المبنية من ألواح الخشب، يحتوي على طابقين، فيهما وسائل الراحة: مغاسل ذات حوضين دائريين يتسعان لعشرة أو خمسة عشر مكاناً، ومراحيض ذات ستة أمكنة جلوساً وستة وقوفاً. في كل جانب من البناء متصل بالجانب الآخر بحاجز، قاعة طعام

فيها ثلاث موائد ذوات حوامل ومهجع يحتوي على ثلاثين أو أربعين هيكل سرير طابقي، وكل مهجع ومطعم متحدين يؤلفان جناحاً: هناك أربعة أجنحة: (آ) و(ب) في الطابق الأرضي، و(ج) و(د) في الطابق الأعلى؛ يغطي البناء مساحة من مائة وعشرين إلى مائة وخمسين متراً مربعاً، بين عشرين وخمسة وعشرين متراً في الطول، ومن خمسة إلى ستة أمتار في العرض، أقصى وسائل الراحة في أضيق المساحة.

أمس، وبانتظار قدومنا، أفرغوا البناء ٤٨ من شاغليه المعتادين. ولم يبق سوى العاملين الاداريين الذين لا ينفصلون عنه وهم: رئيس البناء، والمحاسب، والحلّاق، ورجال المهاجع، وعددهم اثنان لكل جناح، ويصبح المجموع أحد عشر شخصاً، والآن ومنذ الفجر ها هو يمتلئ مجدداً.

وضعت مجموعتنا التي وصلت أولاً في جناح رئيس البناء نفسه، وشيئاً فشيئاً بدأ الآخرون بالوصول. وهكذا بدأ الجو بالانتعاش؛ فقد تلاقى مواطنون أوقفوا في الفترة نفسها وفي القضية نفسها، وانحلت عقدة الألسن، أما من جهتي فقد التقيت فرنان الذي جاء يجلس بقربي.

فرنان هو من تلامذتي القدامى، عامل صلب وشريف، في العشرين من عمره، وفي ظل الاحتلال كان من الطبيعي أن ينضم إلي، وقضينا الرحلة مقيّدين معاً حتى (كومبييني)، وفي كومبييني، شكلنا عصبة مودة ضمن الموقوفين السبعة عشر في القضية نفسها؛ والحق يقال إننا تركناهم على حين غرّة: أولاً لأن هناك من باح بالسر على طاولة التحقيق، ثم هناك صف الضابط العامل المقدّر علينا والذي أصبح وكيلاً لإحدى شركات التأمين، وفي الوقت نفسه الذي حاز على وسام جوقة الشرف وجد أن لا غنى لكرامته عن أن يرفع نفسه إلى رتبة نقيب.

وأخيراً كان الآخرون، الكل أناس مهذبون جدّيون، كانت تنمّ نظراتهم، في كل لحظة، عن الشعور في أنهم قد وضعوا في حال سيئة، ولا سيما وكيل التأمين الذي

يثيرنا بجنون عظمته، وأساليب كلامه الطنان، وهيئته التي توحي بأنه على علم بـ مرار الآلهة، وشائعات التفاؤل البلهاء التي لا ينفك عن إشباعنا بها. وقال لي فرنان:

– تعال، هؤلاء الناس ليسوا من طينتنا.

في بوشنڤالد، حيث وصلنا في المقطورة نفسها، تعلقنا مجدداً، أحدنا بالآخر؛ وقد انتهزنا فرصة غفلة من المجموعة كي نقف واحداً إثر الآخر، على الطريقة الانكليزية لما يجب أن نفعله ممّا يطلق عليه شكليات أمر السجن، وافترقنا لحظة لنجد نفسينا هنا معاً.

في الثامنة صباحاً لم يبق مكان لقيد أنملة على الطاولة وكانت الثرثرات تعلو على نحو أزعج رئيس البناء، وبدأ رجال المهاجع عملهم. وتم التعارف، وأعلنت المهن بين هؤلاء وأولئك من فوق الرؤوس، مصحوبة بالمناصب التي شغلوها في المقاومة: رجال مصارف، صناعيون كبار، وروّاد بالجيش في العشرين من عمرهم، وعقداء أكبر منهم بقليل، قادة مقاومة عظام تثق لندن بهم ثقة عمياء ويحملون أسرارها ولا سيما موعد إنزال الجيوش في القارة الأوروبية، بعض الأساتذة، بعض رجال الدين المنطوين على أنفسهم بحياء. واعترف القليل أنهم موظفون أو مجرد عمال. كل يود أن يكون له وضع اجتماعي أشد إثارة للحسد من وضع جاره، وخاصة أنه مكلف من لندن بمهمة على غاية من الأهمية. والمآثر أكثر من أن تحصى. وهكذا وجدنا شخصينا المتواضعين مسحوقين...

وهمس فرنان في أذني بهمسة لا تكاد تسمع:

– نخبة، طبقة راقية... أيها الضعيف.

وبعد ربع ساعة، وقد أحسسنا حقاً بالضيق، شعرنا برغبة لا تقاوم بالبول. وفي الحاجز الذي يقود إلى المراحيض، كانت تدور مناقشة بين خمسة أو ستة ولدى عبورنا سمعناهم يثيرون موضوع الملايين.

– ربّاه، في أي وسط ارتمينا؟

في المراحيض، كانت كل الأمكنة مشغولة، ووقفنا في الصف مضطرين إلى الانتظار، ولدى العودة بعد ما يزيد على عشر دقائق، كانت المجموعة نفسها على الحاجز، والنقاش ما يزال دائراً حول الملايين. وكان الرقم قد وصل إلى أربعة عشر الآن، وأردنا الوقوف على جليّة الأمر، فتوقفنا" كان هناك شيخ مسكين يتفطر أنيناً على المبالغ الخيالية التي سببتها إقامته في المعسكر. وغامرت بالسؤال:

– ولكن، ماذا تعمل في الحياة المدنية، يا سيدي، لتتناول مثل هذه المبالغ؟ لا بد أن لك وضعاً ذا شأن.

وتظاهرت بالرأفة المعجبة لأقول ما قلت.

– آه! يا سيدي المسكين، لا تحدثني عن ذلك: هكذا!

وأراني النعلين اللذين في قدميه، ولم أقو على منع نفسي من الانفجار في الضحك، ولم يفهم ذلك، وعاد يشرح لي:

– أنت تفهم، لقد أوصوني، في بادئ الأمر، على ألف زوج منها وجاؤوا لاستلامها دون مراقبة العدد ولا كشوف الحساب. ثم أوصوا على ألف أخرى، ثم ألفين، ثم خمسة آلاف، ثم تكاثرت في الفترات الأخيرة التوصيات. ولم يكونوا يراقبون قط. وهكذا بدأت بالغش قليلاً في الكميات، ثم في الأسعار، أجل: فكلما أخذنا منهم مالاً أضعفناهم، وسهلنا مهمة الانكليز. إن هؤلاء الألمان القذرين، بعد كل حساب، في يوم من الأيام، طابقوا كشوف الحسابات مع محاضر مأموري الاستلام، ويجب توقع كل شيء من مثل هؤلاء الناس، وجدوا أنه قد تمت سرقتهم بعشرات الملايين. وهكذا أرسلوني إلى هنا، مباشرة، ودون أدنى محاكمة، لعلك أدركت الأمر يا سيدي، هل أنا سارق؟ مفلس، سأكون مفلساً، يا سيدي، ودون أدنى محاكمة...

كان مستنكراً بالتأكيد، وبكل صدق، كان لديه انطباع بأنه أنجز عملاً وطنياً لا يقبل النقاش، وأنه مثل الكثيرين من الآخرين، ضحية امتناع القاضي عن الحكم.

وأظهر الآخرون إشفاقهم على ألمه، واستطرد أحدهم دون أن يرف له جفن:

- وهذا ما حدث لي، يا سيدي، كنت محاسباً في...

وقال لي فرنان: هيا، فقد فهمت الأمر على ما يرام.

* * *

الأيام تمرّ؛ وتآلفنا بمقدار ما تسمح به حياتناالجديدة.

في بادئ الأمر، علمنا أننا هنا من أجل أن نعمل، وأننا سنلتحق قريباً بمجموعة يحتملُ أن تكون خارج المعسكر وأننا سنرحل حينئذٍ بوسيلة نقل. وبالانتظار سنبقى في الحجر الصحي ثلاثة أو ستة أسابيع، وفقاً لما يثبت ما إذا كان بيننا أم لا يوجد مرض سارٍ.

بعد ذلك، أُعلمنا عن النظام المؤقت الذي سنخضع له. خلال الحجر الصحي، يمنع منعاً باتاً مغادرة البناء أو باحته الصغيرة المحاطة بالأسلاك الشائكة. كل يوم، الاستيقاظ في الرابعة والنصف - بطريقة مزعجة من مسؤول المهجع الذي يقف بالمرصاد لأولئك الذين يحاولون التماهل - والاغتسال هرولة، وتوزيع أرزاق اليوم (٢٥٠ غراماً من الخبز، و٢٠ غراماً من زبدة المارغارين، و٥٠ غراماً من السجق أو الجبن الأبيض أو المربىّ، ونصف ليتر مما يشبه القهوة بدون سكر) والتفقد في الساعة الخامسة والنصف ويستمر حتى السادسة والنصف أو السابعة. ومن السابعة وحتى الثامنة أعمال السخرة في تنظيف البناء. وحوالي الحادية عشرة نتناول ليتراً من حساء نوع من الملفوف يطلق عليه الروتاباغا، وفي السادسة عشرة شراب القهوة. وفي الثامنة عشرة تفقد آخر قد يدوم حتى الساعة الحادية والعشرين، ونادراً ما يستمر بعد ذلك، ولكنه عادة يستمر حتى الساعة العشرين ثم النوم. خلال ذلك، وقد خلونا لأنفسنا، يمكننا ونحن جلوس حول الطاولات، وشريطة ألا يعلو ضجيجنا، أن يروي بعضنا لبعض حكاياتنا البسيطة، وإحباطاتنا، ومخاوفنا، وتصوراتنا وآمالنا. وفي

الواقع كانت المناقشات تدور من الصباح حتى المساء حول موعد الإيقاف المحتمل للقتال، والشكل الذي سينتهي إليه: وكان الرأي السائد أن كل شيء سينتهي خلال شهرين، وقد أعلن أحدنا، بوقار، أنه تلقى رسالة سرية من لندن تعلمه أن الموعد المؤكد لإنزال الجيوش في أوروبا سيكون في مطلع آذار.

وبالتدريج، تعرفنا، فرنان وأنا، على المحيطين بنا، محتفظين بمسافات بيننا وبينهم وباقيين على حذرنا. وبعد يومين أيقنا أن نصف رفاقنا في المصيبة على الأقل ليسوا هنا من أجل الأسباب التي ذكروها، وأن ليس لهذه الأسباب سوى قرابة بعيدة على نحو كاف مع المقاومة: وبدا لنا أن الغالبية العظمى من الضحايا آتية من السوق السوداء.

والأكثر تعقيداً من ذلك كان في فهم إيقاع الدوامة التي دخلنا فيها توّاً؛ فبواسطة الشخص الوسيط وهو من اللوكسمبورغ، وهو لا يكاد يعرف الفرنسية، كان رئيس البناء يلقي علينا كثيراً من الخطب التوضيحية كل مساء حين التفقد، ولكن... رئيس البناء هذا هو ابن لنائب سابق شيوعي في الرايخشتاغ، قتله النازيون. هو شيوعي، ولا يخفي ذلك -وهذا ما أستغربه- وترتكز مماحكاته على التأكيد المتكرر بأن الفرنسيين قذرون وثرثارون مثل الغربان وكسالى، وأنهم لا يعرفون كيف يغتسلون، وأن هؤلاء الذين يصغون إليه محظوظون مرتين، إذ أنهم وصلوا في الفترة التي أصبح فيها المعسكر مصحاً، وأنهم تخصصوا في بناء رئيسهُ سياسيٌ بدلاً من أن يكون محكوماً عادياً. لا يمكن القول أنه كان شاباً سيئاً: كان مسجوناً منذ أحد عشر عاماً واعتاد على هذا البيت؛ نادراً ما كان يلجأ إلى الضرب، ومظاهر عنفه كانت تتألف، بصورة عامة، من كلمة: هدوء، يقولها بشدة وسط ثرثراتنا، مشفوعة بلعنات فيها ما يشير إلى محرقة الجثث. كنا نخشاه، ولكننا كنا نخشى أيضاً أكثر رجال المهاجع الروس والبولونيين.

لم نكن نعلم أو لا نكاد نعلم شيئاً عن باقي المعسكر. كان ميدان أبحاثنا

مقتصراً على أجنحة البناء الأربعة. كنا نشعر أن هناك ما يحاك حولنا من أجل العمل، وأن العمل شاق، ولكن لم نكن نملك سوى إذاعة الشائعات من أجل تحديد طبيعته. وبالمقابل عرفنا سريعاً كل زوايا وخبايا بنائنا وشاغليه. ففي داخله ما هبّ ودبّ: مغامرون، وأناس غير محدد منبتهم ولا ظروفهم الاجتماعية، ومقاومون أصلاء، وأناس جدّيون، ومن أسرة كريميو، ونائب ملك بلجيكا في مجلس النواب، إلخ... ولا جدوى من القول أن فرنان وأنا، لم نشعر بالرغبة في الانضمام إلى أية من المجموعات المتآلفة التي تشكلت.

* * *

كان الأسبوع الأول مرهقاً بوجه خاص.

كان بيننا العرجان، ومن بُترت ساقه أو ساقاه، والمعقدون الخلقيون الذين عليهم أن يسلموا عصيهم أو عكازاتهم أو سوقهم الاصطناعية في المدخل، مع محافظهم وحليّهم. كانوا يزحفون على نحو مثير للرثاء. كنا نساعدهم أو نحملهم. وهناك أيضاً من بلغ بهم المرض أشدّه وجردوهم من أدويتهم التي لا غنى لهم عنها والتي يحملونها دائماً معهم. هؤلاء، بعجزهم عن تناول الطعام، كانوا يموتون ببطء. ثم كانت هناك الثورة العارمة التي قامت من كل حدب وصوب للتغيّر المفاجئ الذي طرأ على التغذية وعدم كفايتها المأساوي. وابتدأت الأجساد جميعها تتقيّح. وانتشر في البناء مرض الجمرة الذي عالجه أطباء غير مؤهلين وبدون وسائل، أو تظاهروا بمعالجته؛ وأخيراً على الصعيد الأخلاقي، جرت أحداث غير متوقعة جعلت التشويش المفروض علينا غير محتمل: فالمحاسب الذي يحمل رتبة عقيد أُمسك به وهو يسرق خبز أحد المرضى الذي أراد أن يكون ممرضاً له؛ وقامت مشاجرة بين نائب ملك بلجيكا وأحد الأطباء من أجل قسمة الخبز؛ وثالث كان يتجول بين مجموعة وأخرى ملوّحاً بصفته محافظاً بعد التحرير ضُبط وهو يقتطع جزءاً من الأرزاق لحظة وصولها إلى البناء، إلخ... نحن

في بلاط المعجزات.

كل ذلك آثار يقظة أصدقاء الإنسانية؛ فليس هناك بلاط للمعجزات دون أصدقاء للإنسانية، وفرنسا غنية في هذا المجال، وبالضرورة فقد صدّرت إلى هنا من لا يبغون سوى تقديم إخلاصهم الواضح، والمجزي قدر الإمكان؛ وذات يوم ألقوا نظرة حنوّ فيها استعلاء على هذه الكتلة البشرية، في ثيابها الرثّة من المهملين لكل أنواع البناء الروحي، والمعرضين ليكونوا ضحايا لكل انحراف. بدا لهم أن مستوانا الأخلاقي في خطر، فسارعوا إلى إنقاذه، إذ أنه في مغامرة كهذه يبقى العامل الأخلاقي أساسياً. وهكذا هي الحياة، هناك من يغضبون من خبزك، وهناك من يغضبون من حريتك، وهناك من يغضبون من أخلاقك.

وشارك في ذلك شخص من مدينة ليون يدعّي أنه رئيس تحرير صحيفة (ليفّور) -مؤهلات-، وعقيد، وإذا لم تخنّي الذاكرة، أحد كبار موظفي التموين، وأعرج قصير يدعي أنه شيوعي، ولكن أهل مدينة تولوز يتهمونه بأنه وشى بهم للغستابو أثناء التحقيق معه؛ وضع هؤلاء برنامج جولات غنائية ومحاضرات عن موضوعات متنوعة؛ حتى يوم الأحد سمعنا عرضاً حول مرض سيفيليس الكلاب، وأخرى حول إنتاج النفط في العالم، ودور النفط بعد الحرب، وثالثة حول التنظيم المقارن للعمل في روسيا وأميركا: ولم تصل هذه الخطب إلينا...

يوم الأحد كان هناك برنامج متواصل من الساعة الثالثة حتى السادسة بوجود قيّم على البرنامج، وشارك به عشرة من المتطوعين كل ينسج على منواله، وكانت المشاعر المختلفة تتصاعد من أعماق النفس، واتّضحت الشخصيات الأكثر اختلافاً: فمن (الكمان المحطم) إلى (الجندي الألزاسي) حتى (مارغو باقية في القرية) و (قلب الليلك)؛ والدعابات الأكثر جرأة، والمنولوجات الأكثر إضحاكاً. كان هذا التهريج يتنافى مع المكان والناس والوضع الذي كنا فيه، والاهتمامات التي كان يجب أن تشغلنا: والحق يقال إن الفرنسيين يستحقون سمعة خفة الدم التي ينسبها العالم إليهم.

«أعرف كنيسة في أعماق ضيعة صغيرة»... ترقرقت الدموع في أعين الجميع، وعادت الوجوه إلى اتخاذ قسمات إنسانية، وعاد أولئك الذين فقدوا توازنهم رجالاً. وأدركت قيمة «ناي برتراندو البطيء» و(الراعي نافخ المزمار) بالنسبة (لصغار غاسكونيا) المنسوبة إلى (سيرانو دي بيرجيراك). وعذرت أصدقاء الإنسانية، وعلى الفور، نذرت اعترافاً خالداً بالجميل لجان لومبير.

في الأسبوع الثاني، تغير الموقف فجأة، كان هناك إجراءات يجب إتمامها؛ صباح الاثنين، اقتحم الممرضون البناء، والمباضع بأيديهم؛ حملة تلقيح؛ كل الناس عراة في المهجع؛ وخلال العودة إلى المطعم، كل واحد كان يوقف وهو مار، ويلقح بدوره. تكررت العملية ثلاث أو أربع مرات، مع بضعة أيام فاصلاً زمنياً. وبعد الظهر كان دور المكتب السياسي للمعسكر الذي كان يقوم بانقضاض ويجري تحقيقاً مكثفاً حول الهوية والمهنة والمعتقدات السياسية وأسباب التوقيف والتهجير. واستغرق ذلك ثلاثة أو أربعة أيام بالتناوب مع اللقاحات والسخرة المتعلقة بالغائط.

سخرة الغائط: آه! يا أصدقائي! كل فضلات ما بين ثلاثين وأربعين ألفاً من سكان المعسكر كانت تتجمع في حفرة وتشكل مخروطاً من البراز. وبما أنه لا يجوز أن يضيع شيء. كانت هناك مجموعة خاصة، تنشر، كل يوم، هذا الغذاء الثمين في حدائق المعسكر التي تنتج خضاراً للشرطة العسكرية النازية (SS). ومنذ بدأت مواكب الغرباء تتدفق بدفعات متلاحقة، فكر الموقوفون الألمان الذين يتولون الشؤون الإدارية في المعسكر بإسناد هذا العمل إلى القادمين الجدد: وهذا لديهم يقوم مقام المهزلة التقليدية التي تتم مع المجندين الجدد في الثكنات الفرنسية، مما يدخل التسلية إلى نفوسهم. وهذه السخرة هي من أشقّ الأعمال. كان يربط كل اثنين من المعتقلين إلى حوض خشبي على شكل جذع هرمي ذي قاعدة مستطيلة، يحتوي على (الشيء)، ويدورون بين (المستودع) والحدائق. مثل الخيل في السيرك، وخلال اثنتي عشرة ساعة متتالية، في البرد، في الثلج، ويعودون مساء إلى البناء، منهكين تفوح منهم الرائحة

النتنة.

وذات يوم، أعلمونا أنه من أجل ألاّ نلتحق بأية مجموعة، على بنائنا أن يعمل كل يوم، صباحاً وبعد الظهر، خلال باقي أيام الحجر الصحي، على نقل الحجارة، وقرر رئيس البناء بدلاً من أن يرسل مجموعات مؤلفة من مائة رجل يعملون اثنتي عشرة ساعة متتالية، فمن الأسهل أن نذهب جميعاً أي الأربعمائة، وأن نبقى ساعتين في الخارج كل مرة. ووافق الجميع على ذلك.

ومنذ ذلك اليوم، كنا نتتابع صباح مساء ومن خلال المعسكر إلى رجل المهجع في المقلع ونأخذ حجارة بمقدار ما تتحمله قوتنا ونفصلها في المعسكر إلى زمر حيث يتولون تحطيمها ليرصفوا فيها الشوارع ثم نعود إلى البناء. كان هذا العمل بسيطاً، ولا سيما بالمقارنة مع عمل العاملين في المقالع الذين يستخرجون الحجر تحت إهانات وضرب شرطة مراقبة العمل. وكنا نمر أربع مرات في اليوم قرب الدارات التي تقول الإشاعات أن ليون بلوم، ودالادييه، ورينو، وغاملان، والأميرة مافالدا ابنة ملك إيطاليا، موقوفون فيها، وحسدنا جميعاً مصير هؤلاء المتميزين. وفي كل مرة كنت أسمع بعض التعليقات:

– الذئاب لا تأكل بعضها.

– وفقاً لما أنت عليه قادر أم بائس...

– العظماء، يا صاحبي، تقتل نفسك من أجلهم ويتعاملون بعضهم مع بعض بأدب!

– إن قوانين هتلر العنصرية، مطبقة على كل اليهود ما عدا واحداً.

إلخ...،إلخ....

كان بين صفوفنا رئيس وزراء سابق لبلجيكا، ووزير فرنسي سابق، وشخصيات أخرى متفاوتة في قيمتها. وكان هؤلاء أشد شعوراً بالعذاب منا لدى رؤيتهم هذه المعاملة التي يتمتع بها سكان الدارات. ويروى أنه كان لكل منهم غرفتان، ومذياع

والصحف الألمانية والأجنبية وأنهم يتناولون ثلاث وجبات يومياً. ومن المؤكد أنهم لا يعملون مطلقاً.

كان ليون بلوم محسوداً بشكل خاص، فقد أرادت المصادفة أن نكون في إحدى الرحلات، فرنان وأنا، إذ أننا لا نفترق قط، إلى جانب الوزير الفرنسي، فقال لنا:

– لماذا ليون بلوم، وليس أنا؟

من نبرة صوته، شعرنا أنه لا يجد غرابة في أن نسخّر لأعمال العبيد الدنيئة. ولكن هو، انظروا إليه، وزير سابق!

هزّ فرنان كتفيه، أما أنا فكنت مرتبكاً.

وفي يوم آخر بدلاً من أن يقودونا إلى سخرة الحجارة ذهبوا بنا إلى إدارة قياس الأجسام، حيث يجب أن يصورونا (من الوجه ومن الجانب) ويأخذوا بصماتنا. وكان هناك أفراد ضخام سمان يلبسون الفرو، وهم مع ذلك موقوفون مثلنا، ولكنهم يضعون على أذرعهم شارة سلطة ما، وكانوا يزمجرون في إثرنا. وأمامي كان يمشي الدكتور س... والأعرج الشيوعي القصير الذي كان في شفاعة رئيس البناء ومعروفاً أنه محل ثقته في نظر الفرنسيين. وأصغيت إلى المحادثة: كان الدكتور س... الذي يعلم الجميع أنه في محافظته، كان، لمرات عديدة، مرشحاً عن الاتحاد من أجل الجمهورية الجديدة للمجلس العام أو لانتخابات أخرى، يشرح للأعرج القصير أنه ليس شيوعياً، ولكنه أيضاً ليس ضد الشيوعية، بل على العكس: لقد فتحت الحرب عينيه، وربما حينما تتاح له الفرصة كي يستوعب العقيدة... والحقيقة أنه منذ يومين، بدأ الحديث عن الانتقال إلى (دورا) والدكتور س... بدأ يمهد الأمر للبقاء في بوشنفالد. مسكين!

وفجأة تلقيت لكمة قوية: ويبدو أنني خرجت قليلاً عن الصف، وأنا مستغرق في أفكاري التي ولدتها المحادثة. التفتّ فتلقيت في وجهي وابلاً من الشتائم بالألمانية، فهمت من خلالها: «هنا بوشنفالد، أيها الأحمق، انظر هناك محرقة الجثث». هذا كل

ما عرفته عن سبب اللكمة. وبالمقابل، ومن أجل أن يوضح لي مدى تبريرها، التفت الأعرج القصير نحوي قائلاً:

- كان عليك أن تنتبه: إنه تالمان!

وصلنا إلى مدخل بناء إدارة قياس الأجسام. كان شخص آخر يحمل الشارة والسوط المطاطي، يدفعنا بضراوة في صفوف إلى الحاجز. وهذه المرة، كان الأعرج القصير هو الذي تلقى اللكمة المشبعة بالشتائم، وحينما هدأت العاصفة، التفت إليّ قائلاً:

- إن هذا لا يدهشني من هذا المغفّل: إنه برايتشايد.

لم أشعر، بأية حال من الأحوال، بحاجة إلى التحقق من هويّة هذين الخبيثين. واكتفيت بالابتسامة لمجرد فكرة أنهم حققوا أخيراً وحدة العمل التي طالما تحدثوا عنها قبل الحرب، وبالإعجاب بهذا الشعور الحاد بفوارق الألفاظ لدى الأعرج القصير حتى في ردود فعله.

* * *

أنا متشائم، وعلى الأقل هذا ما عُرف عني.

في بادئ الأمر لم أكن أصدّق الأنباء المتفائلة التي يأتي بها جوني، كل مساء، إلى البناء. وجوني هو زنجي، رأيته للمرة الأولى في كومبيني حيث سمعته يروي بلهجة أميركية، يشدد فيها على ألفاظه، أنه كان قائداً لقلعة طائرة، وخلال إحدى الغارات على ڤايمار، أصيبت طائرته فاضطر إلى القفز بالمظلة. ولدى وصوله إلى بوشنڤالد، أنشأ يتحدث الفرنسية، وادعى أنه طبيب. وكان يتحدث لغتين على نحو جيد كما يتحدث الفرنسية: الألمانية والإنكليزية. وبفضل هذه الميزة، وخياله، وثقافته التي لا خلاف عليها، نجح في أن يُعين طبيباً قبل أن ينتهي موعد الحجر الصحي.

كان الفرنسيون مقتنعين أنه لم يكن طبيباً ولا قائد قلعة طائرة، ولكنهم اعترفوا

بمهارته التي عرف كيف يستتر بها. كل مساء كان محاطاً بالكثيرين، وكان مكان المعاينة هو المكان الوحيد الذي يمكن أن تأتي منه الأنباء الموثوقة، وكان جوني أيضاً على الرغم من سمعة التبجح التي تلازمه، كان يؤخذ كلامه على محمل الجد من الجميع حينما يتحدث عن أحداث الحرب. ذات مساء عاد وهو يحمل أنباء عن ثورة في برلين، وفي مساء آخر، جاء بفتنة القوات العسكرية في الجبهة الشرقية، وفي مساء ثالث، جاء بإنزال الحلفاء في أوستاند (بلجيكا)، وفي مساء رابع جاء بأخذ الصليب الأحمر الدولي لمعسكرات الاعتقال على عاتقه، الخ...،الخ...

لم يكن جوني محروماً قط من الأنباء السارة، التي تجعل الرأي العام كل مساء بعد وصوله إلى البناء يعتقد أن الحرب ستنتهي في غضون شهرين في شباط عام ١٩٤٤. لقد أرهقني هو والاخرون بسذاجتهم. وقد اعتدت أن أجيب أولئك الذين يقتربون مني ليحدثوني عن يقينهم بما ينفخ فيهم جوني أني، من ناحيتي، مقتنع بأن الحرب لن تنتهي قبل سنتين. ولما كنت، من ناحية أخرى، من أولئك النادرين الذين لم يؤمنوا بسقوط ستالينغراد، وذلك من خلال النظر في الأمور، وأني أقررت بذلك حتى بعد فوات الأوان، فقد قاموا بتصنيفي.

والواقع أني كنت أستقبل كل أمر بتشاؤم لا يتزعزع. ألوان الرعب، الأكثر دقّة التي تُروى عن ماضي المعسكرات، والافتراضات المتفائلة حول السلوك المقبل للشرطة العسكرية النازية (S.S) الذين يشعرون بأن رياح الهزيمة تهبّ على ألمانيا، ويودون تحسين سمعتهم في نظر من سينتصرون عليهم، والإشاعات التي تطمئن حول مصيرنا المقبل. كنت أنكر ما كان يبدو بديهياً، وعلى سبيل المثال، كان هناك كتابة مسجلة على الحاجز المشبك بالحديد الذي يغلق مدخل المعسكر؛ بينما كنت ذاهباً ذات يوم إلى سخرة الحجارة قرأت عبارة بالألمانية، وترجمتها حسب مبادئ الألمانية التي أملكها: «لكل مصيره». وكل الفرنسيين كانوا مقتنعين أنها العبارة الشهيرة لدانتي الموضوعة على أبواب الجحيم: «أنتم الذين تدخلون إلى هنا، تخلّوا عن أي أمل».

طفح الكيل، وأصبحت كافراً في نظرهم.

* * *

ينقسم البناء إلى فئتين: من ناحية، الوافدون الجدد، ومن ناحية أخرى الأفراد الأحد عشر، رئيس البناء والمحاسب والحلاق ورجال المهاجع الألمان والسلاف والذين يشكلون هيكله الإداري. وكان هناك نوع من التضامن الذي يضرب صفحاً بكل العقبات، واختلاف الظروف والمفاهيم، ويوحد حتى في الجحود، أولئك ضد هؤلاء. وهؤلاء هم الموقوفون مثلنا، ولكن منذ أمد بعيد، يملكون كل صنوف مكر حياة السجون، ويتصرفون كما لو أنهم سادتنا الحقيقيون، فهم يقودوننا بالشتائم، والتهديد، والهراوة، ولم يكن من الممكن إلا أن نعدهم عملاء محرضين وخدماً تافهين للشرطة العسكرية النازية، وتبيّنت أخيراً فقط من هم (الرقباء)

إنهم القيمون على السجون والرجال الموثوقون في سجون الأشغال الشاقة الذين تحدث عنهم الأدب الفرنسي خلال معالجته للمؤسسات الإصلاحية في مختلف مستوياتها. من الصباح حتى المساء كان أصحابنا، منتفخي الصدور، يتبجحون بقدرتهم على إرسالنا إلى محرقة الجثث لدى أدنى حماقة أو مجرد كلمة. وكانوا أيضاً، منذ الصباح حتى المساء، يأكلون ويدخنون، ويختلسون، على مرأى ومسمع من الجميع، وبوقاحة، من أرزاقنا: ليترات من الحساء، وشطائر من المارغرين، وبطاطا مقلية بالبصل والفليفلة؛ لم يكونوا يعملون، كانوا سماناً. وكانوا يشمئزون منا.

في هذا الوسط، تعرفت على بيرتشاه.

بيرتشاه تشيكي وهو محامٍ، قبل الحرب كان العمدة المساعد لمدينة براغ. وكان أول عمل قام به الألمان لدى استيلائهم على تشيكوسلوفاكيا هو توقيفه وترحيله.

مضت عليه أربع سنوات وهو يتسكع بين المعسكرات، كان يعرفها كلها: أوشفيتز، ماوتاوزن، داشو، أورانينبورغ... وأنقذه حادث عادي منذ سنتين وأتى به إلى بوشنفالد، في وسيلة نقل خاصة بالمرضى. ومنذ قدومه تمكن أحد مواطنيه من أن يسند إليه وظيفة مترجم عام للسلافيين. وهو يأمل في أن يحتفظ بها حتى نهاية الحرب التي لا يعتقد أنها وشيكة، ولكنه يشعر أنها آتية في نهاية الأمر. كان يعيش في البناء ٤٨ مع الرقباء الذين يعتقدون أنه واحد منهم، ولكنه كان يبرهن لنا دائماً عما يجعلنا نعدّه واحداً منا: بأرزاقه التي يوزعها، والكتب التي يحصل عليها ويعيرنا إياها.

ولأول مرة احتك بيرتشاه بالفرنسيين. كان ينظر إليهم بفضول، وبشفقة أيضاً: أهؤلاء هم الفرنسيون؟ أهذه هي الثقافة الفرنسية التي طالما حدثوه عنها إبّان دراساته؟ خاب ظنه، ولم يصدق ذلك.

قرّبه مني تشاؤمي والأسلوب الذي اتبعه بانتظام بعيداً عن الحياة الصاخبة للبناء.

أهذه هي المقاومة؟

ولم أحر جواباً، ولأصلح ذات البين بينه وبين فرنسا قدمت له كريميو.

من المؤكد أنه لم يكن يقرّ سلوك (الرقباء)، ولكن ذلك لم يعد يصدمه حتى أنه لم يكن يحتقرهم: إنهم يتصرفون مع الآخرين كما كان غيرهم يتصرف معهم. قال:

– شاهدت أسوأ من ذلك... يجب ألا ننتظر من الناس كثيراً من الوهم على درب الخير. حينما ينال عبد رتبته دون أن تتغير ظروفه يصبح أكثر تعسفاً من الظالمين أنفسهم.

وروى لي قصة بوشنفالد والمعسكرات:

– هناك الكثير من الحق فيما يروى عن الأهوال التي هي مسرح لها، ولكن هناك كثير من المبالغات أيضاً. يجب أن نأخذ في الحسبان عقدة افتراءات أوليسيوس

التي هي عقد كل الناس، وبالتالي كل المصالح، والبشرية بحاجة إلى المذهل في الشر كما في الخير، وفي القبيح كما هو في الجميل. والكل يأمل في أن يخرج من المغامرة بهالة القديس أو البطل أو الشهيد، وكلٌ يضيف إلى ملحمته دون أن يدري أن الواقع كاف كل الكفاية بحد ذاته.

لم يكن يشعر بالحقد نحو الألمان. وفي رأيه أن معسكرات الاعتقال ليست وقفاً على الألمان ولا تتعلق بغرائز خاصة بالشعب الألماني.

فالمعسكرات -كما يقول- ظاهرة تاريخية واجتماعية تمر بها كل الشعوب التي وصلت إلى مفهوم الأمة والدولة. فقد عرفت في العصور القديمة، وفي القرون الوسطى، وفي العصور الحديثة: فلماذا تريد أن يكون هناك استثناء في العصر الحاضر؟ قبل ميلاد السيد المسيح بأمد بعيد لم يجد المصريون سوى هذه الطريقة لجعل اليهود غير ضارين بازدهارهم، ولم تبلغ بابل مجدها المذهل إلا بفضل أسرى المعسكرات. والانكليز أنفسهم لجأوا إلى ذلك مع البوير التعساء. ثم نابوليون الذي اخترع (لامبسًا)، وحالياً يوجد في روسيا كل ما يتمناه الألمان. المعسكرات توجد في إسبانيا وفي إيطاليا وحتى في فرنسا؛ ستقابل هنا إسباناً وسترى ما سيحدثونك به عن معسكر (غور) في فرنسا حيث زربوهم غداة انتصار فرانكو.

وغامرت بملاحظة:

- ولكن في فرنسا، مع ذلك، استقبلوا الجمهوريين الاسبان بدافع إنساني، وأنا لا أعلم أنه قد أسيئت معاملتهم.

- وفي ألمانيا أيضاً، بدافع إنساني. فالألمان حينما يذكرون مثل هذه المؤسسة يطلقون عليها بالألمانية اسماً معناه معسكر الموقوفين المحميين. فالحزب النازي أراد حين وصوله إلى السلطة، وبمبادرة فيها شيء من الدماثة، أن يضع خصومه خارج نطاق الإضرار به، وليحميهم ضد الغضب العام، والانتهاء من عمليات القتل في زوايا الشوارع، وإصلاح الأبناء العاقّين وإرشادهم إلى سواء السبيل في مفهوم المجتمع

الألماني الموحد، ومصيره والدور الذي على كل أن يقوم به وسطه. ولكن الحزب النازي كانت قد تجاوزته الأحداث ولا سيما ما قام به رجاله. كان ذلك يشبه حكاية خسوف القمر التي تُروى في الثكنات. قال العقيد، ذات يوم، للرائد أنه سيحدث خسوف للقمر وأن على ذوي الرتب أن يقوموا بجعل كل الجنود يراقبون هذه الظاهرة مع شرحها لهم. ونقل الرائد ذلك للنقيب، ووصل الخبر إلى الجندي بواسطة العريف كما يلي: «بأمر من العقيد، سيتم خسوف للقمر في الساعة ٢٣ من هذا المساء، وكل من لا يحضر ذلك سيقضي أربعة أيام في السجن العسكري». وهذا ما كان من أمر معسكرات الاعتقال؛ فقد صممتها قيادة الحزب النازي وحددت لائحتها الداخلية التي طبقها قدامى العاطلين عن العمل بوساطة (الرقباء) الذين اختيروا من بيننا. وفي فرنسا كانت حكومة (دالادييه) الديمقراطية قد صممت معسكر (غور) وحددت لائحته، وأسند تطبيق هذه اللائحة إلى الدرك والحرس الجوال الذين كانت قدراتهم على تفسيرها محدودة جداً.

«كانت المسيحية هي التي أدخلت على القانون الروماني الطابع الإنساني الذي أضفته على العقاب، وحددت له الهدف الأول في إصلاح الجانح. ولكن المسيحية لم تحسب حساباً للطبيعة البشرية التي لا يمكن أن تصل إلى وجدانها إلا من خلال خلفية من الشرّ. صدقني، هناك ثلاثة أصناف من البشر يبقون هم أنفسهم، كل في نوعيته، في كل عصور التاريخ وفي كل المناخات: الشرطة، ورجال الدين، والجنود. أما هنا فقضيتنا مع الشرطة».

من البديهي، أن قضيتنا هي مع الشرطة. لم أقع في نزاع إلا مع الشرطة الألمانية، ولكني غالباً ما قرأت وسمعت أن الشرطة الفرنسية لم تكن تتميّز بدماثة خاصة، وأذكر أني في هذه اللحظة من حديث بيرتشاه، أثرت قضية (ألمازيان). ولكن ألمازيان كان متهماً بجريمة من جرائم الحق العام، ونحن سياسيون. وعلى ما يبدو، فإن الألمان لا يفرقون بين الحق العام والحق السياسي، وهذا الاختلاط بين هؤلاء

وأولئك في المعسكرات... وقال لي بيرتشاه:

– مهلاً، مهلاً، يبدو أنك نسيت أن الذي كتب ذات يوم: «أنا من أنصار إلغاء عقوبة الإعدام في جرائم الحق العام، وإعادتها فيما يتعلق بالحق السياسي» كان فرنسياً، مثقفاً تفخر به فرنسا، أديباً مرهفاً، فيلسوفاً كبيراً، إنه أناتول فرانس.

لما كان رجال الشرطة العسكرية، قبل نهاية الحجر الصحي لم يتدخلوا قط في حياة *المعسكر الخاصة الذي* كان يبدو مستسلماً لنفسه، سيداً لقوانينه ولوائحه، فقد كنت مقتنعاً أن بيرتشاه كان على حق في معظم ما ذكره: كان الحزب النازي والشرطة العسكرية قد لجأا إلى هذه الوسيلة التقليدية في القمع، والموقوفون أنفسهم جعلوا منها *أيضاً ما هو أسوأ*.

وأثرنا معاً قضايا أخرى، ولا سيما الحرب، وما بعد الحرب. كان بيرتشاه بورجوازياً ديمقراطياً، محباً للسلام، قال لي:

لقد قسمت تلك الحرب العالم إلى ثلاث كتل متخاصمة: الانكلو-ساكسون الرأسماليين التقليديين، والسوفييت، وألمانيا، وطالما أن ألمانيا مستندة إلى اليابان وإيطاليا: فهناك كتلة زائدة. وسيعرف ما بعد الحرب عالماً منقسماً إلى كتلتين، ولن تكسب ديمقراطية الشعوب من ذلك شيئاً، ولن يكون السلام أقل زعزعة. إنهم يعتقدون أنهم يتقاتلون من أجل الحرية وأن العصر الذهبي سيولد على أنقاض هتلر. سيكون الأمر رهيباً بعد ذلك، إن المسائل نفسها ستطرح على اثنين بدلاً من أن تطرح على ثلاثة، في عالم سيكون مدمَّراً مادياً ومعنوياً. وكان «برتراند رَسِلْ» على حق حينما قال إبان شبابه الشجاع: «إن أياً من الشرور التي يزعم أنه بالإمكان تجنبها بواسطة الحرب، ليس بأفظع من الحرب نفسها».

كنت أشاطره هذا الرأي. بل أزاود عليه.

بعد ذلك، كنت غالباً ما أفكر في بيرتشاه.

* * *

في الساعة الخامسة عشرة من يوم ١٠ آذار، دخل ضابط شرطة عسكرية إلى البناء، وكان اجتماع في الساحة. وهتف بنا:

أوشكنا على الرحيل، وبدأت الترتيبات. منذ ثمانية أيام والإشاعات تدور حول هذا الانتقال، وأخذت الفرضيات مجراها، قال بعضهم إن الاتجاه إلى (دورا)، وقال بعضهم الآخر: إلى كولونيا لإزالة الأنقاض، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، واستعادة ما يمكن الاستفادة منه، وكانت هذه الفرضية الأخيرة هي الغالبة في الرأي. كان الراسخون في العلم يزعمون أن قادة الحزب النازي الذين يشعرون بأنهم خسروا المعركة، أهملوا مجموعة (دورا) التي تعدّ وكأنها جحيم بوشنفالد ولم يعودوا يرسلون أحداً إلى هناك. وأضافوا بما أننا مكلفون من الآن فصاعداً بأعمال خطرة كإزالة الأنقاض، سنعامل معاملة حسنة، في كل لحظة هناك خطر انفجار قنبلة، ولكن سنشبع، فهناك أولاً جراية المعسكر، ومن ثم ما سنجد في الأقبية التي يمتلئ بعضها بالمواد الغذائية.

لم نكن نعلم بعد ما هو دورا، فما من أحد ممن أرسلوا إلى هناك عاد قط. قيل إنه مصنع تحت الأرض في حال دائمة من الإعداد، تصنع فيه أسلحة سرية. يتم العيش في داخله، والطعام والنوم والعمل دون العودة قط إلى النهار. وكل يوم تأتي شاحنات ملأى بالجثث ليتم حرقها في بوشنفالد. ومن هذه الجثث كان يستنتج مدى أهوال هذا المعسكر. ولحسن الحظ فلن نذهب إلى هناك.

في الساعة السادسة كنا ما نزال واقفين أمام البناء، في وضعية الاستعداد، تحت أنظار الشرطة العسكرية. مرّ رئيس البناء بين الصفوف وأخرج المسنين، والعرجان، واليهود. وكان بينهم كريميو الذي يجمع الصفات الثلاث. وكان الأعرج القصير أيضاً هو وبعض الوجوه التي لا تنتمي إلى الشيخوخة ولا العرج ولا اليهودية، ولكننا كنا نعلم أنهم يتظاهرون بالشيوعية أو هم حقاً شيوعيون، فهؤلاء كانوا حائزين على رضا رئيس البناء.

الساعة السادسة عشرة والنصف. الذهاب إلى المشفى من أجل الزيارة الصحية، والزيارة الصحية مسألة شكلية. كان هناك طبيب من الشرطة العسكرية يدخن سيكاراً ضخماً، مسترخياً على أريكة: كنا نمر أمامه بالرتل، وهو لا يكاد ينظر إلينا.

الساعة السابعة عشرة والنصف: اتجاه إلى مخزن الألبسة ألبسونا ثياباً جديدة: بنطالاً وسترة ومعطفاً مخططاً وحذاء ملائماً (من الجلد ونعلة من الخشب) لاستبدال القبقاب الذي لم يكن ملائماً للعمل.

الساعة الثامنة عشرة والنصف: تفقد دام حتى الساعة الحادية والعشرين. علينا، قبل النوم، أن نخيط أرقامنا على حاجاتنا التي حصلنا عليها، على مستوى الثدي الأيسر بالنسبة للسترة والمعطف، وتحت الجيب الأيمن بالنسبة للبنطال.

١١ آذار، الساعة الرابعة والنصف: استيقاظ.

الساعة الخامسة والنصف: تفقد حتى الساعة العاشرة تقريباً. آه! هذه التفقدات! في آذار، وفي البرد، سواء أكانت تمطر أم كانت الريح تهبّ، بقينا ساعات واقفين يحصوننا ثم يعاودون إحصاءنا! وكان هذا التفقد العام لكل الذين اختيروا للانتقال، من كل الأبنية، وكان يتم في ساحة التفقد أمام البرج.

الساعة الحادية عشرة: الحساء.

الساعة الرابعة عشرة: تفقد جديد دام حتى الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة: لقد فقدنا مفهوم الزمن.

١٢ آذار: استيقاظ كالعادة، تفقد من الساعة الخامسة والنصف حتى العاشرة. التفقد، ودائماً التفقد كانوا يودون جعلنا مجانين. وفي الساعة الخامسة عشرة غادرنا نهائياً البناء ٤٨، وبعد تدريب عدة ساعات في الساحة، توجهنا إلى بناء (السينما) حيث قضينا الليلة، ومن كان أكثر حظوة كان جالساً، أما العدد الأكبر فقد بقي واقفاً.

كان الاستيقاظ في اليوم التالي، في الساعة الثالثة والنصف، مبكرين ساعة عن

العادة، وقادونا إلى ما تحت البرج وانتظرنا رحيلنا واقفين، في الليل والبرد، وبطوننا خاوية منذ الساعة الحادية عشرة من قبل ظهر أمس. وبين السابعة والثامنة صعدنا إلى المقطورات.

كانت الرحلة خالية من الأحداث، كنا مرتاحين ونحن نثرثر. والموضوع الأساسي كان: إلى أين نحن ذاهبون، كان القطار يتجه نحو الغرب: إلى كولونيا، حسناً! لقد ربحنا! وزهاء الساعة السادسة عشرة، توقف وسط الحقول فيما يشبه محطة لتبديل الخطوط والمقطورات، حيث كان يتعثر في الوحل وتحت الثلج أشقياء شاحبون قذرون في أسمال مخططة على طريقة ثيابنا الجديدة نفسها، يفرغون المقطورات، ويحفرون شبكات الأقنية، ويحملون الركام على عربات النقل. وكان هناك رجال يضعون الشارات والأرقام، لباسهم جيد، ممتلئون صحة يحثونهم بالتهديد والشتائم والعصي. وعلى الرغم من منعنا من أن نتوجه إليهم بالكلام، فقد خاطرنا بسؤالهم بصوت منخفض قدر الإمكان، ونحن مارون أمامهم، وخلال فرصة سنحت كانوا فيها بعيدين عن كل رقابة:

– قل لي، أين نحن هنا؟

– في دورا، يا صاح، إنك لم تتخلص من التغوط.

ونظرنا فرنان وأنا، واحدنا إلى الآخر، وكنا نتماسك بيدينا. لم نصدق إلا بعد جهد شائعة كولونيا المتفائلة، واستولى اليأس علينا، وأصابنا الذهول وشعرنا بظل الموت يحوم فوق رؤوسنا.

الفصل الثاني

دوائر الجحيم

لم يكن بوشنفالد في ٣٠ حزيران ١٩٣٣ سوى ما يدل على معنى الكلمة: غابة الزان. وهو مكان مشرف على هضبة بين سلسلة قمم كتلة الهارتس الجبلية، على بعد تسعة كيلومترات من فايمار. ويتم الوصول إليه بواسطة شِعب متعرج كثير الحصى. وذات يوم قدم رجال بالسيارة حتى سفح الهضبة، ووصلوا إلى القمة سيراً على الأقدام، كما لو أنهم في نزهة، وتفحصوا المكان بوقار، وأشار أحدهم إلى حقل قصير الأشجار غير كثيف، ثم عادوا بعد أن تناولوا غداء شهياً، مارين بفايمار. وصرحوا:

– سيكون زعيمنا (الفوهرر) مسروراً.

وبعد فترة قصيرة، جاء آخرون، كانوا مقيدين بالسلاسل كل خمسة بعضهم مع بعض، ويشكلون مفرزة من مائة رجل محاطين بعشرين من رجال الشرطة العسكرية المدججين بالسلاح. لم يبق هناك مكان في السجون الألمانية. وحفروا الشِّعب قدر المستطاع تحت الشتائم والضربات. وحينما وصلوا إلى القمة وقد أعياهم التعب، باشروا العمل دون توقف. وجهزت مجموعة من خمسين رجلاً مجدداً الخيام من أجل الشرطة العسكرية، بينما كانت المجموعة الأخرى تضع دائرة من الأسلاك الشائكة على ثلاثة صفوف ارتفاعاً وبلغ نصف قطر الدائرة مائة متر. وكان هذا كل ما يمكن إنجازه في اليوم الأول. تناولوا على عجل، وهم لا يكادون يتوقفون عن العمل، فطوراً هزيلاً وفي المساء المتأخر جداً ناموا على الأرض نفسها متلحفين غطاء رقيقاً. وفي اليوم التالي ظلت المجموعة الأولى طيلة النهار تفرغ مواد للبناء تصلح أجزاء لأكواخ خشبية، استطاعت الجرارات الثقيلة إيصالها إلى منتصف منحدر

الهضبة، ثم تم رفعها على ظهور الرجال حتى القمة، داخل الأسلاك الشائكة. أما المجموعة الثانية فقد قطعت الأشجار لإخلاء المكان. ولم يأكلوا في ذلك اليوم لأنهم لم يأتوا إلا بأرزاق يوم واحد. ولكنهم في الليل، ناموا نومة أهنأ، في ظل الأغصان وفوق التواءات كتل ألواح الخشب.

ومنذ اليوم الثالث، بدأت مواد الأكواخ الخشبية تصل بوتيرة أسرع وتتكوّم في منتصف طريق القمة. وكان ضمنها عدة المطبخ، وملابس مخططة بالعدد. وأدوات وبعض المؤونة. وقد أظهر رجال الشرطة العسكرية في تقريرهم اليومي أنهم لن يتمكنوا بواسطة مائة رجل تفريغ ما يصلهم أولاً بأول؛ فأرسل إليهم رجال آخرون، وأصبحت الأرزاق لا تكفي. وفي نهاية الأسبوع، كان خمسون من رجال الشرطة العسكرية يتخبطون مع ما يزيد على ألف موقوف لا يعرفون أين يسكنونهم ليلاً، ولا يكادون يطعمونهم، ووسط كل هذا الحشد زاد العدد عن إمكانات تنظيم العمل. صحيح أنهم أقاموا عدة مجموعات تختص كل منها بمهمة معينة: أولاً، مطبخ الشرطة العسكرية، والعناية بمعسكرهم، مطبخ الموقوفين، تجهيز الأكواخ، نقل المعدات، التنظيم الداخلي، المحاسبة. لدى كتابة هذا على الورق، في التقارير، كان يعبّر عن تنظيم واضح ومنهجي، ولكن في الواقع كانت هناك بلبلة كبيرة، جمهرة هائلة من الرجال، يأكلون من حيث الشكل، يعملون بشكل يثير الشفقة، ينامون دون غطاء تقريباً على ركام من ألواح الخشب والأغصان. وبما أنه من الأسهل مراقبتهم أثناء العمل من مراقبتهم أثناء النوم، كان يوم العمل اثنتي عشرة، وأربع عشرة وست عشرة ساعة. كان على الحراس الذين لم يكن عددهم كافياً أن يختاروا التتمة من المساعدين من كتلة الموقوفين، وكان الاختيار يتم على الهيئة. وبما أن ضميرهم كان يؤنبهم على هذا فقد فرضوا الإرهاب أسلوباً للاعتذار وتبرير عملهم. فكانت الضربات تنهال بالإضافة إلى الشتائم والتهديد.

كان سوء المعاملة، وسوء التغذية وقلتها، والعمل الذي فوق الطاقة البشرية،

وغياب العلاج، ومرض ذات الرئة، سبباً في شروع هذا القطيع بالموت وبطريقة مخيفة وخطيرة على السلامة العامة. كان ينبغي التفكير بإخفاء الجثث بأسلوب آخر غير الدفن الذي يأخذ الكثير من الوقت، وسيكون كثير التكرار غالباً: فلجأوا إلى حرق الجثث الأسرع والأكثر ملاءمة للتقاليد الجرمانية. وهكذا أصبحت هناك ضرورة لفصيلة جديدة هي فصيلة الموت وإنشاء فرن لحرق الجثث، وسُجل هذا على لائحة الأعمال المطلوب تحقيقها مع طلب الاستعجال الذي تفرضه الظروف: وهكذا حصل أن تم بناء المكان الذي يجب أن يموت فيه هؤلاء الناس، قبل المكان المنويّ السماح لهم بالعيش فيه، الكل يرتبط بعضه ببعض، والشر يستدعي الشر، وحينما نكون مأخوذين في دوامة القوى الشريرة...

فضلاً عن ذلك، فإن المعسكر لم يصمم في ذهن قيادة الحزب النازي ليكون مجرد معسكر، بل لتعيش فيه جماعة تعمل تحت الرقابة لبناء صرح الرايخ الثالث بالأسلوب نفسه المطبق على باقي المساجين من المجتمع الألماني الذين بقوا يتمتعون بالحرية النسبية كما هو معروف. وبعد ذلك تأتي محرقة الجثث، والمصنع، ومع ذلك نرى أن الأمر المستعجل لكل الإعدادات كان محدداً، قبل كل شيء، بالاهتمام بالحراسة الجيدة، ثم بالصحة، وثالثاً باحتياجات العمل المثمر. وأخيراً، وفي نهاية المطاف بالحقوق القابلة للتقادم للفرد البشري: فالحرس، ومحرقة الجثث، والمصنع، والمطبخ... كل ذلك تابع للمصلحة الجماعية التي تطأ الفرد وتسحقه.

إذن، كان بوشنفالد، خلال الاستعدادات الأولية معسكر عقوبة حيث لم يكن يرسل إليه سوى الناس الذين يعدون غير قابلين للإصلاح، وحينما أصبح المصنع في حال تسمح له بالدوران أصبح معسكر عمل ذا فصائل خاضعة للعقاب، ثم معسكر اعتقال، أي ما كان عليه حين عرفناه، معسكراً منظماً بكل دوائره المرتبة، حيث كان الجميع يرسلون دون تمييز. ومنذ تلك الفترة، وجدت معسكرات فرعية أو فصائل خارجية مرتبطة به، يمدها بالعنصر البشري أو لا شيء. كل المعسكرات مرت بهذه

الفترات الثلاث المتتابعة. ومن سوء الحظ ما حصل من أن الحرب جاءت على حين غرّة، وأصبح السجناء من كل الأجناس، ومن كل الحالات، ومن كل المخالفات، ومن كل العقوبات التأديبية، من قلة حظهم، وفقاً لمزاج الرؤساء وفوضى الظروف، يُرسلون كيفما اتفق، إلى معسكرات العقوبة أو معسكرات العمل، أو معسكرات الاعتقال. ونجم عن ذلك خليط رهيب من البشر المختلفين الذين يشكلون، تحت تأثير السوط المطاطي، جماعة عملاقة من المتخاصمين، يسيطر عليها الحزب النازي المتمكن من نفسه، والمنهجي في تظاهراته، ولكن الأحداث التي بدأت تحكمه أرهقته من كل حدب وصوب، وأسدلت عليه ستاراً كثيفاً.

نشأ (دورا) تحت رعاية بوشنفالد وفي الظروف نفسها، ونما وازدهر متابعاً الاجراءات نفسها.

عام ١٩٠٣ لاحظ بعض المهندسين والكيميائيين الألمان أن حجر هضاب الهارتس في هذا المكان غني بالأمونياك. ونظراً لعدم مخاطرة أية شركة خاصة برؤوس الأموال من أجل استخراجه، فقد أخذت الدولة الأمر على عاتقها. ولم يكن للدولة الألمانية، كما كان لجيرانها، مستعمرات صالحة لتضع تحت تصرفها بعض الجزر النائية مثل كايين ونوميا؛ ولذا فقد كانت مرغمة على الاحتفاظ بالمحكومين بالأشغال الشاقة لديها داخل البلاد وحشرهم في أماكن محددة حيث تسند إليهم أعمالاً قاسية. في مثل هذه الشروط نشأ (دورا) مشابهاً لكل معسكرات اعتقال المحكومين بالأشغال الشاقة في العالم مع فارق بسيط قد يكون أحسن بقليل أو أسوأ بقليل. في عام ١٩١٠ توقف استخراج الحجر في دورا، دون أن ندري الكثير عن السبب، بيد أنه من المحتمل أن مردود الأمونياك كان أقل بكثير مما كان مأمولاً. وعاد مرة أخرى خلال حرب ١٩١٤-١٩١٨ على شكل معسكر انتقام بواسطة الأسرى في زمن فكرت فيه ألمانيا بالاختباء تحت الأرض لتحد من أضرار القصف. ومجدداً جاءت الهدنة لتوقف العمل. وفي فترة ما بين الحربين غاب (دورا) في عالم

النسيان: نما النبات بشكل عشوائي فغطى مدخل النفق، وما حوله، ونمت حقول واسعة من الشوندر لتموين مصنع السكر في نوردهاوزن، على مسافة ستة كيلومترات من هناك.

في حقول الشوندر هذه، رمى معسكر بوشنفالد، في الأول من أيلول عام ١٩٤٣، بأول مجموعة مؤلفة من مائتي رجل مصحوبين بحراسة مشددة: إذ أن ألمانيا التي شعرت مجدداً بحاجتها لنقل صناعتها الحربية على الأقل إلى ما تحت الأرض، عادت إلى مشروع عام ١٩١٥: بناء معسكر للشرطة العسكرية، محرقة الجثث، تهيئة النفق ليكون معملاً، ومطابخ، وحمامات، ورقابة إدارية ومالية، وأخيراً المشفى. ولما كان هناك السرداب، فقد استخدم للنوم أطول مدة ممكنة، وأجلوا إلى ما بعد بناء أبنية للسجناء لأنه ليس ذا مردود، وفضلوا على ذلك حفر مقدمة ممر النفق ليتاح لهم حفظ المصانع التي يزداد عددها كل يوم والمهددة بالبقاء مكشوفة للسماء.

حين وصلنا إلى دورا، كان المعسكر ما يزال في مرحلة معسكر العقوبة: وحوّلناه إلى معسكر عمل. وحين غادرناه بأبنيته المائة والسبعين، ومشفاه، ومسرحه، وماخوره، ودوائره، ونفقه الذي تمّ إنجازه، كان على أهبة أن يصبح معسكر اعتقال. وكان هناك في نهاية النفق المزدوج معسكر آخر وهو (إلريش)، نشأ برعايته وكان لا يزال في مرحلة معسكر العقوبة، إذ لم يكن من الممكن قطع الصلة مع السلّم الهابط للشقاء الإنساني.

ولكن الانغلو أميركيين والروس قرروا في هذا الأمر شأناً آخر وجاؤوا في ١١ نيسان ١٩٤٥ لإطلاق سراحنا.

ومنذ ذلك الحين فإن نظام السجون أصبح في أيدي الروس الذين لم يبدلوا فيه ولا فاصلة، وغداً سيكون في أيدي...

إذ أنه لا يجوز إطلاقاً أن يكون هناك قطع صلة في التاريخ.

إن معسكر الاعتقال التام هو مدينة حقيقية معزولة عن العالم الخارجي،

محاطة، بسور من الأسلاك الشائكة المكهربة على خمسة صفوف من الارتفاع. وعلى طولها، يوجد كل حوالي خمسين متراً مراصد تؤوي حرساً خاصاً مدججاً بالسلاح. وحتى يكون الستار أكثر كثافة هناك أيضاً معسكر للشرطة العسكرية على بعد حوالي خمسة أو ستة كيلومترات، وحراس مخفيون عن النظر يترصدون على محيط المعسكر؛ فمن حاول الفرار يصادف عدداً من العقبات المتتابعة عليه تجاوزها، ومن الأجدى القول أن كل محاولة مكتوب عليها حقاً الفشل الذريع. لهذه المدينة قوانينها الخاصة بها، ومظاهرها الاجتماعية الخاصة. والأفكار التي تولد فيها، سواء أكانت منعزلة كانت أم ضمن منحى معين، تتلاشى أمام الأسلاك الشائكة وتبقى غير مشكوك بأمرها أمام الآخرين. وكذلك كل مايحدث في الخارج مجهول في الداخل، وكل تدخل يصبح مستحيلاً بسبب الستار الخالي من أية فرجة(١). كانت تصل صحف ولكنها منتقاة بدقة، ولا تقول إلا حقائق مطبوعة بشكل خاص لجمهرة معسكرات الاعتقال. وقد اتفق أنه في زمن الحرب كانت الحقائق التي يطلع عليها أهل معسكرات الاعتقال هي نفسها التي يجب على الألمان أن يجعلوا منها إنجيلهم؛ ولذا كانت الصحف مشتركة بينهما. ولكنها مصادفة محضة. والإذاعة كانت مراقبة. ونجم عن ذلك أن حياة المعسكر المبنية على مبادئ أخلاقية واجتماعية أخرى أخذت اتجاهاً مغايراً للحياة العادية، وأن مظاهرها أضافت جوانب لا يمكن الحكم عليها بوحدات المقاييس العامة لسائر البشر. ولكنها مدينة، مدينة بشرية.

١- يقال أن ألمانيا بأجمعها تقريباً كانت تجهل ما كان يحدث في المعسكرات، وأنا أؤمن بذلك. والشرطة العسكرية المتواجدة في المكان نفسه كانت تجهل الشيء الكثير، أو لم تكن تعلم ببعض الأحداث إلا بعد وقوعها بأمد طويل. ومن جهة أخرى، فمن يعرف اليوم، في فرنسا، تفصيلات حياة السجناء في (كارير) و(نوه) وأماكن أخرى؟ (انظر ملحق الفصل الثاني من الجزء الثاني حول علاقة پيير برنار بالبيت المركزي في ريون ورأي كوغون في الفصل الخامس.

في الداخل -أو في الخارج- ولكن على مقربة، المصنع هو مبرر حياة المعسكر، ووسيلته للبقاء: في بوشنفالد المقلع وفي دورا النفق. هذا المصنع هو حجر الزاوية لكل البناء، واحتياجاته التي يجب تلبيتها هي قانونه. إن المعسكر قام من أجل المصنع، ولم يقم المصنع ليشغل المعسكر.

أول إدارة في المعسكر هي إدارة إحصاء العمل التي تدير محاسبة شديدة لكل الموجودين في المعسكر، وتتابعهم واحداً واحداً، ويوماً بعد يوم، في عملهم: ففي إدارة إحصاء العمل يمكن أن يقال في أية فترة من النهار ماذا يعمل كل سجين مع ذكر المكان المحدد الموجود فيه.

هذه الدائرة، مثلها في ذلك مثل الدوائر الأخرى، مدعومة ببعض السجناء وتضم عدداً كبيراً من العاملين وتتمتع بامتيازات نسبياً.

بعد ذلك يأتي المكتب السياسي، الذي يتولى المحاسبة السياسية للمعسكر، وهو في وضع يمكّنه من إعطاء أية معلومة عن أي معتقل، سواء أكانت عن ماضيه، أم عن خلقه، أم عن أسباب توقيفه، إلخ... إنه إدارة قياس الأجسام في المعسكر، وشرطة أمنه، ولا يشغله سوى عاملين يتمتعون بثقة الشرطة العسكرية، وهم أيضاً يتمتعون بامتيازات.

ثم هناك الإدارة العامة التي تتولى المحاسبة في كل ما يدخل إلى المعسكر: من مواد غذائية، أو معدّات، أو ملابس، إلخ... إنها معتمدية المعسكر، وهي ضابط الصف المكلف بمحاسبة السرية؛ والعاملون المكلفون بعمل مكتبي هم دائماً متمتعون بامتيازات.

هذه الدوائر الثلاث تهيمن على المعسكر، ويوجد على رأسها، أحد شرطة مراقبة العمل، يؤمن قيام المعسكر بوظيفته، وهو خاضع لرقابة ضابط صف في الشرطة العسكرية أو مراقب أول لسير العمل، وهناك مراقب لكل دائرة رئيسة، ويقدم كل منهم تقريره، كل مساء، إلى المراقب العام للمعسكر، وهو ضابط، غالباً ما يكون

برتبة مقدم. وهذا المراقب العام يتواصل مع معسكر المعتقلين، بواسطة مرؤوسيه ورئيس المعسكر الذي تختاره الشرطة العسكرية من بين المعتقلين، وهو يتمتع بالمسؤولية العامة عن المعسكر ويضمن حسن سيره بما في ذلك حياته الخاصة.

وبشكل متواز، هناك دوائر المنطقة الثانية: دائرة الصحة وتتضمن الأطباء والممرضين، ودائرة التعقيم (من جراثيم المرض)، والمستوصف، ومحرقة الجثث؛ وشرطة المعسكر، والإطفائية، وسجن المخالفين لأنظمة المعسكر، وقاعة (السينما) والمسرح، والماخور.

هناك أيضاً المطبخ، ومخزن اللباس المرتبط بالإدارة؛ والكافيتيريا التي تزود المعتقلين بالمواد الغذائية والمشروبات الإضافية مقابل العملة، والمصرف وهو مؤسسة تصدر عملة خاصة لا تسري إلا داخل المعسكر.

والآن إلى كتلة العمال:

إنهم منقسمون في أبنية مبنية على طراز بوشنڤالد، البناء ٤٨ نفسه، ولكن من الخشب، ولا تتضمن سوى طابق أرضي، وهم لا يعيشون فيها إلا ليلاً، فهم يصلون إليها مساء، بعد التفقد، نحو الساعة ٢١، ويغادرونها صباحاً، قبل الفجر، في الساعة الرابعة والنصف، وهم يتبعون رؤساء الأبنية المحاطين بالمحاسبين والحلاقين ومسؤولي الغرف وهم طغاة حقيقيون. يدير رئيس البناء حياة ذلك البناء تحت مراقبة أحد أفراد الشرطة العسكرية، أو مراقب البناء الذي يقدم المعلومات إلى المراقب العام؛ ومراقبو الأبنية لا يظهرون إلا نادراً: وبوجه عام يكتفون بالقيام بزيارة ودية إلى رئيس البناء، خلال النهار، أي في غياب المعتقلين، بحيث أن يكون لرئيس البناء الحكم النهائي وأن تكون متطلباته لا تقبل المراجعة.

في النهار، أي خلال فترة العمل، يخضع المعتقلون إلى صعوبات إطار آخر؛ فبالنسبة لأولئك الذين لا يعملون إلا نهاراً، يُوزّعون على فصائل على رأس كل منها أحد شرطة مراقبة العمل يساعده رئيس زمرة أو اثنان أو أكثر. في كل يوم، منذ

الساعة الرابعة والنصف، يلتقي أفراد شرطة مراقبة العمل ورؤساء الزمر، في ساحة التفقد، وفي مكان محدد -هو نفسه دائماً- ويشكلون فصائلهم الخاصة بهم، ويقودونهم بخطوات منتظمة إلى مكان العمل حيث يعلمهم رئيس عمال مدني المهمة الواجب تحقيقها من قبل رجالهم خلال اليوم. والفصائل المستخدمة في المصنع يعملون اثنتي عشرة ساعة بورديتين ليلية ونهارية وليس ثماني ساعات، وتقسم كل فصيلة إلى زمرتين؛ فهناك الزمرة النهارية التي تتقدم إلى شرطة مراقبة العمل ورؤساء الزمر في الساعة التاسعة صباحاً، والزمرة الليلية التي تتقدم في الساعة التاسعة مساء. والزمرتان تقومان بالعمل بالتناوب أسبوعاً في النهار وأسبوعاً في الليل.

هكذا كان معسكر بوشنڤالد الذي عرفناه. كانت الحياة فيه محتملة بالنسبة للمعتقلين المخصصين نهائياً للمعسكر، ولكنها أقسى بقليل على أولئك العابرين المقدر عليهم أن لا يقيموا إلا فترة الحجر الصحي، وفي باقي المعسكرات، من المحتمل أن يكون الأمر نفس ما هو عليه هنا. وقد شاء سوء القدر أنه إبان الترحيل الجماعي للأجانب إلى ألمانيا، كان هناك القليل من المعسكرات الجاهزة، إذا وضعنا جانباً معسكرات بوشنڤالد وداشو وأوشڤيتز، فسائر المرحلين تقريباً لم يعرفوا سوى معسكرات في طور البناء، معسكرات عقوبة ومعسكرات عمل وليس معسكرات اعتقال. كما شاء سوء القدر أيضاً، أنه حتى في المعسكرات الجاهزة، كانت كل المسؤوليات ملقاة على عاتق الألمان في بادئ الأمر. من أجل سهولة التقارير بين جماعة الموقوفين وبين الإدارة، كانت ملقاة على عاتق الناجين من معسكرات العقوبة ومعسكرات العمل بعدها والذين لا يعرفون معسكرات الاعتقال، كما كانوا يقولون، ناهيك عن الأهوال التي قاسوها بأنفسهم، فكانوا عقبات أشد وطأة من الشرطة العسكرية في وجه إضفاء أي طابع إنساني. وكانت الحكمة القائلة: «لا تفعل مع الآخرين ما لا تريد أن يُفعل معك.» مفهوماً من عالم آخر غير رائج في هذا العالم. ولكن «افعل للآخرين ما تم فعله معك» هو العملة الرائجة لدى كل هؤلاء الشرطة

المخصصة لمراقبة الذين أمضوا السنين الطوال في معسكرات العقوبة ومعسكرات العمل ويفكرون بأن الأهوال التي عاشوها خلقت تقليداً لديهم بالاعتقاد أن عليهم الاستمرار فيها إلى الأبد، وذلك ضمن تشويه يمكن فهمه جيداً.

وإذا نسي أفراد الشرطة العسكرية سوء المعاملة، بمحض المصادفة، فإن هؤلاء الموقوفين يتعهدون بأنفسهم إصلاح هذا الخطأ.

* * *

إن جماهير المعسكر ووضعها الاجتماعي ومنشأها عوامل تساعد على التحريض ضد سيطرة الطابع الإنساني عليها، وكنت قد ذكرت من قبلُ أن الحزب النازي لا يفرق بين الجنح السياسية وجُنح الحق العام وأنه بالتالي لم يكن يوجد في ألمانيا حق أو نظام سياسي مميّزان. وكما هو عليه الأمر في معظم الأمم المتمدنة، هناك إذن في المعسكرات الناس من كل صنف ولون - من كل صنف ولون وأمر آخر أيضاً. كل الموقوفين، مهما كان صنف الجنحة الملقاة على عاتقهم، يعيشون معاً ويخضعون إلى النظام نفسه، وليس هناك ما يميز هؤلاء عن أولئك إلا المثلث الملون الذي هو شارة جنحتهم.

السياسيون يضعون المثلث الأحمر. ومجرمو الحق العام يضعون المثلث الأخضر: مجرداً لذوي الجرائم البسيطة، أو مزخرفاً بحرف S لذوي الجرائم الكبرى وبحرف K لمجرمي الحرب. وهكذا تكون جرائم الحق العام مدرّجة من السارق البسيط إلى القاتل حتى مختلس الإمدادات أو مخازن التسليح.

وبين الأمرين، هناك سلسلة من الجنح المتوسطة:

- المثلث الأسود (مخربون، وممتهنو البطالة)؛ المثلث الوردي (الشاذون جنسياً)؛ المثلث الأصفر المثبت بالمقلوب على الأحمر، على نحو يشكل نجمة (يهود)؛ المثلث البنفسجي (المعترضون على الخدمة العسكرية لأسباب سياسية أو دينية).

– الناس الذين أنهوا مدة السجن المحددة، عليهم بعد ذلك إتمام ما ندعوه التكرار، أو النفي إلى أمد أو مدى الحياة، وهم يضعون بدلاً من مكان المثلث، دائرة سوداء على خلفية بيضاء مع حرف Z كبير في الوسط: ويرمز ذلك إلى من أطلق سراحه من السجن.

– وأخيراً هناك من يضعون المثلث الأحمر ورأسه إلى الأعلى: وهم ذوو الجنح البسيطة المرتكبة في الجيش والتي تمّ بسببها النطق بالإدانة من قبل مجلس حربي.

ويمكن أن نضيف أيضاً بعض الخصوصيات في وسم شارات الموقوفين: المثلث الأحمر الذي يعلوه خط معترض لأولئك الذين أرسلوا إلى معسكر الاعتقال للمرة الثانية أو الثالثة، والنقاط السوداء الثلاث الموضوعة على شارة ذات خلفية صفراء وبيضاء من أجل العميان، إلخ... وأخيراً هناك من كان يطلق عليهم من قبل (ويفو): يضعون الدائرة نفسها التي توضع لمن أنهوا مدة السجن المحددة، ولكن يوضع في داخلها حرف (W) بدلاً من (Z). وهؤلاء كانوا عمالاً متطوعين في الأصل، وكانوا موظفين لدى مؤسسة (ويفو) التي كانت أول مؤسسة بذلت جهدها لتحقيق صواريخ (ف١) و(ف٢)، إلخ... الشهيرة... وذات يوم، ودون سبب ظاهر، تلقوا ثياباً مخططة وأودعوا معسكر الاعتقال. لم يكن يجوز لسرّ صواريخ (ف١) و(ف٢) التي أمضت فترة التجربة، ودخلت مرحلة الإنتاج الكثيف، أن يتنقل بحرية، حتى ضمن الجمهور الألماني: فهم محجوز عليهم لأسباب تتعلق بأمن الدولة. وكان (الويفو) يشكلون أشد سكان المعسكر بؤساً: استمروا في قبض أجورهم، التي كان يُدفع لهم نصفها في المعسكر نفسه، وكان يرسل الباقي إلى أسرهم؛ كان لهم الحق بالاحتفاظ بشعرهم طويلاً، وأن يكتبوا متى شاؤوا، شريطة ألا يكشفوا عن المصير الذي لاقوه، وبما أنهم كانوا الأكثر ثراء، فقد أدخلوا السوق السوداء في المعسكرات وجعلوا أسعارهاترتفع.

أما من ناحية الجمهور، فكانت معسكرات الاعتقال، إذاً، أبراج بابل حقيقية،

تتنافر فيها السمات الشخصية، بسبب اختلاف جنسياتها، واختلاف أصولها، وأسباب إداناتها وأوضاعها الاجتماعية السابقة. فالمحكومون بالحق العام يكرهون السياسيين الذين لا يفهمونهم، وهؤلاء، يردون عليهم بالمثل. والمثقفون ينظرون إلى العمال اليدويين باستعلاء، وهؤلاء يتمتعون برؤيتهم «يعملون أخيراً». والروس يحيطون كل الغرب بازدرائهم الشديد. والبولونيون والتشيك لا يطيقون رؤية الفرنسيين بسبب معاهدة ميونيخ، إلخ... وعلى صعيد القوميات كان هناك تجانس بين السلاف والجرمان، أو بين الجرمان والطليان، أو بين الهولنديين والبلجيك، أو بين الهولنديين والألمان. أما الفرنسيون الذين جاؤوا في المؤخرة والذين بدؤوا أروع طرود المؤونة، فقد كانوا محتقرين من الجميع، إلا من البلجيك، اللطفاء، الصريحين، الطيبين. كانت فرنسا تعد وكأنها بلاد من أرض النعيم وسكانها مثل سكان (سيباريس) في التاريخ القديم، منحلون أخلاقياً، غير قادرين على العمل، يأكلون جيداً، ومنشغلون فقط بممارسة الحبّ. وأضاف الإسبان إلى هذه المآخذ معسكرات اعتقال (دالادييه). وأذكر أني استُقبلت في البناء ٢٤، في دورا، بكلام رجل قاس:

– آه! أيها الفرنسيون، تعلمون الآن ما هو المعسكر، لا ضير في ذلك، فهذا سيعلمكم!

كانوا ثلاثة إسبانيين (وكان في دورا ٢٦ إسبانياً) ممن احتجزوا في (غور) عام ١٩٣٨ وانضموا إلى مجموعات العمل عام ١٩٣٩، وأرسلوا إلى بوشنفالد بعد احتلال (ريتل) بيوم واحد. وقد أكدوا أن لا فرق بين المعسكرات الفرنسية والمعسكرات الألمانية إلا بالعمل، أما المعاملات الأخرى والطعام فكانت متماثلة، وأضافوا أن المعسكرات الفرنسية أشد قذارة.

أواه يا بيرتشاه!

* * *

كانت الشرطة العسكرية تعيش في معسكر مواز، وبصورة عامة كانوا سريّة. في بادئ الأمر، كانت هذه السرية، سرية تعليم للمجندين الأغرار، ولم يكن فيها إلا الألمان. وبعد ذلك، كان هناك من كل الأجناس في الشرطة العسكرية: إيطاليون، بولونيون، تشيكيون، بلغار، رومان، يونان، إلخ.... كانت ضرورات الحرب اقتضت إرسال المجندين الأغرار إلى الجبهة، فحلّ المسنون محل الأغرار، مسنون حضروا حرب ١٩١٤-١٩١٨، لم يكد الحزب يبسط نفوذه عليهم. كان هؤلاء أكثر لطفاً. وفي السنتين الأخيرتين، وقد أصبحت الشرطة العسكرية غير كافية، تم تعيين حثالة القوات البرية والجوية، الذين لا يمكن استخدامهم في أي شيء آخر، فاستخدموا في حراسة المعسكرات.

كل دوائر المعسكر لها امتدادها في معسكر الشرطة العسكرية، حيث يجمّع كل شيء وترسل التقارير اليومية والأسبوعية، مباشرة إلى برلين، حيث تتلقاها دوائر مخابرات (هملر). إذاً، معسكر الشرطة العسكرية هو المشرف على إدارة المعسكر الآخر. في بداية المعسكرات وفي فترة التحضير، كان يتولى الإدارة مباشرة؛ وبعد ذلك، ومنذ أن يتمكن من ذلك، لم يكن يتولى الإدارة إلا بواسطة الشخص الوسيط من السجناء أنفسهم. كان من الممكن الاعتقاد أن ذلك كان ضرباً من الساديّة وبعد فوات الأوان لم يسعهم إلا أن يقولوا: كان ذلك للاقتصاد في العاملين، والأمر هو نفسه والسبب نفسه في كل السجون وفي كل معتقلات الأشغال الشاقة لدى الأمم جميعها. ولم تتول الشرطة العسكرية الإدارة وتسيطر على النظام الداخلي مباشرة إلا متى كان مستحيلاً عليها أن تقوم بغير ذلك. ونحن لم نعرف سوى الحكم الذاتي للمعسكرات؛ وجميع قدامى السجناء الذين خضعوا للطريقتين أجمعوا على الإقرار بأن الطريقة القديمة كانت من حيث المبدأ الأنسب والأكثر إنسانية؛ وإذا لم تكن كذلك بالفعل، فذلك عائد إلى أن الظروف، وضرورة السرعة في العمل، وتلاحق الأحداث لم تسمح بذلك. وأنا أعتقد : أن الاتصال بالرب مباشرة خير من الاتصال بقدّيسيه.

إذاً، فالشرطة العسكرية لا تؤمّن سوى الحراسة الخارجية ولا أحد يراهم تقريباً داخل المعسكر حيث يكتفون بالمرور فارضين التحية على السجناء، برفع القبعة المعروف. وتتولى مساعدتهم سريّة حقيقية من الكلاب المدربة تدريباً رائعاً، على استعداد دائم للعضّ، وصالحة للبحث عن سجين فار، ولو على بعد عشرات الكيلومترات. وكل صباح حينما تتوجه فصائل العمل إلى الخارج، وغالباً ما يكون ذلك مسافة خمسة أو ستة كيلومترات سيراً على الأقدام –وحين تكون المسافة أبعد من ذلك كانت تستخدم الشاحنات أو القطار– كان يرافقها اثنان أو أربعة من الشرطة العسكرية، أيديهم على الزناد، ويمسك كل منهم بزمام كلب مكمم. هذه الحراسة الخاصة التي تكمل شرطة مراقبة العمل المحيطة بالسجناء، تكتفي بالمراقبة ولا تتدخل بالعمل إلا في الحالات النادرة التي يقتضيها مد يد المعونة.

وفي المساء، لدى تفقد الأبنية، وحين يكون الجميع قد عادوا، تطلق صفارة، فيتوجه رؤساء الأبنية كل إلى البناء الذي يتولى مسؤوليته، ويعدون الحاضرين، ثم يعودون لتقديم كشف حسابهم. خلال هذه العملية يتجول عدد من صف الضباط في الأبنية ويفرضون الصمت والهدوء، ويتولى كل من شرطة مراقبة العمل، ورؤساء الأبنية، والشرطة المعينة من بين السجناء، باهتمام زائد، تسهيل المهمة في هذا الاتجاه. ومن حين إلى آخر يتفرّد أحد أفراد الشرطة العسكرية بقسوته، ولكن هذا نادراً ما كان يحدث، وعلى كل حال، لا يمكن أن يكون أشد شراسة من المعينين من بين السجناء.

* * *

إن مسألة إدارة المعسكر من قبل السجناء أنفسهم تهيمن على حياة معسكرات الاعتقال، والحل الذي انتهت إليه يتكيّف وفقاً لتطورها باتجاه الأسوأ أو باتجاه التهذيب.

في بداية كل معسكر، لم تكن هناك إدارة ذاتية: كانت تأتي القافلة الأولى على الطبيعة محاطة بشرطتها العسكرية، التي تتولى بنفسها كل المسؤوليات، مباشرة وبالتفصيل، ويبقى الأمر على ما هو عليه حتى القافلة الثانية أو الثالثة أو الرابعة. ويمكن أن يستمر الأمر على هذا النحو ستة أسابيع أو شهرين أو ستة أشهر أو سنة. ولكن حين يبلغ المعسكر اتساعاً ما، ويغدو عدد أفراد الشرطة العسكرية غير قابل للزيادة إلى ما لا نهاية، يصبح هؤلاء مرغمين على اختيار العاملين المتممين من بين المساجين من أجل ضرورة المراقبة والتنظيم.

ومن أجل فهم هذه الظاهرة جيداً والوجه الخاص الذي اتخذته، يجب أن يكون المرء قد عاش حياة المعسكرات واستوعب تاريخها.

حين نشأت هذه المعسكرات، عام ١٩٣٣، كانت العقلية السائدة في ألمانيا أن خصوم الحزب النازي يعدّون وكأنهم من أسوأ قطاع الطرق. ومن هنا كانت السهولة التي نجح فيها السادة الجدد في إقناع الناس أن ليس هناك جرائم أو جنح حق عام وجرائم أو جنح حق سياسي، بل جرائم وجنح فحسب دون زيادة ولا نقصان. كلتاهما تشبه الأخرى إلى حد بعيد، وحتى في بعض الحالات، كان يبذل القليل من الجهد لتبدو الجريمة السياسية أبشع من جريمة الحق العام في نظر شبيبة متحمسة، مجنّدة في الشرطة العسكرية، أوكل إليها تحقيق المشروع! ضعوا أنفسكم في موضع خمسين من أفراد الشرطة العسكرية المكلفين في معسكر بوشنڤالد، في اليوم الذي يزخر فيه بألف سجين والكتلة الهائلة المزدحمة بالمعدّات، عليهم أن يشكلوا الإطار الأول من ضحاياهم وباختيار أول رئيس للمعسكر. وبين واحد مثل تالمان أو برايتشايد من ذوي الشأن وبين أول مجرم قادم قام بقتل حماته أو اغتصب أخته، ولكنه لين العريكة، سهل الانقياد، وفق المراد، لا يترددون فيختارون الثاني، وهو بدوره يختار شرطة مراقبة العمل ورؤساء الأبنية، وهو يأخذهم بالضرورة من وسطه الخاص به، أي من مجرمي الحق العام.

وما أن حدث بعض التطور في المعسكرات حتى أصبحت مراكز متعددة الأجناس صناعية واقتضت رجالاً ذوي صفات خلقية وذهنية ليمدوا يد العون الفعّالة إلى إدارة الشرطة العسكرية. ورأت هذه أن مجرمي الحق العام هم حثالة البشر في المعسكر، كما في الخارج وأنهم دون مستوى الجهد المطلوب منهم بكثير. فلجأت الشرطة العسكرية إلى السياسيين. وذات يوم كان فيه لزاماً تبديل رئيس المعسكر الأخضر بأحمر، فبدأ مباشرة بتصفية الخضر في كل الوظائف لمصلحة الحمر. وهكذا نشأ الصراع الذي اتخذ طابعاً مستمراً بين الخضر والحمر. وهذا ما يفسّر أيضاً وجود المعسكرات القديمة مثل بوشنفالد وداشو بين أيدي السياسيين حينما عرفناها. أما المعسكرات الفتية التي ما زالت في طور معسكر العقوبة أو معسكر العمل، إلا في حالات المصادفة الخارقة، فكانت دائماً في أيدي الخضر.

حاول بعضهم القول إن هذا الصراع بين الخضر والحمر، الذي لم يتجاوز بالتالي الدفعة الألمانية من جمهور المعسكر إلا مؤخراً، كان نتاج تنسيق جهود السياسيين ضد جماعة الحق العام. وهذا الكلام غير صحيح. فالسياسيون،الحَذِرُ بعضهم من بعض والحائرون، لم يكن فيما بينهم إلا الغامض والدقيق من صلات التضامن. أما الخضر، بالمقابل، فكان أمرهم مختلفاً؛ كانوا يشكلون كتلة متراصة، راسخة بقوة بالثقة الغريزية الموجودة باستمرار لدى الناس من هذا الوسط، من أعمدة السجون ومستحقي المشانق. إن انتصار الحمر لم يكن إلا بمحض المصادفة وعدم أهلية الخضر وفطنة الشرطة العسكرية.

وقيل أيضاً إن السياسيين – ولا سيما الألمان منهم– شكلوا لجاناً ثورية، تعقد المجالس في المعسكرات، ويكدسون السلاح، حتى أنهم يتراسلون سراً مع الخارج، أو من معسكر إلى آخر. إن هذا لأسطورة. قد تكون المصادفة السعيدة التي أتاحت، عرضاً، لأحد الأفراد أن يتراسل مع الخارج أو مع شريك له في البؤس في معسكر آخر في غفلة من الشرطة العسكرية: قد يكون أحد الذين أطلق سراحهم راح ينقل

بكثير من الحذر أخبار أحد المساجين إلى أسرته أو إلى صديق سياسي، أو إن قادماً جديداً يقوم بالعملية نفسها معكوسة، أو وسيلة نقل تحمل أنباء من معسكر إلى آخر. ولكن كان من النادر للغاية، خلال الحرب على الأقل، أن يطلق سراح أحد السجناء؛ أما وسائل النقل فلا أحد في المعسكر، وحتى معظم أفراد الشرطة العسكرية، لم يكونوا يعرفون غايتهم قبل أن يصلوا إليها. كان غالباً ما يتم أخذ العلم بأن انتقالاً قد جرى منذ بضعة أسابيع أو بضعة شهور وعاد إلى دورا أو إلريش، وذلك بواسطة بعض المرضى الذين عادوا من هناك بشكل استثنائي، وبواسطة الموتى الذين كانوا يأتون بهم غالباً إلى المعسكر ليتم حرقهم، وعلى صدورهم يمكن قراءة الرقم واسم المكان الذي أتوا منه. ولكن أن يقال أن هذه الصلات كانت مهيأة من قبل ومنظمة ومتابعة فذلك ضرب من الخيال الجامح. ولنعد إلى تكديس الأسلحة:

في الأيام الأخيرة من بوشنفالد، وبفضل البلبلة استطاع عدد من السجناء خطف قطع متباينة من الأسلحة وحتى بعض الأسلحة الكاملة، من الإنتاج العادي؛ ولكن أن يقال أن الأمر كان ممارسة منظمة، فالفرق شاسع مثل العالم الذي يفرق بين الحسن الجيد والسخيف. ولنعد أيضاً إلى اللجان الثورية والمجالس التي كانوا يعقدونها: لقد أغرقت في الضحك، بعد التحرير، لدى سماعي الحديث عن لجنة مصالح الفرنسيين في معسكر بوشنفالد، إنهم ثلاثة أو أربعة من الشيوعيين (الجعجاعين): مارسيل پول(١)، والعقيد الشهير مانيس على رأسهم، الذين كانوا قد نجحوا في الفرار من وسائط نقل الإجلاء عن المعسكر، أنشأوا هذه اللجنة من لا شيء بعد رحيل الشرطة العسكرية وقبل وصول الأميركيين؛ ونجحوا في جعل الآخرين يعتقدون أن الأمر يتعلق بلجنة مشكلة من أمد بعيد(٢). ولكنها كانت دعابة

١- مسؤول غرفة في البناء ٥٦ ثم في البناء ٢٤

٢- في الواقع لم تكن هناك لجنة مشكلة منذ أمد طويل إلا واحدة في كل المعسكرات، هي رابطة السرقة والنهب من الخضر والحمر الذين قبضوا على زمام الأمور من الشرطة العسكرية.

محضة ولم يأخذ بها الأميركيون على محمل الجد. كان أول ما قاموا به لدى دخولهم المعسكر، رجاء مثيري الشغب في أن يلتزموا الهدوء والجماعة التي كانت على استعداد للإصغاء إليهم، بالدخول بهدوء إلى الأبنية، وأن يخضع الجميع مقدماً إلى نظام ينتظرون من خلاله أن يكونوا السادة الوحيدين. وبعد ذلك اهتموا بالمرضى والتموين وتنظيم إعادة المعتقلين إلى ديارهم، دون أية رغبة منهم في معرفة الآراء والمقترحات التي حاول عبثاً بعض الذين نصبوا أنفسهم في الساعة الأخيرة أن يرفعوها إليهم، وقد نجم عن ذلك أن تلقى مارسيل پول درساً في التواضع، وتم إنقاذ عدد من الأرواح البشرية.

وأخيراً، قيل أن السياسيين حين تكون لهم اليد العليا في الإدارة الذاتية للمعسكر يكونون أشدّ رحمة من الآخرين، وتعزيزاً لهذا الرأي، كان يستشهد على ذلك بمعسكر بوشنڤالد: وهذا صحيح. كان بوشنڤالد حين وصولنا معسكراً محتملاً احتمالاً جيداً من قبل المقيمين نهائياً في المكان والذين لا يتعرضون لخطر النقل. ولكن ذلك عائد أكثر إلى أن ذلك المعسكر قد وصل إلى غاية تطوره من كونه يدار إدارة ذاتية من قبل المعتقلين السياسيين. وفي المعسكرات الأخرى، التي أنشئت بعده، لم يكن الخلاف بين الحمر والخضر شديد الحساسية. ومن الممكن أن يكون الاختلاط مع السياسيين قد هذّب جماعة الحق العام: وهنا كان العكس هو ما حصل، إذ أن جماعة الحق العام هم الذين أفسدوا السياسيين.

الفصل الثالث

مركب شيطان الموت

تم تسليمنا إلى دورا وفق القواعد المتبعة لدى هذا الوسط: هبوط من المقطورات، ركض مطلق العنان عبر ركام المعدّات في الوحل المتراكم حتى الكاحلين، تحت الثلج الذائب، والشتائم، والتهديدات المزمجرة، والنباح، والضرب.

عبور معسكر الشرطة العسكرية: حوالي خمسين بناء جاهز، دون طرق للذهاب بين أحدها والآخر، شعاب موحلة عبر الحقول.

مدخل إدارة المعسكر: بناءان خشبيان (كل الأبنية خشبية)، كانوا يعدوننا من خلال جانبي حاجز شائك انفتح أمامنا.

– خمسة! خمسة! أيها الحمقى الكلاب! وتلا ذلك لكمات، وضرب بالسياط المطاطية، ورفسات.

ومن الجهة الأخرى للحاجز الشائك، كان المعسكر نفسه، عشرة أبنية، أو اثني عشر على الأكثر، مبعثرة قائمة هناك، كيفما اتفق، دون أن يبدو عليها أي قصد في التنسيق، ولدى مرورنا، استطعنا أن نقرأ عن بعد الأرقام على الأبنية: ٤، ٣٥، ٢٤، ١٠٤، ١٧.

– أين هي الأبنية التي تتخلل هذه الأرقام؟

كان هناك درب موسوم بوفرة من وطء الأقدام يبدأ من المدخل ويصعد الهضبة دون أن نتمكن من القول إنه يقود إلى مكان ما، وأمرونا بالسير فيه ووصلنا إلى المراحيض العامة حيث تم زربنا بانتظار الأوامر. والمراحيض العامة بناء، لا يوجد بداخله إلا المقاعد والمباول وأحواض المغاسل. الجلوس والتمدد مستحيلان، والخروج ممنوع؛ أرهقنا التعب ونهشنا الجوع أيضاً. زهاء الساعة

الثامنة عشرة: حساء، ٣٠٠ غرام خبز، إصبع مارغرين، شرحة سجق مستديرة. لاحظنا أن الجراية أكرم مما هي عليه في بوشنفالد، وهبت ريح التفاؤل بين ظهرانينا. وسرت الهمسات بين الأفواه والآذان:

– سنعمل حقاً، ولكن سنأكل على الأقل.

وظهر الرجال ذوو الشارات في الساعة العشرين:

وضعت طاولة، واستقر عليها كاتب. ومررنا فرداً فرداً أمام الطاولة حيث ذكرنا أرقامنا وأسماءنا ومهننا، كان الرجال ذوو الشارات تشيكيين وبولونيين أوقفوا بسبب جنح مختلفة: كانوا يضربون بقسوة، زادها السوط المطاطي الذي يستخدمونه بسخاء.

– هنا دورا، أيها الحمقى الكلاب! ومن ثم يأتي الضرب! انتهت العمليات في منتصف الليل، وخرج الجميع من البناء: واتبعنا الطريق في الاتجاه المعاكس، وفي الليل، هذه المرة، محاطين باستمرار بشرطة مراقبة العمل والشرطة العسكرية. فجأة، وجدنا أنفسنا أمام حفرة هائلة مفتوحة على منحدر الهضبة: إنه النفق، وانفتح المصراعان الحديديان الضخمان: هكذا إذن، سنُدفن، إذ لم يخطر على بال أي شخص أنه يمكن للمصراعين الحديديين أن يفتحا أمامنا قبل التحرير. إن الأهوال التي سمعنا عنها في بوشنفالد عن هذا السرداب كانت تضني أرواحنا.

دخلنا بسهولة. كانت الرؤية مرعبة، في الخارج كان يسود الظلام –في الداخل كان الضوء مبهراً. خطان حديديان متوازيان يفرق بينهما متر واحد. إذن فالقطارات تروح وتغدو في قلب هذا الوحش. سلسلة من العربات المحملة المغطاة: سيارات (التوربيدو) المكشوفة، (ف١) و (ف٢) الشهيرة، قذائف هائلة أطول من العربات التي تحملها؛ قيل إن طولها ١٣ متراً، ويظهر أن قطرها يتجاوز قامة الرجل.

– لعلها تفعل العجائب حيث تسقط!

وبدأت تدور المناقشات حول آلية وطريقة إطلاق صواريخ (ف١) و(ف٢) التي سمعنا الحديث عنها والتي كنا نراها للمرة الأولى. وكم كانت دهشتي حين أدركت أن بيننا أناساً أغنياء بالمعلومات حول القذائف، يتحدثون، برصانة شديدة، عن تفصيلات في غاية الدقة، ولكنهم تكشفوا بعد ذلك عن أنهم أشد مروّجي الإشاعات الخيالية. وبدأنا نغوص في الداخل. كان يوجد في كل جانب، مكاتب وتجويفات محوّلة إلى مشاغل، ووصلنا إلى الجزء من النفق الذي ما زال في طور الإنشاء: عملية نصب السقالات، رجال شاحبون مهزولون شفافون كأنهم الأشباح، جاثمون في كل مكان ملتصقون بقواطع الجدران كأنهم الخفافيش، يحفرون الصخر، وعلى الأرض كان رجال الشرطة العسكرية يتجولون والسلاح في أيديهم. كان أفراد شرطة مراقبة العمل يزمجرون في الممرات وفي كل الاتجاهات وهم ينهرون التعساء الذين يحملون الأكياس أو يجرون الناقلات الملأى بالركام، صوت الآلات -جثث ممددة على حواف الطرق.

تجويف أُعدّ ليكون بناء للسكن: قف! في المدخل جردلان للبراز وخمس عشرة جثة. في الداخل رجال يركضون كالمجانين، مشاجرات فردية أو جماعية بين صفوف هياكل الأسرّة ذات الثلاثة أو الأربعة أو الخمسة طوابق، وبينهم رجال الغرف يقفون برزانة واستعلاء محاولين عبثاً إقامة النظام. هنا كان علينا أن نقضي ليلتنا. قطع رجال الغرف مهمتهم البوليسية ليهتموا بنا.

- هيا! هيا! يا رجال! هنا دورا!

ودخلت السياط المطاطية حلبة الرقص، أو بالأحرى غيّرت هدفها فقط. وكان رئيس البناء، وهو ألماني ضخم، يتأمل المشهد بنظرة فيها تسلية وسخرية وتهديد. وارتمينا بلباسنا على فرش القش التي أشاروا إليها من أجلنا.

وأخيراً! استيقظنا في الفجر: كانت كل أحذيتنا وما بقي لدينا مما وزع علينا من أرزاق الأمس قد اختفى، حتى جيوبنا خلت من محتوياتها كافة: وعجبنا

من خفة يد الروس الذين نجحوا في هذا النهب العام دون أن يوقظونا. وما كاد يتم الإمساك باثنين أو ثلاثة متلبسين بالجرم المشهود، حتى قادهم الضحايا إلى رئيس البناء وأعيدوا إلى فرش القش الخاصة بهم تحت ضرب سياط رجال الغرف المتآمرين معهم.

- هنا دورا، يا حبيبي!

لقد وقعنا، بالتأكيد، في مغارة لقطاع الطرق تحكمها شريعة الغاب.

بعد الاستيقاظ، صعدنا مرة أخرى! إلى حيث النهار. وتنفسنا الصعداء؛ إذاً فنحن لم ندفن نهائياً بعد، وقضينا صبيحة ذلك اليوم واقفين أمام مكتب إحصاء العمل نتمشى في الوحل والثلج. تجمدنا وعدنا إلى الشعور بالجوع. بعد الظهر قسمونا إلى فصائل: ورسينا، فرنان وأنا في الفصيلة ٥٢ المكلفة بتعبيد الطرقات. وجعلونا نشرع في العمل مباشرة: وحتى جاء موعد التفقد، كنا ننقل بسرعة شجرات الصنوبر من المعسكر إلى المحطة.

في الساعة الثامنة عشرة: تفقد، ظل حتى الساعة الحادية والعشرين.

الساعة الحادية والعشرون: اتجاه إلى البناء ٣٥. هذه المرة تأكدنا أننا لن ندفن في النفق، ولكننا علمنا أن عدداً لا بأس به من بيننا ذكروا أن لهم مهناً خيالية في اختصاصاتها ليستخدموا في المصانع، أرسلوا إليها، ولا يحتمل أن يخرجوا منها قبل التحرير.

رئيس البناء ٣٥ تشيكي، وبالتالي رجال الغرف كذلك. كان البناء ما يزال فارغاً: ونمنا متكوّمين، على الأرض، دون غطاء وبلباسنا الكامل. في بادئ الأمر، وزّعوا علينا، في هرج ومرج لا يوصفان ليتراً من حساء ملفوف (الروتا باغا) شربناه واقفين: وكان ذلك هو كل ما تناولناه من طعام في ذلك اليوم.

* * *

اليوم الأول في العمل...

الساعة الرابعة والنصف، دقّت صنجة أربع دقات في هذا المعسكر الذي ما زال جنيناً، وأضيئت أنوار البناء، واقتحم رجال الغرف المهجع وسياطهم المطاطية في أيديهم.

– انهضوا! انهضوا هيا! إلى المغسلة. ثم دون مرحلة انتقال:

– هيا، يا رجال، إلى المغسلة!

وهبّ الرجال المئتان هبّة رجل واحد، واجتازوا متزاحمين قاعة الطعام، عراة حتى خصورهم ووصلوا إلى الحاجز الذي على باب المغسلة، في الوقت نفسه الذي وصل فيه الرجال المئتان من الجناح الآخر. كانت المغسلة يمكن أن تستوعب عشرين شخصاً. وفي المدخل كان اثنان من رجال الغرف، فوارة الماء بين أيديهم، يعرقلان هذا الغزو:

– مهلاً، مهلاً... مهلاً، أيتها الخرق البالية!

وفي الوقت نفسه، أطلقت فوارة الماء، فتراجع التعساء...

في هذه الأثناء كان اثنان من رجال الغرف توقعا الأمر فعرقلا التراجع.

– هيا! هيا! بسرعة يا رجال، اغتسلوا!

وانهالت، بلا رحمة، السياط المطاطية على الأكتاف العارية الهزيلة.

كل صباح كانت تتكرر الملهاة –المأساة نفسها، ولم تتوقف عند هذا الحد غالباً. بعد الاغتسال، يأتي توزيع الأرزاق المخصصة من أجل النهار بأكمله: كنا نقف بالرتل وقد أمسكنا بأيدينا العلامة المعطاة لنا في المغسلة (إذ لا يمكن تناول الجراية الغذائية إلا بعد إثبات الاغتسال) والتي يجب إعطاؤها إلى أحد رجال الغرف. هرج ومرج جديدان لا تمكن روايتهما أيضاً. وتمضي بسرعة الساعة المخصصة لإجراء إنهاء هذا الواجب المزدوج.

في الساعة الخامسة والنصف: كانت شرطة مراقبة العمل تنتظر الكتلة

البشرية في ساحة التفقد وهي مندثرة تنعم بالدفء. وها هي الكتلة البشرية تتسارع باتجاههم، قادمة من كل الأبنية، مهرولة في الصباح الجليدي وهي تنهي ارتداءَها لألبستها وتبتلع اللقمة الأخيرة من النصيب الهزيل المخصص ضمن الجراية اليومية من أجل الإفطار. ويقوم أفراد شرطة مراقبة العمل بتجميع الفصائل، وتفقد رجالهم. وتنهال الضربات والشتائم؛ ولدى انتهاء التفقد، تتحرك الفصائل بدورة محسوبة، مع اعتبار المسافة إلى المكان الذي سيعملون فيه: هناك من يذهب إلى مسافة تبعد ستة أو ثمانية كيلومترات: وهم أول من يرحل، يأتي بعدهم أولئك الذين لن يستغرقوا سوى ساعة سيراً على الأقدام، ثم الذين عليهم نصف ساعة. وعمل الفصيلة ٥٢ هو على بعد ٢٠ دقيقة سيراً على الأقدام: كانت ترحل في الساعة السادسة وأربعين دقيقة. في تمام الساعة السابعة يكون الجميع على رأس عملهم. أما فصائل النفق فهم منظمون وفق توقيت آخر؛ الاستيقاظ في السابعة صباحاً بالنسبة للوردية النهارية، والسابعة مساء بالنسبة للوردية الليلية، وكل تمهيدات العمل تتم في النفق نفسه.

الساعة السابعة: ها هي الفصيلة ٥٢ إذاً في ورشتها الخاصة بالحفر والردم، وصلت إليها بعد أن شاركت في عمليات الاغتسال وتوزيع الأرزاق، وانتظرت طويلاً وهي ترتعش، أقدامها تغوص في عشرين سنتيمتراً من الوحل، في وضعية الاستعداد، مدة ساعة وعشر دقائق، واجتازت بخطوات متزنة زهاء الكيلومترين اللذين يفصلانها عن المعسكر، وقد خارت قواها حتى قبل أن تبدأ العمل.

العمل: بناء طريق يذهب من المحطة إلى المعسكر، ماراً بمنحدر الهضبة. لقد تم وضع خط حديدي على شكل قطع ناقص يبلغ أكبر قطر له ٨٠٠ متر وبانحدار (وهذا الخط هو على طريقة مؤسسة ديكوفيل الفرنسية المختصة بإنشاء الخطوط الحديدية الصغيرة الخاصة بورش العمل)، وهنا مجموعتان من المقطورات القلاّبة،

كل مجموعة ثماني عربات، تقطرها قاطرة تعمل على النفط، وهاتان المجموعتان تقومان بدورة مستمرة على الخطوط. وبينما يقوم ٣٢ رجلاً (أربعة في كل عربة) بتحميل المجموعة الموجودة في القمة، يقوم ٣٢ رجلاً آخرون بتفريغ المجموعة الموجودة في السفح، باذلين جهدهم في وضع الركام على المستوى المطلوب. وحينما تصل المجموعة الفارغة إلى القمة، يجب أن تعود الأخرى ملأى: على أن يتم ذلك كل عشرين دقيقة؛ وبصورة عامة فإن المغادرة الأولى تتم في الوقت المحدد. أما الثانية فهناك تأخير يثير انزعاج رئيس العمال، وشرطة مراقبة العمل، ورؤساء الزمر لدى الفصيلة. وفي الثالثة تكون المجموعة الفارغة قد وصلت منذ خمس دقائق وتحتاج خمس دقائق أخرى لتعود: رئيس العمل يبتسم ابتسامة ساخرة ويهز كتفيه؛ وشرطة مراقبة العمل تزمجر ورؤساء الزمر ينقضّون علينا، ولا أحد يسلم من أذى ضرباتهم المستمرة، ويزداد التأخير زمناً يحتاج إلى ثلاثة رجال من أجل الانهيال بالضرب على اثنين وثلاثين، ومنذ تلك اللحظة لا يستدرك التقصير، وتبقى الآلية غير منتظمةفي ما بقي من النهار.

في الرحلة الرابعة، تأخير جديد، ضربات جديدة. في الخامسة، يدرك أفراد شرطة مراقبة العمل ورؤساء الزمر أن الأمر أسقط من أيديهم وقد تعبوا من الضرب. وفي المساء، وبدلاً من ست وثلاثين رحلة منتظرة بواقع ثلاث رحلات في الساعة، يصل العدد بصعوبة إلى خمس عشرة أو عشرين.

الثانية عشرة ظهراً: نصف ليتر من القهوة الساخنة موزعة في مكان العمل نفسه، نشربها واقفين ونحن نأكل باقي الخبز، والمارغرين والسجق الموزعة في الصباح.

الثانية عشرة والثلث: العودة إلى العمل.

بعد الظهر، يتباطأ العمل، فالرجال جائعون، متجمدون لا تكاد قوتهم تكفيهم للبقاء واقفين. شرطة مراقبة العمل تختفي، رؤساء الزمر يسترخون، رئيس العمال

نفسه يبدو عليه أنه أدرك أنه لا يمكن الاستفادة بشيء من الخرق البشرية البالية التي كنا عليها، فيترك الأمور تأخذ مجراها. كان يتم التظاهر بالعمل: وهذا كان مرهقاً أيضاً. يجب فرك الأيدي والضرب بالنعال من أجل الصراع ضد البرد. من حين إلى آخر كان يمر أحد أفراد الشرطة العسكرية، فيراه رؤساء الزمر الواقفون بالمرصاد عن بعد فيشيرون إليه، وحين يصل إلى مستوى الفصيلة، يكون الجميع على رأس عملهم فعلاً، ويلقي بكلمة على رئيس العمال.

- كيف الحال؟

وترد عليه هزة أكتاف فاترة الهمة:

- ببطء، ببطء، ببطء شديد، انظر معي إلى هذه الخرق البالية، ماذا يمكن العمل معها؟

ويهز رجل الشرطة العسكرية كتفيه بدوره، ويدمدم ويمضي، أو، وفق مزاجه، يكيل الشتائم، ويوزع، كيفما اتفق اللكمات، ويهدد بمسدسه، ويغادر المكان. وحينما يغيب عن الأبصار، تسترد الفصيلة أنفاسها من جديد: ويقول رئيس العمال، بلهجة شبه أبوية:

- انتبهوا! انتبهوا!

وتأتي الساعة السادسة مساء والقوم في ارتخاء عام:

يقول رئيس العمال: انتهى اليوم.

ويأخذ شرطة مراقبة العمل، الذين عادوا إلى الظهور منذ قليل، رجالهم من أجل ترتيب الأدوات، ويطلقون بعض الزمجرات التي تحفز رؤساء الزمر، ويوزعون بعض الضربات: العودة إلى التأديب عن طريق الترهيب.

الساعة السادسة وأربعون دقيقة: تتوجه الفصيلة بخُطاً منتظمة إلى المعسكر. في الساعة السابعة، صفوف وفق البناء وليس وفق الفصيلة؛ ننتظر مجدداً ونحن نرتعش، وأقدامنا في الوحل، هؤلاء السادة حتى يفرغوا من

إحصائنا: ويستغرق ذلك ساعتين أو ثلاثاً.

بين الساعة الثامنة والتاسعة نصل إلى البناء، حيث يقف أحد رجال الغرف على المدخل، وسوطه المطاطي في يده، يجب خلع الأحذية، وغسل الأحذية الخشبية والدخول ممسكين فيها بأيدينا، فقط ليعرفوا أنها نظيفة تماماً. ولدى المرور في قاعة الطعام، يجب على السجين وضعها جيداً بالترتيب، وأن يمد بقصعته ليصب فيها رجل آخر من رجال الغرف نظرياً ليتراً من الحساء ويأكل واقفاً في هرج ومرج لا مثيل لهما. وحين تنتهي هذه الشكليات، يسمح لك رجل غرفة ثالث أن تذهب إلى المهجع حيث تتهالك كومة واحدة على القليل من القش الذي تم إحضاره خلال النهار. الساعة العاشرة والنصف، لقد بقينا سبع عشرة أو ثماني عشرة ساعة واقفين، دون أدنى إمكان للجلوس، كنا منهكين، جائعين، نرتجف من البرد. وكنا نفكر ونحن نتأهب للنوم أن العمل الذي فرض علينا لا يشكل إلا جزءاً بسيطاً من تعبنا.

في اليوم التالي، عاد الأمر منذ الساعة الرابعة والنصف. وفي أثناء الليل، سرق الروس أحذيتنا الخشبية التي كنا رتبناها بعناية فائقة في قاعة الطعام، وبأمر من رجال الغرف: يجب، بالإضافة إلى الاغتسال وحضور توزيع الأرزاق، «تدبير» زوج آخر قبل أن نتراكض لننهي لباسنا ونبتلع اللقمة الأخيرة للفطور الغث، في الليل والبرد، من أجل الوصول إلى ساحة التفقد حيث تنتظر شرطة مراقبة العمل.

في اليوم التالي، وفي كل الأيام: وفي نهاية الأسبوع أصبحنا ظلالاً لأنفسنا.

هناك فصائل في وضع أسوأ من وضعنا: فصيلة (إلريش)، وفصيلة النقل – واحد، كل فصائل النقل والمقالع والحدائق....

كانوا يبنون في الطرف الآخر من النفق معسكر (إلريش)، وكانت فصيلة كبيرة جداً من زهاء ألف رجل، تذهب إلى هناك كل صباح في قطار لرصّ السكك

يغادر محطة دورا في الساعة الرابعة والنصف: وكانت المسافة تبلغ خمسة كيلومترات. وكان يمكن في حال الرغبة في السير على الأقدام أن يتم الذهاب في الساعة الخامسة ليكونوا على رأس عملهم في السابعة، ولكن الأمر كان يبدو في غاية البساطة: قرر رجال الشرطة العسكرية أن يظهروا بالمظهر الإنساني ويوفروا على الفصيلة تعب السير طالما أنه من الممكن ركوب القطار. وهكذا تستيقظ فصيلة الريش في الساعة الثالثة: يغتسلون ويتناولون جراياتهم، ويصلون إلى ساحة التفقد في الساعة الرابعة، ثم الذهاب إلى المحطة. ولم يصدف أن أتى القطار الذي يجب أن يمر في المحطة في الساعة الرابعة والنصف قبل ساعة من التأخير: انتظار. ويتم الوصول إلى إلريش في الساعة السادسة على الأقل، والسادسة والنصف على الأكثر. أعمال وحفر وردم طوال النهار. في الساعة الثامنة عشرة، التوقف عن العمل. ومن الواجب نظرياً ركوب قطار العودة في الساعة الثامنة عشرة والنصف، ولكن كما كان عليه الأمر في الصباح لم يصدف أن أتى قبل ساعة من التأخر: انتظار آخر. وهكذا كانت تتم العودة إلى دورا حوالي الساعة العشرين والنصف في أحسن الحالات، وغالباً في الحادية والعشرين وحتى في الثانية والعشرين. شكليات الدخول إلى البناء، غسيل الأحذية، توزيع الحساء. في حوالي الساعة الثالثة والعشرين يستطيع جماعة إلريش أخيراً أن يتمددواويناموا: خمس ساعات نوم، والاستيقاظ مجدداً، اجتماع، رحيل، انتظار. عجلة الأيام لا ترحم. إن التدبير الإنساني الذي يعتقد رجال الشرطة أو يزعمون أنهم اعتقدوا اتخاذه، قد ترجم إلى عذاب إضافي: فالقتل يتم بالانتقال أكثر مما يتم بالعمل. أضف إلى ذلك أن رجال شرطة مراقبة العمل المختصين بفصيلة إلريش هم من أكثرهم فظاظة. وأن الضربات تنهال هنا بكثافة أكثر من أي مكان آخر، وأن العمل مراقب للغاية وبقسوة: إنها فصيلة الموت، وكل مساء كانوا يعودون ببعض الجثث معهم.

في المعسكر نفسه، كان هناك فصيلة (النقل - واحد) تبدأ بالشكل نفسه والزمان نفسه كما هو الأمر لدى الجميع: كانوا يفرغون حمولات المقطورة ويحملون على ظهورهم معدات ثقيلة من المحطة إلى النفق، أو من المحطة إلى المعسكر. كانوا يُرون من الصباح حتى المساء يطوفون كأنهم أحصنة السيرك رُباع رُباع يحملون ألواحاً عريضة من الخشب، ومثنى مثنى يحملون عوارض سكة حديدية، وبرتل من ثمانية أو عشرة يحملون خطوطاً حديدية، أو أُحادَ أُحادَ يحملون أكياس الإسمنت.

كانوا يطوفون ببطء، ببطء، يرزحون تحت الأثقال، دون توقّف، يطوفون، وشرطي مراقبة عملهم بولوني ذو مثلث أحمر، يغدو بين الواحد والآخر شاتماً مهدداً ضارباً.

فصيلة الحدائق: أحصنة السيرك مثل فصيلة (النقل - واحد)، ولكنهم يحملون الفضلات الإنسانية بدلاً من المعدات، شرطي مراقبة عملهم أخضر يتبع طرائق بولوني فصيلة النقل - واحد نفسها، والنتائج نفسها.

المقلع، المهنة الشهيرة في كل المعسكرات: حيث تُستخرج الحجارة، وتوضع في المقطورات وتُجر المقطورات المحمّلة أو تُدفع إلى الأمكنة حيث تكسر لتستخدم في رصف طرق المعسكر. ويتمتع جماعة المقلع بسوء حظ إضافي في أنهم يعملون في منحدر الهضبة حيث فتحة المقلع. إن أدنى حادث يسبب لهم صفعة تلقي بهم إلى الأسفل ويُقتلون. كل يوم كانوا يعودون بعدد من الأموات إلى ساحة التفقد: وكان أربعة بينهم يحملون الجثة كل منهم من يد أو من قدم. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة: هكذا كان يقول شرطي مراقبة العمل الذي يقود إيقاع مشية الفصيلة، وكانت تسمع طرقات رأس الجثة على الأرض بانتظام. ومن حين إلى آخر يُروى في المعسكر أن أحد أشقياء المقلع، تلقى لكمة، فتأرجح وهوى في الكسارة أو جبّالة البيتون ولم يكلف أحد نفسه عناء إيقافها.

هناك فصائل أيضاً أحسن: كل الذين يشكلون إدارة المعسكر: فصيلة المعسكر...

في مخزن الملابس، تجري محاسبة الملابس المنتزعة من السجناء لدى دخولهم إلى المعسكر، ويحافظ عليها نظيفة. إنه عمل مريح للغاية، وهو مدرٌ للأرباح أيضاً: فمن حين إلى آخر، تتم سرقة بنطال أو ساعة يد أو قلم حبر وهي عملة نادرة من أجل التبادل بالطعام. وفي المغسل، تغسل الثياب التي يبدلها السجناء نظرياً كل خمسة عشر يوماً، وهناك يكونون في أمان وفي الدفء ولديهم الكثير من التسهيلات للحصول على الطعام. وفي مشغل الأحذية تُصلّح الأحذية، كما تصلح الملابس والبياضات الممزقة في مشغل الخياطة، في المطبخ....

أحسن فصيلة بدون نقاش هي فصيلة المطبخ.

لا تتم المساومة على الطعام مع أولئك الذين هم من عداد صنّاعه، والعمل ليس متعباً. وهم يتناولون جرايتهم مثل الجميع الذين يأخذونها في البناء قبل الذهاب إلى العمل. وفي مكان العمل نفسه يتناولون رسمياً جراية إضافية. ومن ثم في كل مرة، بين حين وآخر، يشعرون فيها بالجوع يمكنهم أن يتناولوا من الأرزاق التي بين أيديهم ويأكلوا. وأخيراً، هم يسرقون ليحصلوا على التبغ، والجوارب، والألبسة، و... الحظوات. أضف إلى ذلك أنهم غير خاضعين للتفقد، إنهم يحيون حياة طبّاخي الفرق العسكرية. ومن الضروري أن يكون السجين مدعوماً كي يصل إلى الانتظام في فصيلة المطبخ: الفرنسيون لا يُقبلون فيها، إذ أن الأماكن محجوزة للألمان والتشيكيين، والبولونيين.

وعلى هذه الشاكلة، هناك إدارة إحصاء العمل وجماعة المستوصف؛ لا تفقّد لهؤلاء ولا لهؤلاء، ولا يُستخدم معهم الضرب. في إحصاء العمل، يتم القيام بعمل مكتبي، ويتم الطعام حين الجوع، إذ أن من يتم التستر عليهم يدفعون عيناً، وهم يلبسون لباساً جيداً بالأسلوب نفسه، ويتمتعون بما شاؤوا من التبغ. وقد عرفت

اثنين من الفرنسيين الذين نجحوا في الدخول إلى إحصاء العمل. أما الآخرون فكانوا جميعاً ألماناً وتشيكيين وبولونيين، كما في المطبخ، في المستوصف، هناك الأطباء، والممرضون، والمنظفون. فالأطباء يشخّصون، والممرضون يعتنون، والمنظفون يحافظون على النظافة. وبالإضافة إلى ذلك هناك عدد من الكتبة، هم غالباً من قدامى المرضى. وهم يأكلون وفقاً لاحتياجاتهم، ولا يعملون تقريباً، ولا يُضربون.

وبعد ذلك تأتي فصيلة العناية بالمعسكر، ويخصص لها جميع الناس المعدودين من ضعاف الصحة من حيث المبدأ: وفي الواقع هي مخصصة لجميع المدعومين وغلمان شرطة مراقبة العمل وحماية المعسكر، ومن كان له صديق في المستوصف أو المطبخ، ومن كانت تصله طرود ثمينة. كان قائد المعسكر يزود بعمال السخرة من أجل التقاط الأوراق والكناسة وقمامة المطبخ، كلاً من الشرطة العسكرية، وكتلة السجناء، والعمال الأحرار الذين يعملون حول المعسكر، كما يغذي إدارة حفظ الأشياء القديمة. وفي البداية، حين كان المعسكر ما يزال صغيراً، وكانت الفصيلة على قدر حجمه، كانت مهمة سهلة مرغوبة جداً، وبالتالي لم يكن يتمتع بهذا الوضع سوى المدعومين، وقد توصل قائد المعسكر إلى معرفة المئات من الأفراد، يستمد من بينهم ما يتمم الفصائل المحتاجة إلى القوى البشرية.

هناك أيضاً فصيلتان مرغوبتان: مصنع التبغ، ومصنع السكر. كلتا الفصيلتين تذهب للعمل في (نوردهاوزن) وتنقل بالسيارات الشاحنة. وتعود في المساء، وقد امتلأت جيوب جماعة الفصيلة الأولى بالتبغ الذي يبادلونه بالخبز والحساء. أما جماعة الفصيلة الثانية فيعودون مثقلين بالسكر. وهناك فصيلة ثالثة مخصصة من أجل مسالخ نوردهاوزن، أدخلت إلى المعسكر تجارة اللحم.

إن الحصول على فصيلة جيدة أو سيئة مسألة حظ تدعمها بقوة العلاقات مع إدارة إحصاء العمل: إن السعي وراء الفصيلة الجيدة هو الشغل الشاغل لكل

السجناء، ويتم باستمرار باستخدام الأسلحة والوسائل الأكثر تنافياً مع الكرامة الإنسانية.

* * *

تُعدّ فصائل النفق أحسن الفصائل وأسوأها في آن واحد، وهي مُجمّعة في فصيلة وحيدة تدعى (زاڤاتسكي) وهو اسم رئيس المؤسسة التي تساهم في النفق دون المشاركة في إدارته.

وعلى رأس هذه الفصيلة شرطي عام لمراقبة العمل -جورج الكبير- بإمرته زمرة من شرطة مراقبة العمل يعينون السجناء وفق اختصاصاتهم. إن تعيين فرد ما في فصيلة تعمل في واحد من بضعة عشر مصنعاً داخل النفق، هو الاطمئنان إلى عمل بسيط، وحماية من الريح والمطر والبرد، وهذا أمر على قدر كبير من القيمة. وهو الاطمئنان أيضاً إلى تفادي التفقد. لا تفقد لجماعة النفق. ولكنه، أيضاً يعني عدم الخروج إلى ضوء النهار إطلاقاً، وسوء التنفس في الممرات الخالية من التهوية، والعفونة بشتى أنواعها، والغبار خلال أشهر وأشهر، والمخاطرة بالموت قبل التحرير. بينما يتم العمل خارج النفق مهما كان الطقس: فلا يتوقف العمل في المطر ولا في الثلج ولا في الريح، ولا في الشمس الحارقة ولا في العاصفة. أضف إلى ذلك: التفقد اليومي الذي لا ينقطع ولا يختصر. وخلال الطقس الممطر، يحدث أن يمر علينا خمسة عشر يوماً أو ثلاثة أسابيع لا نستطيع خلالها تجفيف الأسمال التي نرتديها: كنا في المساء، لدى عودتنا إلى البناء نضعها تحت القش أو فراش القش على أمل أن تتغلب حرارة الأجساد على الرطوبة، وفي اليوم التالي كنا نلبسها حارة ولكنها مبللة ونغوص مجدداً تحت المطر. وساد مرض الالتهاب الرئوي المزمن في رئة أو رئتي جماعة العاملين خارج النفق وأودى بالكثيرين إلى محرقة الجثث. لكن على الأقل كنا نحيا في الهواء الطلق، ونتمتع إبان الطقس الجميل... وكان الرأي منقسماً بين الرغبة في العمل في النفق أو البقاء على سطحه. قال لي

فرنان:

- لعلنا نستطيع اللجوء إلى النفق شتاء والصعود صيفاً. من البديهي أن ذلك كان مستحيلاً. ولم أكن متأكداً لو حدث الأمر أن ذلك هو الحل المناسب.

إن ما كان يطلق عليه النفق هو عبارة عن رواقين متوازيين يجتازان الهضبة من طرف إلى آخر. في إحدى النهايتين يوجد «معسكر دورا»، وفي الأخرى، جحيمها، «معسكر إلريش». هذان الرواقان الرئيسان اللذان يبلغ طول كل منهما أربعة أو خمسة كيلومترات، كانا متصلين بخمسين رواقاً معترضاً أو قاعات طول كل منها حوالي مائتي متر ومقطع كل منها ثمانية أمتار في ثمانية. كل قاعة تضم معملاً. في نيسان ١٩٤٥ كان النفق منتهياً، إلى درجة أنه لو لم تحدث عمليات التخريب لكان أعطى أقصى المردود. وقد قُدّر أنه في تلك الآونة كان يضم من ١٣ إلى ١٥ كم من الرواقات المحفورة والجاهزة مقابل السبعة أو الثمانية التي كانت توجد في آب ١٩٤٣، فترة إنشاء معسكر دورا: إن هذين الرقمين يبينان مدى الجهد الذي تم فرضه على السجناء. ويجب أيضاً إدراك أن معسكري دورا وإلريش مجتمعين لم يتمكنا قط من استخدام قوى عاملة تزيد على ١٥٠٠٠ رجل، كان عليهم أيضاً، بالإضافة إلى ذلك، بناء الأكواخ الخشبية وإنتاج كل منهما لعدد من صواريخ ف١ وف٢، ومحركات أو هياكل طائرات وأسلحة خفيفة. وإذا أردنا من ناحية ثانية تقدير سعر كلفة هذا العمل، فيجب أن نضيف إلى الفرنكات أو الماركات، العشرين أو الخمسة والعشرين ألف الحياة البشرية التي قُضي عليها في أقل من سنتين.

وهكذا، يستيقظ أفراد فصائل النفق مرتين كل يوم، نصفهم في الساعة السابعة صباحاً، ونصفهم الآخر في الساعة السابعة مساء، من نومهم في الأروقة، أو الجزء من الأروقة المهيأة لتكون أبنية، ونظراً لقلة وجود المياه تحت تصرفهم، فإن صحتهم كانت أكثر خللاً، والبراغيث والقمل منتشرة على راحتها. في التاسعة

صباحاً وفي التاسعة مساء، ووفق الوردية التي ينتمون إليها، يكونون على رأس عملهم.

هناك أيضاً فصائل سيئة في النفق: أولئك الذين يحفرون الرواقات، وهم مكلفون بنقل الأجهزة والركام. إنهم وكأنهم المحكومون الحقيقيون بالأشغال الشاقة الذين يموتون مثل الذباب؛ فبعد أن تتسمم رئاتهم من غبار النشادر، يسقطون ضحايا السل. ولكن الغالبية بحال جيدة؛ فقد استخدمت الأتمتة بأقصى طاقتها: فإحدى الفصائل تقضي وقتها جالسة أمام الحفّارة تدفع بالقطع، الواحدة تلو الأخرى، تحت النصل؛ وأخرى تراقب المدور؛ وثالثة تمنع التماس الكهربائي؛ ورابعة تصقل الصفائح المعدنية؛ وخامسة مؤلفة من خرّاطين وبرّادين. وأخيراً هناك فصائل ليست بالحسنة ولا بالسيئة: أولئك الذين يجمّعون قذائف (ف١) و (ف٢). وبشكل عام، المردود ضعيف فهم يستخدمون عشرة رجال يعملون بخلاف مشيئتهم حيث يكفي واحد أو اثنان ممن لهم ميل إلى ذلك. والأكثر مشقة يكمن في التظاهر دائماً بالعمل، والوقوف باستمرار، واتخاذ هيئة المنهمك، وفوق كل هذا، العيش في هذا الضجيج وهذه العفونة، دون تلقي الهواء من الخارج إلا بالتقتير بواسطة فتحات تهوية سيئة ونادرة.

حوالي منتصف آذار، وبناء على طلب من زاڤاتسكي، الذي أراد القضاء على الأسباب الرئيسة، من وجهة نظره، لتدني المردود، بوشر بإصعاد فصائل النفق إلى ضوء النهار ليتناولوا الحساء في المعسكر بدلاً من إنزاله إليهم. وفي نهاية نيسان وأوائل أيار بعد أن أوشك الأشخاص الذين يعملون فوق النفق على إنجاز كل الأبنية المنتظرة حتى الرقم ١٣٢: اتخذ قرار بألاّ ينام أحد بعد ذلك في النفق، وصعدت كل الفصائل ولم تعد تنزل إلا لتعمل، اثنتي عشرة ساعة يومياً.

ولكي أستوفي حديثي، عليّ أن أقول إن هناك مدنيين موظفين في مختلف مصانع النفق. وفي نيسان ١٩٤٥ كانوا بين ستة وسبعة آلاف: منهم ألمان رؤساء

عمل، وعاملون فرنسيون بناءً على إحصائيات مكتب العمل الإجباري (الذي طلب الألمان من حكومة ڤيشي إنشاءه وأخذ عمال فرنسيين لدعم الصناعة الألمانية)، ومتطوعون قادمون من كل الدول الأوروبية. وهم أيضاً كانوا مجمعين في فصائل، ويعيشون في معسكر آخر على بعد كيلومترين من دورا، ويعملون عشر ساعات يومياً، ويقبضون أجراً مرتفعاً ويأكلون طعاماً متنوعاً إلى حد ما ولكنه سليم ووافر؛ وأخيراً فهم أحرار ضمن دائرة نصف قطرها ٣٠كم وإذا أرادوا تجاوزها فعليهم الحصول على إذن خاص. وكان بينهم الكثير من الفرنسيين الذين لا يقتربون منا، ويمكنك أن تقرأ في أعينهم باستمرار الخوف من أن يأتي اليوم الذي يشاركوننا فيه مصيرنا.

* * *

٣١ آذار ١٩٤٤، منذ ثمانية أيام وشرطة مراقبة العمل وحرس المعسكر ورؤساء الأبنية ثائرو الأعصاب. وكثير من السجناء ماتوا تحت الضرب: لقد وجدوا قملاً، ليس في النفق فحسب، بل ضمن الفصائل التي تعمل في الخارج، ووضعت إدارة الشرطة العسكرية مسؤولية ذلك على عاتق الإدارة الذاتية للمعسكر. فضلاً عن ذلك، كان الطقس في ذلك اليوم مثيراً للرعب: البرد أقسى من العادة. ووابل المطر الجليدي يهطل ممتزجاً بالبَرَد دون توقف. وصلنا مساء إلى ساحة التفقد، متجمدين، مبللين، جائعين إلى درجة لا يمكن تصورها: عسى ألا يكون التفقد طويلاً! وا أسفاه: في الساعة العاشرة مساء، ما زلنا واقفين تحت البَرد ننتظر: (من الصف انصرف!) تلك الكلمة التي تحررنا. وأخيراً، جاء الفرج وانتهينا، سنتمكن من تناول الحساء الساخن على عجل ونرتمي على القش. وصلنا إلى البناء: تنظيف الأحذية، ثم رأينا رئيس البناء الواقف لدى فتحة الباب يومئ إلينا بالبقاء خارجاً، وألقى علينا خطبة، أعلن أنه نظراً لوجود القمل فإن المعسكر برمته سيعقم... وسيبدأ ذلك هذا المساء، وقد اختيرت خمسة أبنية بينها البناء ٣٥ من أجل الذهاب

إلى التعقيم هذه الليلة. وبالتالي فلن نتناول الحساء إلا بعد العملية، وأشار إلينا بالشكليات التي علينا اتباعها وبدأ بالتنفيذ وكان يأمرنا بما نفعل.

دخلنا قاعة الطعام وأحذيتنا في أيدينا. خلعنا ثيابنا، ووضعناها في رزمة بشكل يظهر الرقم وقال: إلى البناء رقم ٥! ودب الرعب في قلوبنا.

- إلى البناء رقم ٥! ونفذنا، بينما كان رجال الغرف يحملون ثيابنا ضمن أغطية، ويحيطون بنا، واتجهنا نحو البناء الذي سيطهروننا فيه، عراة تماماً، في البرد، تحت المطر والثلج، وكان علينا أن نجتاز حوالي ثمانمائة متر.

حينما وصلنا، كان رجال الأبنية الأربعة الأخرى العراة مثلنا قد وصلوا وهم يتدافعون أمام المدخل، وشعرنا بالموت يهبط بين ظهرانينا. كم سيستغرق هذا من الزمن؟ كنا هناك زهاء الألف، عراة تماماً، نرتعش من البرد المرطِّب لليل الذي يخترق عظامنا، نتدافع نحو الأبواب. لم تكن هناك وسيلة للدخول. لا يمكن المرور إلا لكل أربعين على حدة، وجرت مشاهد وحشية. حاولنا في بادئ الأمر الدخول بالقوة، فمنعنا جماعة التعقيم برشنا بالماء. ثم حاولنا الرجوع إلى البناء لانتظار دورنا: مستحيل، أحاط بنا حرس المعسكر وسياطهم المطاطية في أيديهم. يجب البقاء هناك، محصورين بين رش الماء والسياط المطاطية، والتصقنا بعضنا ببعض. كل عشر دقائق كان يدخل أربعون في هرج ومرج رهيبين، هو صراع حقيقي ضد الموت. كنا نفتح طريقنا في الزحام، نتصارع. وكان الضعفاء منا يداسون بالأقدام بلا رحمة وقد شاهدوا جثثهم في الصباح. وفي حوالي الساعة الثانية صباحاً نجحت في أن أخترق إلى الداخل، وخلفي فرنان، بالقوة التي مارستها: حلاّق، مطهر زيت القطران، حمام رشاش. لدى الخروج أعطوا كل واحد قميصاً وسروالاً، انطلقنا بهما في الليل عائدين إلى بنائنا. وأحسست أنني أنجزت عملاً بطولياً حقيقياً. وصلنا إلى البناء، ودخلنا إلى قاعة الطعام حيث ناولنا أحد رجال الغرف ثيابنا التي عادت من التعقيم قبلنا. كان الحساء ينتظرنا في الفراش.

لدى الاستيقاظ، كانت الملهاة المشؤومة على وشك الانتهاء. فنصف جماعة البناء على الأقل لم يعودوا إلا ليلبسوا ويتناولوا حساءهم، ويأخذوا جرايتهم اليومية ويقفزوا إلى ساحة التفقد ليذهبوا إلى العمل. وكان هناك غائبون، أولئك الذين ماتوا وهم ينجزون هذا الواجب السيء. وآخرون لم يعيشوا بعد ذلك سوى بضع ساعات أو بين يومين وثلاثة أيام ورحلوا بسبب الاحتقان الرئوي المتلاحق. ويحتمل أن العملية قد قتلت من الرجال بقدر ما قتلت من القمل.

ماذا جرى؟

اقتصرت إدارة الشرطة العسكرية على قرار التعقيم بواقع خمسة أبنية في اليوم، وتُركت للإدارة الذاتية حرية التصرف، التصرف المطلق بأسلوب التطبيق. كان يمكنها أن تكلف نفسها مشقة إقامة توقيت، دور لكل بناء: في الساعة الحادية عشرة البناء ٣٥، في منتصف الليل البناء ٢٤، في الساعة الواحدة البناء ٣٢، وهلم جراً... وكان من الممكن لرؤساء الأبنية، في إطار هذا التوقيت، إرسالنا في مجموعات من مائة رجل، ضمن فاصل زمني مقداره عشرون دقيقة مثلاً، وبكامل لباسنا، مما يشكل أيضاً شيئاً من المشقة بعد نهار من العمل. ولكن كلا: كان الأمر بسيطاً جداً.

وعوضاً عن ذلك...

وترامت أحداث ليلة ٣١ من آذار إلى أسماع إدارة الشرطة العسكرية، فأقامت توقيتاً دقيقاً، منذ اليوم التالي لباقي الأبنية التي لم تتعقم بعد.

* * *

٢ نيسان ١٩٤٤، عيد الفصح، قررت إدارة الشرطة العسكرية استراحة لمدة ٢٤ ساعة لن يعكر صفوها إلا التفقد العام، أي أن يشارك فيها جماعة النفق أسوة بالعاملين فوق الأرض. كان الطقس رائعاً: شمس ساطعة في سماء صافية مشرقة.

عم الفرح: الآلهة معنا.

الاستيقاظ في الساعة السادسة بدلاً من الرابعة والنصف: اغتسال، توزيع الأرزاق ببطء، استراحة.

الساعة التاسعة: جميع الفصائل في وضعية الاستعداد في الساحة؛ حرس المعسكر يطوفون بين المجموعات؛ رؤساء الأبنية في مواقعهم؛ رئيس الإدارة الذاتية للمعسكر يثرثر بلهجة ودية مع المقرر، وبيده ورقة: الوضعية المفصّلة لأعداد العاملين في المعسكر المعَدّ من قبل إدارة إحصاء العمل؛ ثلاثون من رجال الشرطة العسكرية معتمرون، وعلى جنوبهم قراب مسدساتهم، محتشدون على مدخل المعسكر: مراقبو الأبنية. كان كل شيء يبدو على ما يرام.

أطلقت صفارة: توجه مراقبو الأبنية بشكل مروحي، كل نحو البناء المكلف بمراقبته. كل يعد ويقارن النتيجة التي وصل إليها مع وضعية أعداد البناء التي أعطاه إياها، بعد فوات الأوان، رئيس البناء.

- تماما.

وبدأ مراقبو الأبنية، واحداً إثر الآخر، بتقديم الكشوف إلى المراقب الذي كان ينتظر، وقلمه في يده، ويسجل النتائج التي تصل إليه، أولاً بأول.

لم يكن هناك أي تسجيل مخالف، إذاً فلن يدوم هذا طويلاً: فالشرطة العسكرية ترغب في الاستفادة من هذا الأحد، فهم يسرعون في عملهم، وهلّلنا فرحاً: يوم راحة، ليس هناك ما نقوم بعمله، نشرب حساءنا ونذهب للاستلقاء في الشمس.

مهلاً! إن المجموع الذي حصل عليه المقرر غير مطابق للرقم المعطى من إحصاء العمل. هناك ٢٧ رجلاً أقل في ساحة التفقد مما هو عليه في الورق. والمشكلة: ما هو مصيرهم؟

وتم استدعاء شرطي مراقبة إحصاء العمل على عجل، وطلب إليه إعادة

حساب العدد على الفور. بعد ساعة، عاد فقد حصل على الأرقام نفسها.

ربما أخطأ رجال الشرطة العسكرية: وأعيد العدّ مرة أخرى، ووجد المقرر أن الرقم أيضاً هو نفسه.

تم تفتيش الأبنية وتفتيش النفق: ولم يجدوا أحداً. أقبل الظهر: والعشرة آلاف سجين ما زالوا واقفين في الساحة ينتظرون اتفاق مطابقة إدارة إحصاء العمل وقيادة الشرطة العسكرية. بدأنا نشعر بطول الوقت، بعضنا أغمي عليه، ومن جاء دورهم بالموت سقطوا سقوطاً لا نهوض بعده، والمصابون بالزحار فعلوها في سراويلهم، وحرس المعسكر أحسوا بحلول الفتور بين السجناء فأنشأوا يوزعون ضرباتهم، والشرطة العسكرية، التي تعرّض يوم الأحد لديها إلى الخطر، حانقة: فجأة، رأوا أنه من الأفضل الذهاب إلى الطعام، أما نحن فقد بقينا، وعادوا في الساعة الرابعة عشرة.

فجأة وصل شرطي مراقبة العمل مهرولاً: وجد رقماً جديداً وتصاعدت همسات الأمل لدى القوم. انحنى المراقب على الرقم الجديد وانفجر غضباً: ما يزال ينقص ثمانية رجال. ذهب شرطي مراقبة العمل ثانية، وعاد في الساعة السادسة عشرة. لم يكن ينقص سوى واحد، ونحن ما زلنا هناك: شاحبين، مهزومين، منهكين من إحدى عشرة ساعة وقوف، والبطون خاوية. قررت الشرطة العسكرية إرسالنا للطعام. ذهبنا: وخلفنا فصيلة الموتى تلتقط ثلاثين ميتاً.

في الساعة الحادية والعشرين، بدأوا مجدداً ليجدوا الرجل الناقص: في الساعة ٤٥ . ٢٣، بعد عمليات مختلفة، وُجد هذا الناقص بدوره. وتطابقت قيود قيادة الشرطة العسكرية وإدارة إحصاء العمل. دخلنا إلى البناء، ونحن نستطيع الذهاب إلى النوم، مخلفين وراءنا أيضاً عشرة موتى.

لديك الآن تفسير لإطالة آماد التفقد: إن الجماعة المعينين في إحصاء العمل، وهم أميّون أو أشباه أميينّ، لم يصبحوا محاسبين إلا بالوساطة، وهم عاجزون عن

معرفة وضعية أعداد العاملين لأول وهلة. إن معسكر الاعتقال عالَم يحدد فيه مكان كل فرد وفقاً لمهارته في إقامة العلاقات وليس وفقاً لإمكاناته: فالمحاسبون يستخدمون بنّائين، والنجارون يُستخدمون محاسبين، وصانعو العربات أطباء، والأطباء يُستخدمون خرّاطين، وكهربائيين، وحفّارين.

* * *

كل يوم، تصل إلى محطة دورا مقطورة حمولتها عشرة أطنان، ملأى بالطرود الآتية من كل دول أوروبا الغربية، ما عدا إسبانيا والبرتغال، وفي حالات استثنائية نادرة تصل هذه الطرود سليمة. إذ أنها ساعةَ تسليمها لصاحب العلاقة يكون قد تم نهبها بأجمعها أو ثلاثة أرباعها. في حالات عديدة لا تصل إلا البطاقة اللاصقة مصحوبة بقائمة المحتويات، أو بصابونة حلاقة، أو صابونة صغيرة أو مشط، وهكذا... كانت فصيلة من التشيكيين والروس مكلفة بتفريغ المقطورة، ومن هناك تؤخذ الطرود إلى مركز البريد، حيث يأتي المحاسبون ورجال الغرف من كل بناء لاستلامها، ثم يقوم رئيس البناء بنفسه بتسليمها إلى صاحب العلاقة. وفي هذه الجولة المحدودة كان يتم نهبها.

وآلية النهب كانت سهلة. أولاً، وبشكل خاص الطرود الفرنسية الشهيرة بغنى محتواها هي التي تتحمل النفقات. في مكان التفريغ يتم فتح المقطورة من قبل شرطي مراقبة العمل للفصيلة، أمام عيني أحد أفراد الشرطة العسكرية المكلف بمراقبة العملية. كان يمر الطرد بين ثلاث أيدٍ: يتولى أحد التشيكيين إلقاءه من المقطورة إلى روسي على الأرض يتلقفه في الهواء ويعيد إلقاءه إلى روسي آخر أو تشيكي آخر مهمته ترتيبه في عربة النقل. ومن حين إلى آخر يقول روسي المقطورة (فرنسي) فيفرج التشيكي يديه: فيقع الطرد على الأرض ويتحطم وتتناثر محتوياته على الأرض، فيملأ الروس والتشيكيون جيوبهم وأكياسهم. أما الشرطي العسكري

فإن راقه شيء من الطرد المشقوق، مد يده. وهكذا كان يشترى تواطؤه.

وما إن تمتلئ العربة، حتى تتحرك باتجاه مركز البريد، يجرها ستة رجال؛ وخلال هذه الجولة الأولى كان يختفي عدد من الطرود أو ينشقّ بدوره.

والتعليمات تلزم بأن يتم التفتيش الدقيق في مركز البريد على الطرود وأن تنتزع منها العلاجات الطبية، والنبيذ، والكحول، والأسلحة، والحاجات المختلفة التي يمكن استخدامها أسلحة. وكان هذا التفتيش الرسمي يتم من قبل زمرة من السجناء الألمان والسلافيين، تحت رقابة اثنين أو ثلاثة من الشرطة العسكرية: اقتطاع آخر. كان يتم إغراء الشرطة العسكرية بقطعة من شحم الخنزير، بلوح من الشوكولا مما ترغب فيه صديقة الشرطي، علبة سجائر، قداحة: وهم يطمئنون إلى صمت السجناء بغض النظر عن السرقات التي يقترفونها.

ومن مراكز البريد حتى البناء، يتدبر المحاسبون ورجال الأبنية أمورهم من أجل إتمام اقتطاع آخر، وفي نهاية المطاف، كان هناك رئيس البناء الذي يتمم الاقتطاع الرابع والأخير، وبعد ذلك يعيد الباقي إلى صاحب العلاقة.

إن احتفال الإعادة إلى صاحب العلاقة يجري بما قد يثير شيئاً من السخرية. فبعد أن يتم نداء الموقوف برقمه ودعوته إلى المثول أمام رئيس البناء، يرى على المكتب طرده المفتوح الذي تم جرده، وفي أسفل المكتب سلة كبيرة تعلوها لائحة مكتوب عليها «التضامن». كان على كل سجين، من الناحية المعنوية، أن يسقط فيها شيئاً مما تلقاه من أجل أولئك الذين لا يتلقون شيئا، ولا سيما الروس والإسبان، ومن أجل الأطفال والمحرومين من جميع الأمم، الذين لا أهل لهم أو الذين يجهل أهلهم عناوينهم، إلخ... هذا من الناحية النظرية، ولكن الواقع هو أن رئيس البناء كان يستولي بلا قيد ولا شرط على ما سقط في السلة ويتقاسمه مع محاسبه ورجال غرفته. في أعقاب كل وصول لطرود، كان جماعة الشرطة العسكرية، وشرطة مراقبة العمل، وحرس المعسكر، ومراقبو الأبنية، وكل من كان له

رتبة ما في إدارة الشرطة العسكرية أو في الإدارة الذاتية، كانوا جميعاً مكتنزين بفيض من المنتجات الفرنسية، مما جعلني مقتنعاً أن أعمال النهب كانت من فعل عصابة منظمة.

تلقيت طردي الأول في ٤ نيسان ١٩٤٤، كانت تنقص كل الملابس الداخلية، ولوح من الشوكولا، على ما أعتقد، وعلبة كونسروة، ولكن بقيت ثلاث علب سجائر، وما يزيد على كيلو من شحم الخنزير، وعلبة زبدة، ووجبات غذائية متنوعة. وكنا، أول أمس، قد غيرنا بناءنا وانتقلنا إلى البناء رقم ١١ وكان رئيس البناء ألمانيا ذا شارة سوداء، فسألته عما يرغب فيه، فأجاب:

– لا شيء، امض.

وبعزم، مددت له يدي بعلبة سجائر وأشرت إلى سلة التضامن واستفهمت منه بنظري:

– ليس هناك ضرورة، اذهب أيها السوقي الأحمق.

كان رهاني في محله، فقد نودي عليّ في اليوم بعد التالي، وصلني هذه المرة ثلاثة طرود، لم تبق من أحدها سوى البطاقة، أما الاثنان الآخران فقد كانا سليمين تقريباً: كان في أحدهما قطعة شحم خنزير كبيرة.

طلبت من رئيس البناء سكينة، وقطعت له النصف الأكبر منها ومددت يدي به إليه، ومضيت دون أن أكلف نفسي مشقة سؤال ما إذا كان علي أن أبقي شيئاً «للتضامن»، ونظر إلي وأنا أبتعد وهو يحملق: إن الفرنسيين معروفون بأنهم يبررون تمسكهم بطرودهم وأن صفة الكرم نادرة بينهم، فجأة، ناداني:

– رقمك؟

سجل، ثم قال لي:

– اسمع، يا رفيق، إن طرودك لن تمس بعد اليوم، امض! والواقع، أنه منذ ذلك اليوم كانت تصل إلي جميع طرودي سليمة تقريباً: كان رئيس البناء قد عممّ

رقمي على مختلف جهات السلب أمراً بعدم مسّ ما يتعلق بي، وكان لهذا الفضل بأن أعيش حياة سليمة، إذ أن الطرود الآتية من فرنسا، عدا المساعدة التي تقدمها إلي تغذية المعسكر، كانت عملة نادرة للتبادل، يمكن بواسطتها الحصول على الإعفاء من العمل، وعلى الملابس الإضافية، والأعمال السهلة. وقد سمحوا لي أن أقضي ثمانية أشهر في المستوصف بينما كان آخرون مرضى مثلي قد أُخضعوا لترويض ماتوا بسببه.

وعلى ذكر الطرود، فقد حدثت ظاهرة مأساوية: أغلب الفرنسيين، حتى من العائلات الميسورة، تلقوا من طرد إلى ثلاثة طرود منهوبة، ثم لا شيء ، بعد ذلك، ولدى التحرير أدركت تفسير ذلك الأمر: لدى وصولهم إلى المعسكر، كان السجناء يكتبون مرة إلى أسرهم مبينين أن لهم الحق في أن يكتبوا مرتين في الشهر، وترسل الأسرة طرداً، وبما أن هذا الطرد هو الأول، تنتظر الأسرة إعلاماً بوصوله قبل أن ترسل الثاني، ولكن الإعلام لا يصل، إذ أنه فيما عدا الرسالة الأولى لم تكن تصل إلا رسالة واحدة من كل عشرٍ نرسلها. وفي المعسكر، كان السجين الذي يكتب بانتظام يتساءل عما يحدث، وبينما هو يموت جوعاً، تكون أسرته في فرنسا مقتنعة بأن لا ضرورة لإرسال طرد آخر إليه، إذ أنه لم يرسل ما يشعر بوصول الطرد الأول، ومن المؤكد أنه مات. قالت لي زوجتي التي كانت ترسل إلي طرداً كل يوم أنها لم تكن تفعل ذلك إلا إرضاء للضمير وخلافاً لكل رجاء، لا سيما وأن أمي بذاتها نجحت في إقناعها وفقاً لهذا المنطق أنها كانت ترسلها إلى شخص ميت وأنه عدا الموت المحقق، فإن المال يذهب هدراً.

* * *

في أول حزيران ١٩٤٤، كان المعسكر قد تغيرت معالمه.

فمنذ ١٥ آذار ما فتئت تصل إلى المعسكر قافلتان (من ٨٠٠، ١٠٠٠.

١٥٠٠) مرة أو مرتين في الأسبوع، ووصل سكان المعسكر إلى حوالي ١٥٠٠٠ نسمة، إن لم يكن عددهم تجاوز هذا الرقم، ذلك أن الموت حصد نسبة قريبة جداً من مجموع الوافدين: كل يوم كانت تتوجه من خمسين إلى ثمانين جثة إلى محرقة الجثث. كانت الإدارة الذاتية تضم وحدها عُشر سكان المعسكر: من ألف وأربعمائة إلى ألف وخمسمائة رجل في منأى عن الخطر، مطلقي الصلاحية، مزهوين بأهميتهم يتحكمون بالعامة وهم يدخنون السجائر، ويتناولون الحساء، ويشربون الجعة حتى الثمالة.

كان علينا تركيب البناء ١٤١، المقرر أن يكون مسرحاً و(سينما)، وأصبح الماخور على استعداد لاستقبال النساء. كانت كل الأبنية مرتبة على الهضبة بشكل هندسي يسر الناظرين، وكانت متصلة فيما بينها بطرق مرصوفة بالإسمنت المسلح: وكانت هناك سلالم إسمنتية بدرابزين تفضي إلى الأبنية الأكثر ارتفاعاً؛ وأمام كل منها ممشى مظلل تكتنفه النباتات المتسلقة، وحديقة صغيرة مغطاة بمرج من الزهور، وأنى نظرت، فهناك مستديرات صغيرة تعلوها نافورة مياه أو تمثال صغير. وساحة التفقد التي تغطي مساحة مقدارها نصف كيلو متر مربع، مبلطة بأكملها ونظيفة بحيث لا يضيع فيها دبوس. مسبح مركزي مع منصة للغطس، وأرض للرياضة، وظلال رطبة وفق المرام؛ معسكر حقيقي من أجل مخيمات العطلة، وإن أي عابر سبيل يسمح له بزيارته في غياب السجناء يخرج مقتنعاً، أنهم يعيشون حياة ممتعة، حافلة بشاعرية الغابات، ومرغوباً بها على وجه خاص، وعلى كل حال خارج نطاق أي تدبير مشترك مع مخاطر الحرب التي هي من حصة الرجال الأحرار. وقد سمحت الشرطة العسكرية بإنشاء فصيلة للموسيقى. صباحاً ومساء كانت جوقة مؤلفة من ثلاثين آلة من آلات النفخ يدعمها طبل كبير وصنجات، تؤدي إيقاع الفصائل الغادية إلى عملها أو العائدة منه. وفي النهار كانت تتمرن وتصم آذان من في المعسكر بمحاولات الانسجام الأكثر غرابة. وبعد ظهر الأحد كانت تقدم

الحفلات الموسيقية وسط عدم المبالاة العامة، بينما يكون المدللون يلعبون كرة القدم والألعاب البهلوانية في منصة الغطس.

تبدلت المظاهر الخارجية. ولكن الواقع بقي على ما هو عليه. فالإدارة الذاتية هي هي دائماً، دخل إليها السياسيون بعدد لا يستهان به، وبدلاً من أن يلقى السجناء الشراسة من جماعة الحق العام، أصبحوا يلقونها من الشيوعيين أو الذين يزعمون أنهم كذلك. كان كل فرد يتقاضى بانتظام أجراً: من ماركين إلى خمسة ماركات في الأسبوع. هذا الأجر يحفظ لدى الإدارة الذاتية التي كانت توزعه بصورة عامة مساء السبت في ساحة إحصاء العمل، ولكنها كانت تتصرف على نحو من الغوغائية بحيث أن أي تظاهرة في المطالبة بقبضه تعني ترشيح صاحب هذه التظاهرة للذهاب إلى محرقة الجثث. فلم يكن يتقدم إلى ذلك سوى عدد قليل من المتهورين. وكذا كانت شرطة مراقبة العمل، ورؤساء الأبنية، وحرس المعسكر يتقاسمون ما فيه النصيب؛ كانت توزع السجائر أيضاً: اثنتا عشرة سيجارة كل عشرة أيام بثمانين فينيكاً، ولم يكن هناك مال لدفع ثمنها، وكان رؤساء الأبنية المكلفون بتوزيعها يطلبون ممن لديهم المال التمسك بفضائل الصحة، كما أنه من شبه المستحيل الحصول على هذه الجراية. وأخيراً كانت توزع البيرة: للجميع من حيث المبدأ، ولكن هنا أيضاً يجب دفع المال. كان مسموحاً لأهل السجناء أن يرسلوا ثلاثين ماركاً شهرياً، ولكنهم لم يكونوا يتلقونها كما كان يحصل بأجورهم الأسبوعية وسجائرهم وللأسباب نفسها. وزد على ذلك أنه ذات يوم قرر جماعة الإدارة الذاتية أن يتقاسموا الثياب والحاجات الأخرى التي نزعت منا يوم قدومنا إلى بوشنفالد.

ومن الجدير بالذكر أنه للحصول على هذه النتيجة كان الكثيرون قد عبروا إلى محرقة الجثث، سواء أكان ذلك بشكل طبيعي ناجم عن الحياة التي جعلوهم يعانونها، أم كان بسبب إرسالهم لأسباب شتىّ، ولا سيما أعمال التخريب التي

كانت تقودهم إلى فصائل العقوبة والنفق والمشنقة. ولم يمر أسبوع من آذار ١٩٤٤ وحتى نيسان ١٩٤٥ دون أن يتم شنق ثلاثة أو أربعة بسبب أعمال التخريب. وأخيراً كانوا يشنقونهم كل عشرة أو عشرين معاً، بعضهم أمام بعض. كانت العملية تتم في ساحة التفقد، بحضور الجميع. كانت تنصب المشنقة، ويصل المعذبون وقد وضعت في أفواههم كمامات خشبية على شكل فك الكماشة، وأيديهم خلف ظهورهم، يتسلقون على منضدة صغيرة ويمررون رؤوسهم في الأنشوطة المتحركة، وبرفسة واحدة كان حارس المعسكر المناوب يطيح بالمنضدة؛ وبدون رعشة كان التعساء يقضون أربع، خمس، ست دقائق حتى يموتوا. ويراقب ذلك فرد أو اثنان من الشرطة العسكرية. وما أن تنتهي العملية حتى يمر جميع سكان المعسكر بموكب أمام الجثث المتعلقة على حبالها.

في ٢٨ شباط ١٩٤٥، شنقوا ثلاثين صعدوا كل عشرة سوية إلى المشنقة، وبينما كان العشرة الأوائل يمررون برؤوسهم في الأنشوطات المتحركة، كان العشرة التالون ينتظرون دورهم في وقفة الاستعداد قرب المناضد، والعشرة الآخرون يقفون على بعد خمس خطوات بانتظار دورهم. في الثامن من آذار التالي شنقوا تسعة عشر: وهذه المرة، تمت العملية في النفق، ولم يشهد عليها سوى فصائل النفق. تم وضع المعذبين التسعة عشر في صف أمام القاعة ٣٢، ثم انخفضت رافعة كبيرة مثبت عليها تسعة عشر حبلاً بهدوء، فوق رؤوسهم، وقام حارس المعسكر بتمرير الأنشوطات التسع عشرة المتحركة، ثم عادت الرافعة إلى الصعود ببطء شديد: يا للهول! كانت عيون الأشقياء تجحظ، وأقدامهم المسكينة تحاول أن تتلمس الأرض. وفي أحد الشعانين شنقوا سبعة وخمسين، وكان ذلك قبل ثمانية أيام من التحرير، وبينما كنا نسمع مدافع الحلفاء قريبة منا وقد عرفت الشرطة العسكرية أن نهاية الحرب وشيكة لا محالة.

وسار الأمر على هذا الشكل: كانت الشرطة العسكرية تكتشف بنفسها عدداً

ما من أعمال التخريب (ففي عام ١٩٤٥ ومنذ منتصف عام ١٩٤٤، كان من المستحيل على أي كان داخل أم خارج المعسكر أن يعيش دون أن يشترك في التخريب)، ولكن الإدارة الذاتية كانت تدل الشرطة العسكرية بلا رحمة على أعمال أكثر أيضاً. وقد تم فيما بعد أخذ فكرة صحيحة عما يمكن أن تكون هذه الإدارة الذاتية عليه، حين علمنا لدى التحرير وفي وهلة النقل من أجل إخلاء المعسكرات، كان يحيط بنا كل الألمان الذين كانوا يشاركون في هذه الإدارة حمراً كانوا أم خضراً. أقول كل الألمان، الذين كان ينظر إليهم الآخرون من روس وبولونيين وتشيكيين نظرات الحسد، إذ أن مهماتهم قد تم سحبها منهم مقدماً.

لا جدوى من الإسهاب في الحديث عن الخسارة في الأرواح البشرية! في أول حزيران، كان سكان المعسكر مكونين حصراً تقريباً ممن وصل في آذار أو بعد ذلك. كان من الممكن رؤية سبعة سجناء كانت أرقامهم بين ١٣٠٠٠ و١٥٠٠٠، وكانوا ثمانمائة حين وصلوا في ٢٨ تموز ١٩٤٣؛ ويمكن أن نعد اثني عشر في الأرقام ٢٠٠٠٠ و٢١٠٠٠. وكانوا ١٥٠٠ حينما وصلوا في تشرين الأول. ومن الثمانمائة الذين كانت أرقامهم في الثلاثين والحادي والثلاثين ألفاً بقي خمسون، ومن الألف ومائتين الذين تتراوح أرقامهم من ٣٨٠٠٠ إلى ٤٠٠٠٠ والذين وصلوا في شباط-آذار بقي ثلاثمائة أو أربعمائة. أما الذين يحملون الأرقام من ٤٥٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠ الذين وصلوا خلال شهر أيار فكانوا كاملين تقريباً: ولكن ليس إلى وقت طويل.

الفصل الرابع

ملجأ الرعاية، غرفة انتظار الموت

في ٢٨ تموز ١٩٤٣، حين وصلت القافلة الأولى إلى حقول الشوندر، على مدخل النفق، لم يفكر أحد في المستوصف. إذ لم يُرسل إلا سجناء من بوشنفالد معروفون بصحتهم الجيدة، ممن لا يتوقع أن يمرضوا فوراً: وفي الحال التي يقع فيها هذا الاحتمال مع ذلك. كان لدى الشرطة العسكرية الأمر بألا يراعوا إلا الحالات الخطرة، وأن يشيروا إليها ببريدهم وينتظروا القرار. وطبعاً، لم تكتشف الشرطة العسكرية عن أمراض خطيرة: وكل الذين كانوا عسكريين يفهمون ذلك بسهولة.

كان الجو سيئاً في تلك السنة. كانت تمطر وتمطر، وانتشرت أمراض الالتهاب الرئوي وذات الجنب، ووجدت لها مرتعاً خصباً بين هؤلاء، المستضعفين المهانين، الذين كان يصيبهم البلل طوال نهارهم، وكانوا، مساء، ينامون أيضاً في تجاويف الصخور الرطبة. بعد ثمانية أيام، أضحى الأشقياء متشنجين مما بدا للشرطة العسكرية أنها حمّى خفيفة متفاقمة في نهايتها، لسبب لم يدركوه. وكانت اللوائح تقضي بألا يعدّ السجين مريضاً إذا كانت حرارته دون ٣٩,٥ درجة مئوية، وفي هذه الحال يمكن الاستفادة من الاستراحة. وطالما أنه لم يبلغ تلك الدرجة من الحرارة، فهو مرغم على العمل، وحين يصل إليها، فإن الموت بانتظاره.

وجاء ما كنا ندعوه الزحار، الذي لم يكن في الواقع سوى إسهال لا يمكن مقاومته. ذات يوم، وبدون مبرر ظاهر، شاعت الاضطرابات الهضمية التي سرعان ما تحولت إلى حساسية مفرطة عامة: التغذية (ملفوف الروتاباغا المطبوخ على الدوام بالبخار، والخبز الرديء الصنف) وتقلبات الجو (مطر أو هبة ريح باردة خلال

الهضم). لم تكن هناك أدوية: كان عليهم انتظار توقف ذلك، دون طعام. كان ذلك يدوم ثمانية أيام، عشرة، خمسة عشر، وفقاً لقدرة المريض على المقاومة، والذي كان يضعف، وينتهي إلى الانهيار غير قادر على الحركة، حتى من أجل قضاء حاجاته، ثم يقضي نحبه بسبب الحمى ذات الصلة بذلك المرض. ولحسن الحظ كان هذا المرض يمكن كشفه على نحو أسهل من الالتهاب الرئوي أو ذات الجنب مما حدا بالشرطة العسكرية إلى اتخاذ تدبير لمقاومته في حدود الوسائل المتوافرة: أوعزوا ببناء كوخ، يقبل فيه المصابون بالإسهال بأدلة مبررة دون شرط ارتفاع الحرارة، وفي حدود الأماكن المتوافرة.

كان الكوخ يتسع لثلاثين شخصاً؛ وسرعان ما وُجد خمسون ثم مائة مرشح وأكثر، فقد كان العدد يزداد، باستمرار، كلما وصلت قوافل جديدة من بوشنڤالد، وكلما توسع المعسكر. وبصورة عامة كان المصابون بالإسهال يقبلون في المرحلة الأخيرة ليموتوا هناك. كانوا مكدسين على الأرض مباشرة، متشابكين بعضهم ببعض، ناسين أنفسهم في الإسهال. كان ذلك مرضاً سارياً إلى درجة جعل رجال الشرطة العسكرية، خوفاً على صحتهم، يختارون ممرضاً ليساعد المرضى على التغوط والمحافظة على نظافتهم، وعهدوا بالوظيفة إلى أحد ذوي الشارات الخضر -بطبيعة الحال!- نجار من حيث المهنة ومحكوم بجريمة قتل. وكان ذلك عملاً عجيباً!...

طوال الأيام، كان المرضى يقفون أرتالاً على باب الكوخ وكان الممرض بعصاه المطاطية في يده، يهدئ الذين نفد صبرهم. ومن حين إلى آخر كانت تخرج جثة من العفونة وتفسح مجالاً كان يؤخذ عنوة. وما انفك عدد المصابين بالإسهال يزداد. وبعد أن أدركت الشرطة العسكرية أن الممرض كان دون مستوى المهمة الملقاة على عاتقه، وادّعى هذا أنه كان وحيداً في عمل كثير، أضافوا إليه مساعداً حرصت الشرطة العسكرية أن يكون من ذوي الاختصاص. ورست الوظيفة على

طبيب هولندي كان حتى ذلك الحين يعمل في نقل التجهيزات من المحطة حتى النفق. ومنذ ذلك الحين، اتخذ الكوخ طابعاً إنسانياً، أصبح المرض شرطي مراقبة العمل، والهولندي يعمل بإمرته وهو يقوم بالأعاجيب من المهارة: نجح في إنقاذ مصاب بالإسهال وحرص على إخفاء شفائه ليحتفظ به سراً كممرض، وبمساعدة كمية كبيرة من الفحم تم القضاء على الإسهال. وعبَّرت الشرطة العسكرية عن رضاها، وأنه يمكن للكوخ أن يستخدم في مجال آخر: وولد المستوصف.

وتوصل الهولندي إلى الحصول على الموافقة على قبول حالات الالتهاب الرئوي وذات الجنب في الكوخ وبحدود الأماكن المتوافرة التي تخلّى عنها المصابون بالإسهال، وعلى أن تكون درجة الحرارة بدءاً من ٣٨ درجة مئوية، بعد جدال عنيف مع شرطي مراقبة العمل المرتبط به؛ حتى أنه زعم أنه بقليل من الفحم، يمكن معالجة المصابين بالإسهال معالجة فعالة دون دخولهم الكوخ، إذا تم ذلك في الوقت المناسب، وهكذا يمكن إفساح المجال للمصابين بالالتهاب الرئوي وذات الجنب. كان الصراع عنيفاً إلى أن قام أحد أطباء الشرطة العسكرية، وكان قد عُيِّن للمعسكر ووصل منذ شهر تشرين الثاني ضمن قافلة، وبعد أن مكث طويلاً غير مبال بهذا النزاع الذي كان يسلّيه، قام بإعطاء الحق إلى الهولندي. وبوشر ببناء مستوصف إذ سرعان ما أصبح الكوخ ضيقاً للغاية.

ثم جاء دور مرض التهاب الكلية. التهاب الكلية متلازم مع حياة المعسكر: سوء التغذية، الوقوف الطويل الأمد، نتائج التقلبات الجوية، الالتهاب الرئوي، ذات الجنب، ملح المناجم -وهو الوحيد الذي كان يوجد في ألمانيا - والذي كان يفرط الطباخون في استعماله، والذي يبدو ضاراً لعدم احتوائه على اليود. كانت الوذمات كثيرة، والجميع يشكون انتفاخ سيقانهم. وكان يقال:

- سيزول هذا: إن الملح هو السبب.

ولم يتم الحذر أكثر من ذلك، فحين يصاب أحدنا بوذمة خفيفة غالباً ما كانت

تزول، وحين تكون الوذمة ناجمة عن التهاب الكلي، فسيقضي عليه في يوم من الأيام بأزمة تسمم بولي.

ونال الهولندي الموافقة على أن المصابين بالتهاب الكلية يجب أن يعالجوا في المستوصف: وكان يجب إشادة بناء آخر.

ثم جاء دور المصابين بالسلّ، وهلم جراً.

وبلغ الأمر أنه في أول حزيران ١٩٤٤، كان المستوصف يضم الأبنية ١٦، ١٧، ٣٨، ٣٩، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨ وكلها مجمعة في قمة الهضبة، يمكن أن تتسع لألف وخمسمائة مريض، كل في سرير مستقل، مما يعادل عُشر سكان المعسكر. وكان كل بناء مقسوماً إلى قاعات حيث تتجمع الأمراض المتشابهة.

كان البناء ١٦ هو المقر الإداري لكل المستوصف، وكان الهولندي قد رقيّ إلى مرتبة رئيس الأطباء؛ وفي غضون ذلك بدّلت الشرطة العسكرية رئيس المعسكر ذا الشارة الخضراء بآخر ذي شارة حمراء، وحدثت بلبلة كبيرة في الإدارة الذاتية، وكان شرطي مراقبة العمل المكلف بالمستوصف أول ضحايا الرئيس الجديد: تم وضع الخطة لمفاجأته بينما كان يسرق أرزاق مرضاه، وتم إرساله إلى (إلريش) عقاباً له، وحلّ «پرول» محله.

كان پرول شاباً ألمانياً في السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين من عمره. في عام ١٩٣٤ كان يتهيأ لدراسة الطب، ولكن بما أنه كان شيوعياً ابن شيوعي، تم توقيفه وهو لم يزل يافعاً وعاش عشر سنوات في معسكرات مختلفة.

أرسل في بادئ الأمر إلى معسكر (داشو)، وكان الفضل لسنّه الشاب في أنه استطاع أن يبقى أمام ضروب القسوة في المعسكر الناشئ. لم تكن الشرطة العسكرية ولا السجناء، بوجه عام، يلجأون إلى الضراوة مع اليافعين، والسبب أن رجال الشرطة العسكرية كان لديهم شيء من التراجع أمام البراءة؛ أما السجناء فذلك ناجم عن حنان خاص ينعش لديهم الأمل في أن يصبحوا غلمانهم؛ وبفضل

هاتين الحالتين نجح پرول في أن يتسرب ممرضاً إلى المستوصف والبقاء فيه سنوات، ثم تم إرساله إلى معسكر (ماوتهاوزن) بصفته ذاتها، وتخلصت منه الإدارة الذاتية الخضراء في ماوتهاوزن لمصلحة معسكر (أوشفيتز) الذي أرسله في أول قافلة إلى (ناتسفايلر). وفي ناتسفايلر قضى أكثر إقامته؛ كان شرطي مراقبة العمل في فصيلة المعسكر ومساعداً لرئيس المعسكر. والسجناء النادرون حقاً الذين عرفوه في هذا المعسكر أجمعوا على أنهم لم يروا أحداً بفظاظته. وحدثت ثورة في الإدارة الذاتية في ناتسفايلر انتهت إلى إرساله إلى بوشنفالد حيث أرسل إلى دورا على أنه موثوق من الشيوعيين وشرطي مراقبة عمل المستوصف.

في دورا، تصرف پرول مثل الآخرين من شرطة مراقبة العمل، لا أحسن ولا أسوأ. وبذكائه نظّم المستوصف الناشئ برعاية الهولندي الذي كان يقدره على الرغم من كل شيء، لأنه مساعد لا غنى عنه نظراً لكفاءته. وبطبيعة الحال لم يكن ينصاع إلى وصايا الطب الأخلاقية، كان خشن الطبع. وفي تكوين جيش المرضين الذين يحتاجهم لضمان سير العمل، كان يفضل المؤهلات السياسية على المؤهلات المهنية. وهكذا كان الحدّاد هاينز، الذي كان شيوعياً والذي نجح في أن يتسرب إلى المستوصف في ظل سيادة شرطي مراقبة العمل الأخضر كرئيس للمرضين، موضع ثقته المطلقة دائماً خلافاً لرأي جميع الأطباء. وهكذا كان يفضل أي مراقب سجناء عادي، ألماني أو تشيكي أو روسي أو بولوني على طالب طب لا يتفق معه في آرائه السياسية. كان شديد الاعجاب بالروس وقليلاً بالتشيكيين الذين تخلى عنهم الانكلو-ساكسون والفرنسيون الذين يحتقرهم، لصالح هتلر. ولكنه كان قادراً على التنظيم من الطراز الأول.

في أقل من شهر، تم تصميم المستوصف على أسس المستشفيات الكبرى: في البناء ١٦، الإدارة والمداخل، والطوارئ؛ وفي الأبنيــة من ١٧ إلى ٣٩ الطب العام والتهاب الكلى والتهاب العصب؛ وفي ٣٨ الجراحة؛ في ١٢٦ الالتهاب الرئوي

وذات الجنب؛ في ١٢٧، ١٢٨ السل. في كل بناء طبيب مسؤول يساعده رئيس ممرضين؛ وفي كل قاعة ممرض من أجل العناية وآذن من أجل الخدمات المختلفة.

كان للمرضى أسرة ذات طابقين فقط مع فراش من نشارة الخشب وأغطية. وكان هناك ثلاثة أنظمة غذائية: غذاء كامل مشابه لغذاء المعسكر وهو من أجل المرضى غير المصابين بجهازهم الهضمي؛ حساء السميد الخالي الدسم (بدون خبز ولا مارغرين ولا سجق) من أجل أولئك الذين تستدعي حالتهم الصحية الحمية؛ حساء مرتين يومياً أحدهما محلى بالسكر وخبز أبيض ومارغرين ومربّى لأولئك الذين يحتاجون إلى مقوٍّ.

لا يمكن القول إن العناية كانت على خير ما يرام في المستوصف: لم تكن إدارة الشرطة العسكرية تخصص إلا القليل جداً من الأدوية؛ وكان پرول يقتطع من الحصة كل ما هو ضروري للإدارة الذاتية، ولا يترك مجالاً في أن يتسرب إلى المرضى أنفسهم إلا ما لم تكن هذه الإدارة تحتاج إليه. ولكن النوم كان على نظافة، وكانت هناك الاستراحة، والوجبة الغذائية، وإن لم تكن أجود نوعاً مما هي عليه في المعسكر، ولكنها متوفرة دائماً. كان پرول نفسه يحدد إنجاز مهمته كشرطي مراقبة العمل بزيارة، يقوم بها يومياً، مصحوبة ببعض الزمجرات والضربات الموزعة بسخاء على العاملين والمرضى الذين يضبطون متلبسين بجنحة مخالفة لوائح المستوصف. وكان من الممكن للحياة التي يعيشونها أن تكون متنافرة مع النظام المستبد في سائر المعسكر لو لم يكن الممرضون والآذنة يبذلون كل ما في وسعهم، سواء أكان ذلك عن اندفاع وإخلاص للتقاليد، أو خوفاً من شرطي مراقبة العمل، ليجعلوها تحتمل.

* * *

كل مساء، بعد التفقد، كانت تنتظم الجمهرة على مدخل البناء ١٦. والبناء

١٦ يتضمن فضلاً عن إدارة المستوصف إسعافاً خارجياً وإسعافاً داخلياً. الأول يبذل العناية المباشرة لكل المرضى أو المصابين بحوادث، الذين لا تتوفر فيهم الشروط التي يقتضيها دخولهم المستوصف. أما الثاني فيقرر بعد الفحص القبول في المستوصف أو عدم القبول بالنسبة للآخرين.

إذا استثنينا جماعة الإدارة الذاتية، فإن جميع سكان المعسكر مرضى، وفي الحياة العادية، يقبلون جميعاً في المستوصف دون استثناء ولا تردد، حتى ولو كان ذلك بسبب ضعف عام بالغ. وفي المعسكر تسير الأمور خلاف ذلك، فالضعف العام لا يحسب له حساب. فلا تتم معالجة إلا الذين تفاقم المرض عليهم وضمن شروط خارج نطاق العلاج، أو عندما لا يكون هناك وسيلة أخرى. وهكذا فإن كل سجين هو زبون مدعو تقريباً من المستوصف: وكان يلزمه دور يحين كل أربعة أيام وسطياً.

في البدء كانت الدمامل، كل المعسكر يشكو من تقيّحها، ومرض الدمامل الناجم عن غياب اللحم والخضار في الطعام يتحول إلى مرض مزمن مثل الوذمات الناجمة عن التهاب الكلية. ثم هناك جراح اليدين أو القدمين أو كليهما معاً؛ فالأحذية الخشبية تجرح، وبالأيدي التي يتمزق لحمها بسهولة يجب دائماً القيام بأعمال غير متوقعة! وهناك أخيراً الأصابع المقطوعة، الأذرع أو السيقان المكسورة، الخ... كل ذلك يشكل مرضى الإسعاف الخارجي؛ ومنذ أول حزيران ١٩٤٤ كان هذا يتعلق بالزنجي جوني الذي كانت أهليته كطبيب موضع جدل في مستوصف بوشنفالد على الرغم من الضمانات السياسية (١) التي قدمها، والذي أرسل إلينا مع إحدى القوافل. لقد أرسل باعتباره طبيباً، طبعاً، ولكن مصحوباً بمذكرة تنص

١- علمت فيما بعد أن جوني بلغ به المكر في حصوله أيضاً على حماية السلطة الألمانية. إن هذا السجين الذي كان يزعم أنه من أصل أميركي وكان طبيباً عاماً للمعسكر ارتكب عدداً من الابتزازات ليعد حين التحرير من مجرمي الحرب.

أنه من قبيل الحذر يجب استخدامه ممرضاً. ورأى پرول أن مكانه المناسب هو في الإسعاف الخارجي فسلمه مسؤوليته.

كانت بإمرة جوني سرية من المرضين الألمان أو البولونيين أو التشيكيين أو الروس الذين لا يعرفون شيئاً عن العمل الذي أسند إليهم والذين يضعون الضماد ويفكونه ويعيدونه مرة أخرى كيفما اتفق. وسواء كانت دمامل أم جروحاً فليس هناك سوى علاج واحد: المرهم. كان أمام هؤلاء السادة دلاء من المرهم من كل الألوان؛ كانوا يضعون لك، من أجل الحال ذاتها، كثيراً من الأسود في يوم، وفي يوم آخر الأصفر أو الأحمر، دون أن تتمكن من اكتشاف السبب الداخلي الذي حدّد اختيارهم. وكان حظنا عجيباً فجميع المراهم كانت مضادة للالتهابات.

في الإسعاف الداخلي، كان يتقدم الناس الذين لديهم أمل بأن يدخلوا المستوصف. كانوا يعدون كل مساء من خمسمائة إلى ستمائة، جميعهم مرضى، بعضهم مثل بعضهم الآخر. كان أحياناً يتوافر من عشرة إلى خمسة عشر سريراً: ضع نفسك مكان الطبيب الذي عليه أن يختار العشرة أو الخمسة عشر منتخباً... كان الآخرون يصرفون مع استراحة أو دونها. ويتقدمون في اليوم التالي وكل يوم حتى ينالوا نصيبهم في القبول: دون حساب الذين يموتون قبل أن يُبَتَّ في حالهم باتجاه رغبتهم.

عرفت بعض الموقوفين الذين لم يحضروا قط إلى الحمام الرشاش لأنهم كانوا يخشون أن تنضح الأجهزة بالغاز(١) بدلاً من الماء: وذات يوم، وخلال

١- إن غُرف الغاز التي نَفَتْ وجودها جماعة الشرطة العسكرية الألمانية، التي برهن على صحة وجودها البعض الآخر؛ كما ورد في الملاحظات أو (الاعتراضات) التي قدمتها مدام سيمون دو بوڤوار؛ هي غير موجودة في معسكر (دورا Dora) كما أنها غير موجودة في معسكر (بوشنفالد Buchenwald) قد نوهت فيما سلف من الكتاب عن كل أولئك الذين أسهبوا في شرح التفاصيل الرهيبة لهذا النوع من التعذيب، والذي هو مشروع مع ذلك في الولايات المتحدة... فإنه وحسب معرفتي الخاصة لا يوجد أي شاهد عيان عن هذا الموضوع. (انظر الفصل الرابع).

زيارتهم الأسبوعية إلى البناء وجد المرضون فيهم قملاً... فأخضعوهم، باسم التعقيم، إلى معالجة ماتوا بسببها. وبالطريقة نفسها، عرفت من لم يتقدم قط إلى المستوصف: كانوا يخشون أن يكونوا موضع تجارب أو يوخزون بالحقن، وتماسكوا تماسكوا، تماسكوا تجاه وضد كل النصائح، وذات مساء جاءت فصيلتهم بجثتهم إلى ساحة التفقد.

لم يكن في دورا بناء لمن تُجرِ التجارب عليهم ولم يكن يمارس الحقن بالإبر. وبوجه عام، وفي كل المعسكرات، لم يكن الحقن مستخدماً مع عامة الموقوفين، ولكن من إحدى فئتي الإدارة الذاتية ضد الأخرى: كان الخضر يستخدمون هذه الوسيلة للتخلص بلباقة من أحد الحمر الذي يرون أن نجمه في صعود في سماء الشرطة العسكرية، والعكس بالعكس.

* * *

حدثت مصادفة سعيدة جعلتني أدخل المستوصف في ٨ نيسان ١٩٤٤؛ وكان قد مضى علي ما يزيد على خمسة عشر يوماً وأنا أُجرجر في المعسكر جسماً محموماً يتورم بسرعة.

كان التورم قد بدأ في الكاحلين، ونهرني شرطي مراقبة العمل المسؤول عني:

- وأنا أيضاً، أيها الكلب الأحمق.

وكان عليّ أن أستمر في تحميل العربة القلاّبة لبناء الطريق ٥٢. وذات صباح اضطررت للمثول في ساحة التفقد وبنطالي على ذراعي، إذ لم أتمكن من أن ألبسه؛ وقال ذلك الشرطي:

- يا لك من كلب أحمق، أنت مجنون، امض إلى المستوصف، وأكّد على هذا الأمر ببضع لكمات عنيفة بقبضته. وكان ذلك في ٢ نيسان.

وفي المستوصف وجدت نفسي في الحشد، وبعد ساعة من الانتظار، جاء دوري لأمر أمام الطبيب:

– حرارتك ٣٧,٨ درجة فقط، من المستحيل إدخالك إلى المستوصف، معك ثلاثة أيام استراحة، ابق ممدداً في البناء، وساقاك إلى الأعلى، وسينتهي كل شيء، وإذا لم ينتهِ، عد.

فيما يخص الاستراحة، قضيت ثلاثة أيام مستخدماً في أعمال تنظيف البناء بتكليف من رؤساء الغرف الذين لا يرحمون. وفي نهاية الفترة، تقدمت وأنا في حال خطيرة ظاهرة. وقال لي الطبيب:

– يجب دخولك المستوصف، لا ريب في ذلك، ولكن ليس هناك سوى ثلاثة أماكن شاغرة، وأنتم ثلاثمائة مرشح على الأقل، وبينهم من هو أسوأ منك حالاً. خذ ثلاثة أيام استراحة وبعد ذلك ستعود...

وأحسست في داخلي أن مصيري إلى محرقة الجثث لا محالة. وعدت مستسلماً إلى البناء حيث كان ينتظرني طردي الأول الذي حصلت بفضله من رؤساء الغرف على أن يدعوني متمدداً على سريري بدلاً من استخدامي في أعمال السخرة.

في الثامن من نيسان حين جاء دوري في المثول، كانت علبة سجائر غولواز كافية لتصنيفي بين الثلاثة أو الأربعة المختارين، والأسوأ في الحال التي كنت عليها، أني لم أجد هذا العمل شاذاً.

وقبل أن أصل إلى سريري المخصص لي، كان عليّ أن أودع أيضاً في المدخل حذائي وثيابي التي تمت سرقتها، بطبيعة الحال، خلال إقامتي، كما كان عليّ أن أمر تحت حمام رشراش، حرص آذن بولوني أن يكون بارداً بقدر المستطاع.

كان الحمام الرشراش آخر إجراء علي إنجازه. كان من المتوقع أن يكون

ساخناً، ولكن حين لا يكون المريض تشيكياً أو بولونياً أو ألمانياً فإن الآذن يقسم بأغلظ الأيمان أن الجهاز كان معطلاً. إن عدد الذين دخلوا المستوصف بمرض الالتهاب الرئوي أو ذات الجنب والذين ماتوا بسبب ذلك لا يحصى.

أمضيت ست إقامات في المستوصف: من ٨ إلى ٢٧ من نيسان، ومن ٥ من أيار إلى ٣٠ من آب، ومن ٧ من أيلول إلى ٢ من تشرين الأول، ومن ١٠ تشرين الأول إلى ٣ من تشرين الثاني، ومن ٦ من تشرين الثاني إلى ٢٣ من كانون الأول، ومن ١٠ من آذار ١٩٤٥ حتى يوم التحرير. ومنذ الإقامة الأولى غاب فرنان عن ناظري إذ أنه أرسل في قافلة إلى (إلريش) حيث مات....

كنت مريضاً، وكان ذلك واضحاً تماماً، كان مرضي شديداً وما زال أيضاً، ولكن...

* * *

الحياة في المستوصف منتظمة بدقة.

كل يوم، كان الاستيقاظ في الساعة الخامسة والنصف، أي بعد ساعة من استيقاظ المعسكر. الاغتسال: مهما كانت زمرة المرضى سواء أكانت حرارتهم ٤٠ْ أم ٣٧ْ، يجب النهوض والذهاب إلى المغسلة، ثم العودة لترتيب السرير؛ ومن حيث المبدأ يتواجد الممرض والآذن لمساعدة من لا يستطيعون ذلك، ولكنهما يكتفيان دائماً، ما عدا بعض الحالات الاستثنائية، بإجبار المرضى، بالتهديد بالضرب، أن يقوموا بأنفسهم بهذه الأعمال.

وحين يتم هذا العمل الأول، يقيس الممرض الحرارة، بينما يقوم الآذن بشطف القاعة.

حوالي الساعة السابعة، يمر طبيب البناء بين الأسرّة. ويرى جدول الحرارة، ويصغي إلى ملاحظات الممرض، وشكاوى المرضى، ويقول كلمة لكل منهم ويوعز

بالمعالجات الخاصة أو الأدوية المقرر أخذها خلال اليوم. وإذا لم يكن الطبيب بولونياً ولا ألمانياً ولا تشيكياً فهو بصورة عامة رجل طيب ومتفهم. قد يكون ذا ثقة عمياء في المرض الذي يقدر المرضى وفقاً لآرائهم السياسية أو جنسياتهم أو مهنهم أو الطرود التي يتلقونها، ولكنه نادراً ما يقع تحت تأثيره في الاتجاه الخطأ.

وقد يخاطر أحد الذين أضناهم المرض بالسؤال:

- إلى محرقة الجثث؟

- نعم في غضون ثلاثة أو أربعة أيام.

وينطلق الضحك، ويمضي الطبيب دون اهتمام بالأثر الذي تركته إجابته على صاحب العلاقة، ويصل إلى السرير الأخير، ويغادر القاعة، وينتهي كل شيء، ولا يراه أحد طوال النهار: إلى الغد.

في الساعة التاسعة، توزيع الأدوية، ويمر ذلك بسرعة؛ والأدوية هي الاستراحة أو الحمِية- ومن حين إلى آخر قرص أسبيرين أو بيراميدون يخصصان بشحّ زائد.

في الساعة الحادية عشرة، الحساء، يتناول الممرض والآذن الطعام بوفرة، ويتصرفان بكل مخصصات الحمية ويوزعان الباقي على المرضى، ولم يكن الأمر خطيراً، إذ يبقى ما يكفي لوجبة نظامية نزيهة للجميع، بل لإعطاء إضافة بسيطة للأصحاب.

بعد الظهر: القيلولة حتى الساعة السادسة عشرة، وبعدها تأخذ الأحاديث مجراها حتى موعد قياس الحرارة وإطفاء النار. ولا تنقطع إلا حين تسترعي انتباهنا بصورة خاصة أرتال الجثث التي تحملها فصيلة الموتى إلى محرقة الجثث والتي تمر تحت نوافذنا.

كان بعض ذوي الحظوة، وأنا منهم، يتلقون الطرود: كانت هذه الطرود تتعرض للسلب أكثر من المعسكر لأنها كانت تمر على وسيط آخر قبل أن تصل إلى

المرسلة إليـه: لم يكن يسلم التـبغ الذي تحـتـويه: كـان يودع في المدخل، ولكن المرضين كانوا يلجأون إلى التوفيق باستخدامهم إعادة توزيع نزيه، وبالتقسيم العادل يمكن الحصول على التبغ مع السماح بالتدخين سراً؛ وبالأسلوب نفسه، وتقاسم الباقي، يمكن إقناع المرض بتزوير درجات الحرارة لإطالة الإقامة في المستوصف.

في الصيف، كانت القيلولة تتم في الهواء الطلق تحت شجرات الزان: وكانت الفصائل التي تعمل داخل المعسكر تنظر إلينا بحسد، وكنا بشكل خاص نخشى ساعة الشفاء التي ستعيدنا إليهم.

* * *

منذ تشرين الأول ١٩٤٤، لم يعد يقبل إلا فيما ندر المصابون بالإسهال في المستوصف: كل مساء، كانوا يتقدمون إلى البناء ١٦ فيلقمونهم الفحم ويصرفونهم. وقد يزول المرض، ولكن قد يستمر أيضاً أكثر من الأيام الثمانية المتوقعة، ويتفاقم بنوع من الحمى، حينئذ كانوا يقبلون في المستوصف وضمن الحدود التي تسمح بها الظروف من جميع النواحي.

كانوا يتجمعون في البناء ١٧، القاعة ٨، حيث كان المرض الروسي إيفان الذي يدعي أنه متخرج من كلية الطب في خاركوف، والآذن البولوني شتادجك. والقاعة ٨ هي جحيم المستوصف: كل يوم كانت تزود محرقة الجثث باثنين أو ثلاثة أو أربعة.

كان الطبيب يوعز، من أجل كل مصاب بالإسهال مقبول هناك، عدا الفحم، بنظام حِمْية مراقب، قليل من الطعام، وإن أمكن لا شيء، ولا شراب، كان يشير على إيفان بألا يعطي شيئاً في اليوم التالي، وهكذا بالتدريج حتى العودة إلى الوجبة الكاملة التي تترافق مع زوال المرض. ولكن إيفان كان يعدّ نفسه ممرضاً

من أجل العناية بنفسه وليس بالمرضى: كانت المتابعة عملاً شاقاً بالنسبة إليه. بالإضافة إلى أنه في معسكر اعتقال؛ وهكذا رأى أن من الأسهل تطبيق الحمية المطلقة، وأن يتقاسم مع شتادجيك وجبات المرضى، وأن يتغذيا بوفرة، وأن يتاجرا بالفائض. إذن لم يكن التعساء يأكلون شيئاً: في اليوم الثالث، كانوا، باستثناء ما ندر منهم، في حال لا يستطيعون فيها النهوض، فيفعلونها تحتهم، إذ أن شتادجيك لم يكن على استعداد لإحضار الطست حين يطلبونه، ومنذ ذلك الحين يحكم عليهم بالموت...

لا يفتأ شتادجيك عن مراقبة سرير التعس الذي رفض أن يجلب الطست إليه، على وجه الخصوص؛ وفجأة يشم الرائحة ويستشيط غضباً. كان يبدأ بكيل الضربات المتصلة للمذنب، ثم يخرجه من سريره، ويدفع به إلى المغسلة المجاورة وهناك الحمام الرشراش الشديد البرودة؛ ذلك أن المستوصف يجب أن يبقى مكاناً نظيفاً، والمرضى الذين لا يرغبون بالاغتسال ينبغي إجبارهم على ذلك، ثم كان ينزع أغطية السرير وهو يصب اللعنات، ويبدل فراش القش: وما يكاد المريض يتمدد حتى يعاوده الإسهال، ويعود إلى طلب الطست ويرفض طلبه، ويفعل تحته، ويقاد مجدداً إلى الحمام البارد، وهكذا دواليك، وبوجه عام كان يموت خلال أربع وعشرين ساعة.

كانت تسمع صرخات وتوسلات التعساء الذين كانوا يدفعون إلى الحمام البارد من قبل البولوني شتادجيك، صباح مساء، وقد يمر شرطي مراقبة العمل أو أحد الأطباء مرتين أو ثلاثاً خلال العمليةويفتحان الباب فيوضح لهما شتادجيك:

– لقد لوّث سريره تماماً بالبراز!... إن هذا الكلب الأحمق كسول جداً!... وليس لدي ماء ساخن.

وكان الشرطي أو الطبيب يعيدان إغلاق الباب وينصرفان دون أن ينبسا ببنت شفة.

ذلك أن التوضيح لم يكن يقبل الطعن: حقاً يجب تغسيل المرضى العاجزين عن القيام بذلك بأنفسهم، وحين لا يتوافر الماء الساخن....

* * *

في المستوصف، كنا على اطلاع تقريباً بأحداث الحرب. كانت تصل الصحف الألمانية ولا سيما (الفولكيش بيوبوختر). وكان الجميع يصغون بانتظام إلى الإذاعة؛ ومن البديهي أنه لم تكن هناك سوى الأخبار الرسمية، ولكننا كنا نحصل عليها بسرعة، وهكذا كان الأمر.

وكنا على اطلاع بما يحدث في المعسكرات الأخرى. كان الأشقياء الذين دخلوا معسكرين أو ثلاثة قبل أن يرسلوا إلى معسكر دورا، يروون على امتداد النهار الحياة التي عاشوها هناك، وهكذا عرفنا أهوال معسكرات (زاخزنهاوزن) و(أوشفيتز) و(أورانينبرغ) وغيرها.

وهكذا عرفنا أن هناك أيضاً معسكرات بالغة في الإنسانية. في آب، ولفترة عشرة أيام، كان الألماني هيلموت جاري في السرير، كان قد وصل مباشرة من (ليشتنفلد) قرب برلين. كانوا تسعمائة في هذا المعسكر المحروس من قوة المقاومة. كانوا يقومون بإزالة أنقاض الضواحي التي تمت الإغارة عليها: اثنتا عشرة ساعة عمل، مثلهم مثل الجميع، ولكن ثلاث وجبات وافرة (حساء، لحم، خضار، ونبيذ غالباً)، لا شرطة مراقبة عمل، ولا إدارة ذاتية، وبالتالي ليس هناك ضرب. حياة قاسية ولكنها محتملة جداً. وذات يوم طلبوا اختصاصيين، وكان هيلموت خرّاطاً، فنهض فأُرسِل إلى نفق دورا، وسلموه جهاز ثقب الصخرة، وبعد ثمانية أيام كان يبصق دماً.

وقبل ذلك، شاهدت سجيناً إلى جانبي، كان قد أمضى شهراً في (ڤيدا)، وقد روى لي أن الشاغلين الألف وخمسمائة الشاغل لذلك المعسكر لم يكونوا على درجة

كبيرة من الشقاء. بطبيعة الحال، كانوا يشتغلون، ويأكلون القليل، ولكنهم كانوا يعيشون أسرة واحدة: كان سكان القرية يأتون كل يوم أحد بعد الظهر ويرقصون على مقربة من المعسكر على أنغام اكورديونات المعتقلين، ويتبادلون الأحاديث الودية معهم، حتى أنهم كانوا يجلبون لهم مؤونة الطعام. ويبدو أن ذلك لم يدم طويلاً، إذ أن الشرطة العسكرية أدركت ذلك، وفي أقل من شهرين أصبحت ڤيدا مثل دورا في قسوتها ولا إنسانيتها.

بيد أن أغلب القادمين من جهات أخرى لم يرووا إلا الأهوال. وكان أكثرهم عرضة لمثل هذه الأهوال جماعة (إلريش)؛ فقد وصلوا إلينا في حال لا يمكن تصورها، وما إن تنظر إليهم حتى تقتنع بأنهم لا يبالغون في شيء. حين يتم الحديث عن معسكرات الاعتقال يتم الاستشهاد بمعسكرات بوشنڤالد وداشو وأوشڤيتز؛ وليس هذا عدلاً؛ ففي عامي ١٩٤٤-١٩٤٥ كان إلريش أسوأها جميعاً، إذ لم يكن هناك سكن ولا لباس ولا غذاء، ولا مستوصف، ولا يتم الاستخدام إلا في أعمال تعبيد الطرقات تحت مراقبة حثالة جماعة الشارات الخضراء والشرطة العسكرية.

في المستوصف، تعرّفت بجاك غالييه الملقب بجاكي وهو مهرج في سيرك ميدرانو. كان من أقسى الناس، وحين كانت تثور الشكوى من ألوان قسوة الحياة في المعسكر كان يجيب على الدوام:

- أنا، وأنت تدرك، قضيت عامين ونصف في كالڤي (في كورسيكا) وهكذا فأنا معتاد.

وكان يضيف:

- يا صاح، إن الأمر نفسه في كاڤي، العمل نفسه، ونقص الغذاء نفسه، ولكن كانت هناك القيود الحديدية، وهكذا...

وكان شامپال، بحار البحر الأسود، الذي أمضى خمس سنوات في كليرڤو

(فرنسا) يكذبه بعد مشقة، أما أنا الذي كنت فيما مضى شاهداً على حياة جنود سرية التأديب في افريقيا. كنت أتساءل كم كانا على حق(١).

* * *

في ٢٣ من كانون الأول، خرجت من المستوصف وقد عزمت أمري نهائياً على ألا أضع فيه قدمي بعد ذلك. وكانت قد جرت أحداث مختلفة.

ففي تموز حقن برول نفسه في ذراعه بسيانور البوتاسيوم. ولم يعرف أحد السبب: راجت الإشاعات أنه كان على أهبة توقيفه ثم شنقه من أجل مؤامرة. ووضعوا بدلاً منه هاينز، الحداد الشيوعي.

كان هاينز فظاً؛ ذات يوم فاجأ أحد المصابين بالحمى ممن حُرِّم عليهم الماء يبلل شفتيه فأوسعه ضرباً مما أدىّ إلى وفاته، كان جديراً بكل شيء، في بناء الجراحة تعاطى جراحة عملية الزائدة -دون علم الجراح المسؤول، التشيكي تشسپيڤا... وقد رُوي أنه في الأيام الأولى لإنشاء المستوصف، في ظل شرطي مراقبة العمل الأخضر، عالج أحد الجزائريين الذي سحقت ذراعه بين مقطورتين في النفق: جرّد العظام لدى مفصل الكتف، كما يفعل أي جزار في كتف خنزير، وبدلاً من تخدير ضحيته، انهال عليه أولاً باللكمات، وبعد سنة من ذلك كان المستوصف لا يزال يردد أصداء صياح الرجل التعس.

كانت أمور أخرى تروى أيضاً. ودائماً لم يكن المرضى يشعرون أنهم في أمان معه. وفيما يتعلق بي، فقد حدث ذات يوم في نهاية أيلول، بينما كان ماراً قرب سريري، برفقة تشسپيڤا، قرر أنه من أجل شفائي يجب استئصال كليتي اليمنى، وحالاً رجوت أحد رفاقي المصابين بمرض آخر أن يبول عوضاً عني، وحصلت على

١- في كتابه «حثالة الأرض» رسم ارتور كرستلر لوحة عن الحياة في معسكرات الاعتقال الفرنسية أيدت، فيما بعد، وجهة نظري وكذلك كتاب جوليان بلان، «يا جنود سرية التأديب أعدوا عدتكم».

تحليل سلبي، مما كلفني، وهذا ما كنت أرغب فيه، أن أعود إلى إحدى الفصائل. ونظراً لعدم تحملي مشقة العمل، تقدمت إلى المستوصف بعد بضعة أيام –تعادل الفترة الكافية لزوال العاصفة– وتمت إعادة قبولي بسهولة.

وسار كل شيء على ما يرام حتى شهر كانون الأول، في الوقت الذي أوقف فيه هاينز بدوره، من أجل مؤامرة، مثل سلفه، ووضع أحد البولونيين بدلاً عنه. وتم القبض في الشبكة نفسها على تشيسبيڤا، وعدد من المرضين، منهم المحامي بوايه من مارسيليا، وشخصيات مختلفة من المعسكر. ولم يُعرف السبب، ولكن من المحتمل أن يكون إشاعة أخبار عن الحرب قالوا إنها من إذاعات أجنبية، كان يُصغى إليها سراً وكانت الشرطة العسكرية تراها هدّامة.

ومع شرطي مراقبة العمل الجديد، تم غزو المستوصف من قبل البولونيين، كما تم وضع أطباء جدد على رأس الأبنية، وكان طبيبنا بولونياً جاهلاً. وقرر منذ وصوله أن التهاب الكلى ناجم عن سوء في ترتيب الأسنان وأوعز بخلع كل أسنان جميع المصابين بالتهاب الكلى. واستدعي طبيب الأسنان على الفور وبدأ بالتنفيذ دون أن يدري السبب ولكن باستغراب واحتجاج. ومن أجل إنقاذ أسناني، جهّزت نفسي مرة أخرى للخروج من المستوصف مع بطاقة (عمل خفيف).

من محاسن المصادفات المنقطعة النظير أني عُينت جندياً وصيفاً للمساعد الأول في الشرطة العسكرية المسؤول عن سرية الكلاب.

ولدى عودتي إلى الحياة العامة، وجدت المعسكر قد تبدل تبدلاً ملموساً.

الفصل الخامس

الانهيـــــار

ما حدث بعد ذلك ليس ذا أهمية تذكر.

كان معسكر دورا في كانون الأول ١٩٤٤ معسكراً كبيراً، ولم يعد مرتبطاً بمعسكر بوشنفالد؛ ولكن إلريش وهارتسونغن وإيلفلد، إلخ... من المعسكرات التي كانت على طريق البناء، مرتبطة به. كانت القوافل تصل إليه مباشرة، كما كان عليه الأمر من قبل في بوشنفالد، كانوا يعقمون ويرقّمون ويوزعون على المعسكرات الفرعية، وتجاوزت الأرقام التي اتخذت المائة ألف. كل مساء كانت السيارات الشاحنة تنقل جثث المعسكرات الفرعية ليتم حرقها في محرقة الجثث. والعجلة تدور.

تم إنجاز البناء ١٧٢: وتم تشغيل المسرح -(السينما) والمكتبة من أجل جماعة الإدارة الذاتية ومحاسيبهم؛ «النساء اللواتي أقمن منذ بضعة أشهر في الماخور يلبين حاجات الزبائن أنفسهم. كانت الأبنية مريحة: الماء يصل إليها، والإذاعة أيضاً. كانت الأسرة في مكانها دون ملاءات ولكن بفرش من القش وأغطية كانت فترة الضغط قد مرت، ولم تعد متطلبات الشرطة العسكرية كما كانت عليه من قبل. كان هدفهم وهو ضبط المعسكر، قد تحقق؛ ولكنهم كانوا أكثر حذراً من الحياة السياسية، فيتمسكون بمؤامرات خيالية، ويطاردون أعمال التخريب التي كانت حقيقية وعديدة.

هذه التحسينات المادية لم تفلح، مع ذلك، في خلق الطمأنينة الموعودة لدى كتلة الموقوفين: لم تتبدل عقلية جماعة الإدارة الذاتية، وكما لو أن رجال الكهوف يريدوننا أن نحيا في الأبنية الحديثة، حياتهم التي عاشوها في زمانهم. كانوا

يستبسلون في أن يجعلونا نحيا حياة قريبة قدر الإمكان من تلك التي عرفوها في بدايات المعسكرات. وهكذا حال الدنيا.

في ليل ٢٣-٢٤ من كانون الأول، قامت إحدى الفصائل، في ظل الضرب بالهراوات، بتركيب شجرة عيد ميلاد عملاقة في ساحة التفقد، كانت تتألق بأنوارها المتعددة الألوان، في الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم التالي، لحظة التجمع من أجل الانطلاق إلى العمل. ومنذ ذلك اليوم وحتى عيد الغطاس، كان علينا أن نستمع كل مساء خلال التفقد إلى نشيد (أوتاننباوم) من عزف فصيلة الموسيقى قبل الانصراف من الصف.... وكان الإنصات بخشوع فريضة لا يمكن التملص منها دون المغامرة بتلقي اللكمات.

فيما يتعلق بالطمأنينة، دخل عاملان غير متوقعين على الخط: فالتقدم المتزامن للروس والانكلو-ساكسون تسبب في إجلاء نزلاء المعسكرات الواقعة شرقاً وغرباً إلى دورا، كما أن الغارات التي ما برحت تزداد كثافة عرقلت التموين العادي.

ومنذ كانون الثاني لم تنفك قوافل الذين تم إجلاؤهم عن الوصول في حال يعجز عنها الوصف. كان المعسكر المصمم من أجل خمسة عشر ألفاً يعج بخمسين ألفاً وما يزيد على ذلك أحياناً. كان ينام اثنان أو ثلاثة في السرير الواحد. ولم نعد نتناول الخبز، إذ أن الطحين لم يعد يصل: كنا نتناول عوضاً عنه حبتين أو ثلاث حبات صغار من البطاطا. جراية المارغرين والسجق انخفضت إلى النصف؛ كانت المخازن تفرغ من محتوياتها بمقدار ازدياد السكان، وجرى الحديث عن الاقتصاد وعلى توزيع نصف ليتر من الحساء بدلاً من ليتر واحد. لم يعد هناك ثياب لتحل محل الثياب التي لم تعد صالحة للاستعمال: لم تعد برلين ترسل شيئاً، لم تعد هناك أحذية: كان يتم استخلاص الأجزاء الأحسن حالاً من القديمة وقس على ذلك.

على صعيد العمل، أصبح المعسكر منشأة حقيقية للتخريب. لم تعد تصل

المواد الأولية إلى النفق فأصبح العمل يسير ببطء. إنه الشتاء، ولا جدوى من طلب الألواح الزجاجية لتحل محل الألواح المحطمة: لم تكن توجد، ولكن أي سجين كان يحصل على واحد منها من النفق. ولم يكن أيضاً هناك دهان من أجل طلي وصلات البناء: كان رئيس البناء المحتاج يسرقه من أحد مستودعات زاڤاتسكي بواسطة أحد محاسبيه.

ذات يوم احتاج الأمر أسلاكاً كهربائية من أجل صنع صواريخ (ف١) و (ف٢): كان جميع سجناء النفق قد سرق كل منهم متراً ليجعلوا منها أربطة لأحذيتهم. وفي يوم آخر، كان يجب تركيب طريق سكة حديدية إضافية؛ منذ سنة على الأقل، كانت العوارض الخشبية اللازمة موجودة ومكدسة قرب المحطة، وكانت الإدارة الذاتية تعتقد أنها ما زالت هناك فأوعزت أخيراً ببناء السكة، إذ لم يكن بالإمكان القيام بأمر آخر: وتبين حينئذ أن العوارض قد اختفت، وكشف التحقيق أنه لدى قدوم الشتاء قام المدنيون بوساطة السجناء بنشرها واحدة إثر الأخرى ونقلها شيئاً فشيئاً في أكياسهم لسد عجز حصصهم من وسائل التدفئة التي لم تعد توزع عليهم لأنها لم تعد تصل. فرضت بعض العقوبات وأوصي على عوارض وبعد بضعة أيام تلقوا جيروسكوبات.

لم تكن تحصى أعمال التخريب في النفق: وقضت الشرطة العسكرية أشهراً حتى أدركت أن الروس جعلوا عدداً كبيراً من صواريخ (ف١) و (ف٢) غير صالحة للاستعمال، ذلك أنهم كانوا يبولون في أجهزتها اللاسلكية الكهربائية. لم يكن الروس سادة في النهب فحسب، بل كانوا أيضاً سادة في التخريب وكانوا عنيدين، لا يثنيهم شيء عما أرادوا، وهكذا كانوا أكثر الناس عرضة للشنق، وهناك سبب آخر لشنقهم، فقد نجحوا في ضبط أسلوب للفرار.

قلة هم السجناء الذين فكروا بالفرار من دورا. وأولئك الذين حاولوا ذلك عثرت عليهم الكلاب. وبوجه عام، لدى الفرار، ولكن بجريمة حرب، إذ أنه من النادر

عدم التمكن من أن يلصقوا بهم سرقة ارتكبت في أحد المواضع التي مروا بها. ولتجنب هذا المعوق ابتكر الروس أسلوباً آخر: كانوا يختبئون في يوم من الأيام في المعسكر -تحت بناء مثلاً- فيفتشون عنهم في كل مكان خارج المعسكر، وبطبيعة الحال لا يرونهم: وهكذا وبعد ثمانية أيام يكفون عن البحث. حينئذٍ يخرجون مع إحدى الفصائل ويفرون حقاً مع حظ كامل في النجاح إذ لم يعودوا يبحثون عنهم.

وفسد كل شيء في أحد الأيام الذي أجرى المحاولة فيه عدة أشخاص بدلاً من شخص واحد، وكانوا عشرة -على ما أعتقد- لم تعد الشرطة العسكرية تحتمل أن تكون مخدوعة، فجاءتها الفكرة، تجاه هذا الفرار الجماعي، أن تجمع كل نزلاء المعسكر في ساحة التفقد، وأن تطلق الكلاب إلى الداخل: وفي زمن أقل مما يحتاجه قول ذلك، تم القبض على الروس وانكشف أمر هذه الوسيلة(١).

ويبدو أن التخريب قد وصل إلى الميادين الأعلى من حيث المستوى: كانت صواريخ (ف١) و (٢)، قبل استخدامها تتم تجربتها، وما كان فيه خلل يرسل إلى هاوتسونغن من أجل فكّه ومراجعته. إذاً كانوا في هارتسونغن يفكونها، ويضعون القطع المختلفة في رزمة مخصصة لهذا الغرض، ويعاد إرسالها إلى دورا حيث يعاد تركيبها بالطريقة نفسها. وقد حصل أن ثلاثين صاروخاً ما فتئت تُركب وتُفك وتروح وتغدو بين هارتسونغن ودورا ومكان التجربة.

وطفح الكيل لدى إدارة دورا واحتارت في أمرها. كان في مدخل النفق، في دورا، شبه مخزن فيه كل القطع غير المستعملة: عزقات، مسامير، شفرات فولاذية، براغي من جميع الأصناف، الخ... وكانت فصيلة خاصة ممن يسند إليهم العمل الخفيف مكلفة بفرز كل هذه القطع وترتيبها حسب أنواعها: فيضعون المسامير في

١- لم أر هذه الظاهرة تحدث إلا مرة واحدة وذلك قبل بضعة أسابيع من التحرير.

صندوق، وفي صندوق آخر البراغي، وفي صندوق ثالث الشفرات الفولانية. وحين تمتلئ الصناديق كافة، يوعز شرطي مراقبة العمل بإفراغها في مقطورة كيفما اتفق؛ وحين تمتلئ المقطورة تُربط بقطار يمضي إلى جهة مجهولة، وبعد يومين ترسو في مدخل (إلريش) حيث أرسلت لتفرغ وتفرز؛ وتقوم الفصيلة المكلفة بهذا العمل بنقلها في عربات تجر بالأيدي إلى مخزن دورا وتفرغها كيفما اتفق. وهكذا فإن هناك كومة من النفايات لا تنفك تفرز بجدية في نهايتي النفق.

وهكذا من أحداث إلى أحداث، ومن غارات إلى ندرة في الطعام، ومن مؤامرات مزعومة إلى تخريب وشنق، وصلنا إلى يوم التحرير.

عشت هذه الفترة برمتها وأنا جندي وصيف لدى المساعد الأول قائد سرية الكلاب: عمل سهل يقتصر على تلميع حذائه، وتنظيف ثيابه بالفرشاة، وترتيب سريره، والمحافظة على غرفته ومكتبه في حال من النظافة التي تبلغ درجة الوسواس، وجلب وجباته من مقصف الشرطة العسكرية، وكان ينتهي عملي كل صباح في الساعة الثامنة، فكنت أقضي باقي النهار في الثرثرة يميناً ويساراً، وتدفئة نفسي قرب النار، وقراءة الصحف، وسماع الإذاعة. وكان طباخ الشرطة العسكرية، في الوقت نفسه الذي يعطيني فيه حساء معلمي، في كل وجبة كان يعطيني خلسة القدر نفسه لي. أضف إلى ذلك أن جماعة الشرطة العسكرية الثلاثين الذين يشغلون البناء كانوا يستخدمونني بين الفينة والأخرى في أعمال بسيطة مثل غسيل قصعاتهم، وتلميع أحذيتهم، وكنس غرفهم،إلخ... وبالمقابل، كانوا يعطونني بقايا طعامهم التي كنت أذهب بها كل مساء إلى المعسكر من أجل الرفاق، كانت الحياة وادعة.

هذا الاحتكاك المباشر بالشرطة العسكرية جعلني أراهم بمنظار مختلف عما يبدون في المعسكر. لا مجال للمقارنة: على الصعيد العام، كانوا غلاظاً، ولكنهم

على الصـعـيـد الفـردي كـان واحـدهم بوداعـة الحـمل. كـانوا ينظرون إليّ بفـضـول، ويسـألونني، ويتـحـدثون إلي بودّ، ويرغـبـون في مـعـرفـة رأيي حـول نهـاية الحـرب ويأخذونه في الاعتبار: كانوا جميعاً أناساً -عمال مناجم سابقين، عمال مصانع سـابقين، طيّانين سـابقين، إلخ... كـانوا عـاطلين عن العـمل عـام ١٩٣٣، أنقـذهم النظام من البؤس وجعلهم في موضع يعدونه جسراً ذهبياً. كانوا بسطاء ومستواهم العقلي بالغ في التدني: ومقابل الطمأنينة التي منحهم النظام إياها، كانوا ينفذون أحطّ مـهماته ويعتـقدون أنهم منسـجمـون مع ضمـائرهم والأخلاق، والوطن الألماني والإنسانية. كانوا متأثرين جداً من سوء الحظ الذي أصابني بإرسالي إلى دورا، كـانوا يمرون مرفوعي الرأس، متـعـجـرفين، عنيـدين، قـسـاة القلوب وسط السـجناء الذين عهد إليهم بمراسلتهم، ولم تراودهـم ولا مرة الفكرة في أن هؤلاء أناس مثلهم، حتى ولا مثلي أنا.

لم تكن الأمـور الشـاذة في نظام المعـسكر بديهـيـة بالنسـبـة إليـهم، وعندمـا يلاحظونهـا، مـصـادفـة، يحملون مـسـؤوليتـهـا، بكل صـدق، للإدارة الذاتيـة(١) أو إلى كتلة السجناء أنفسهم. لم يدركوا أننا هزال، ضـعـاف، قـذرون وفي أسمـال بـالية، فـالرايخ الثـالث يزودنا مع ذلك بكل مـا نحتـاج إليـه: يقـدم الغـذاء، وسائل الصـحـة الكاملة، سكناً مـريحـاً في مـعـسكر مـجـدد قـدر الإمكان، وسـائل تسليـة بريئـة، موسيقى، مطالعة، رياضة، شجرة عيد الميلاد، إلخ... ولكننا لا نستطيع الإفادة من ذلك. وهذا هو الدليل القاطع أن هتلر على حق، وأننا، باستـثناء النادر منا، ننتمي إلى إنسـانيـة أدنى. مادياً ومـعنوياً هل كـانوا على المسـتـوى الفـردي مـسـؤولين عن الأخطاء التي تتم أمام ناظريهم وبالتواطؤ معـهم أو التعاون اللاشـعوري والمتعمد في

١- كـانت جـمـهـرة المسـاجين، هـي أيضـاً، ترى أن الإدارة الذاتـيـة مـسـؤولة أكـثـر بكثـيـر من الشرطة العسكرية عن نمط الحياة التي يعانونها.

آن واحد؟ كلا، بلا ريب: إن الشعوب كلهاعلى اختلاف أنظمتها وجنسياتها، حين يكونون ضحايا مثل هذا الوسط الخاص، البعيد عن رقابة الأفراد والمنقطع جماعياً عن التقاليد، يتساقطون لأمد محدود، وكل بدوره، في المنعطفات الخطرة لتطورهم أو لتاريخهم.

في العاشر من آذار وصلت إلى دورا قافلة من نساء (شهود يهوه) مع توصية من برلين توضح أن هؤلاء النساء- وعددهن ٢٤ - يجب استخدامهن في أعمال بسيطة. ومنذ ذلك الحين أصبح عمل الجندي الوصيف موكلا إليهن. وتم تبديلي وصرفي إلى المعسكر. ولأجل تحاشي فصيلة سيئة، رأيت من الحكمة انتهاز فرصة حالتي الصحية من أجل الدخول إلى المستوصف، الذي شاهدت من نوافذه الهجوم على نوردهاوزن من الثالث حتى الخامس من نيسان ١٩٤٥، بعد ثلاثة أسابيع، وقبل يومين تماماً من نقلي مع إحدى قوافل الإخلاء الشهيرة.

الفصل السادس

أرض البشـــر « الأحـــرار»

كانت تمطر، مطر نيسان الناعم، البارد، الجليدي؛ منتظم، عنيد، قاس، مضى عليه يومان، وباشر في ليله الثالث.

كانت القافلة سلسلة طويلة من المقطورات المخلّعة التي كان يسمع صريرها على السكة، تغوص ببطء في الفجوة الكبيرة السوداء؛ والآلة قاطرة من عصر آخر، تنضح وتنفث وتلهث تعباً، تسعل وتبصق، تنزلج وتفرقع. مائة مرة ترددت، ومائة مرة بدا عليها أن ترفض الجهد المتوقع منها.

كانت تمطر وتمطر دون توقف.

في المقطورة المكشوفة، كان ثمانون جسداً واهناً متقلصاً، يتشابكون ويتكدسون، بعضهم داخل بعض، وبعضهم فوق بعض. هل هم أحياء؟ أموات؟ لا أحد يدري. في الصباح ما برحوا مستيقظين، متجمدين، في أسمالهم الرثة المبللة، مهزولين، شفافين، شاحبين؛ عيونهم الجاحظة ملأى بالحمى والبلادة. وفي جهد يفوق طاقة الإنسان، حاولوا الانتفاض، وقد ميزوا النهار، شعروا بالمطر- خطوط المطر الطويلة اللاذعة- يخترق أسمالهم ولحمهم الرقيق الجاف ثم ينغرز في عظامهم بصفوف متراصة لا ترحم. كانوا يقوّسون ظهورهم في رعشة خفيفة. ربما حاولوا جر أنفسهم في العدد من الحركات الغريزية للدلالة على الاستيقاظ حين رأوا أنفسهم مشتبكين بعضهم ببعض. من خلال ضباب الحمى ونسيج المياه التي تهطل من السماء، رأوا رجالاً في الزي العسكري، مدججين بالسلاح، منتصبين في زوايا المقطورة الأربع، هادئي الأعصاب ولكن متحفزين، حينئذٍ تذكروا: أدركوا مصيرهم، ودون جهد، وهم مكتئبون ومرهقون، عادوا إلى السقوط في نصف إغفاءة،

في نصف حياة، في نصف موت.

كانت تمطر، تمطر على الدوام. وكان الهواء الثقيل الطافح بالنتانة الصاعدة من أكوام الأجساد يتلاشى في البرودة الرطبة وفي غياهب الليل.

لدى الانطلاق، كانوا مائة.

تجمّعوا على عجل، والكلاب في أثرهم، وألقوهم كيفما اتفق، وكأنهم رزم، في العربات بين اللكمات والأوامر المزمجرة. وفي بادئ الأمر ارتموا أرضاً حين وجدوا أنفسهم على أهبة الرحيل، على سطح العربة الضيق دون زاد من أجل السفر؛ ولكنهم ما لبثوا أن أدركوا أن محنة كبيرة بدأت. وبدون تمهيد أنذروهم:

- انتبهوا، انتبهوا! وقوف في النهار، جلوس في الليل!... لا تحاولوا الفرار، وكل مخالفة لهذه التعليمات تعرض صاحبها لإطلاق النار عليه فوراً! مفهوم؟

العربة مكشوفة، البرد، المطر، كل ذلك يمكن التغاضي عنه فقد شاهدوا مثله. ولكن، لا شيء للطعام: لا شيء للطعام!

ومن فرط البؤس، لم يدخل غرام واحد من الخبز إلى المعسكر منذ أسابيع، وكان عليهم الاكتفاء بموارد المخازن: حساء خفيف من ملفوف الروتاباغا، ليتر واحد وأحياناً نصف ليتر، وحبتان صغيرتان من البطاطا، مساء وبعد نهار طويل وقاس من العمل. لا شيء للطعام: كل شيء يهون أمام هذا الخطر، وكادوا ألا يسمعوا الدويّ الذي ينبئ بأن الأميركيين أصبحوا على بعد اثني عشر كيلو متراً.

- لا شيء للطعام، الوقوف في النهار، والجلوس في الليل... قبل مضي الليلة الأولى، ثلاثة أو أربعة منهم أبدوا على عجل رغبتهم في قضاء حاجة ملحة، تمَّ الأخذ بتلابيبهم، وأسندوا بفظاظة إلى حاجز المقطورة العلوي وتم قتلهم بإطلاق النار عليهم.

وتم الاقتناع بضرورة فعلها في السروال، محتاطين في بادئ الأمر، بإمساك النفس للتخفيف من التلوث، ولكن تدريجياً تترك الأمور تجري على أعنّتها.

وخلال النهار التالي، تساقط ثلاثة أو أربعة من الإرهاق. فأجهزوا عليهم برصاصة في رأس كل واحد وبكل هدوء. كانت الجثث تلقى من فوق الحافة بالتتابع بعد نزع الأرقام: وفي مطلع الليلة الثالثة، كانت الصفوف قد انفرجت على نحو ظاهر، ومررنا من حال الذعر إلى حال الهلع، ومن الهلع إلى الاستسلام الكامل، وتم الامتناع عن الخروج من هذاالجحيم، والامتناع حتى عن الحياة: والآن تركنا أنفسنا نموت في صديد القروح.

مطر، مطر، مطر.

بيد أن ريحاً هبت معترضة القافلة ونفخت نسيج الخيمة المربوطة ربطاً سيئاً بصواعد مرتجلة، والتي يلتجئ إليها، في كل زاوية من زوايا المقطورة، الخفير، خلال ساعات سهره الطويلة: كأنها كنست الرائحة النتنة، وجماعة الشرطة العسكرية، الذين كانوا عصبيي المزاج، عند الانطلاق، على الرغم من عزمهم وآمالهم العريضة، أصبحوا فجأة قلقين، منذ فترة، كان سماع طلقات البنادق في تناقص، وكذلك أزيز رصاص المسدسات، حتى الكلاب نفسها -الكلاب، آه من هذه الكلاب!- كان نباحها في تناقص في المواقف المتعددة. وخلال ثمان وأربعين ساعة، من السير إلى الأمام وإلى الخلف، ومن تحويلة إلى تحويلة أخرى، ومن تبديل في الاتجاه إلى تبديل آخر في الاتجاه، كانت القافلة على بعد أقل من عشرين كيلو متراً من نقطة انطلاقها. وفي وقت متأخر من الليل، أقلعت بالاتجاه الجنوبي الغربي، بعد أن حاولت عبثاً الاقلاع نحو الشمال والجنوب والشرق، وإذا كان هذا الاتجاه مقطوعاً مثل الاتجاهات الأخرى، فمعنى ذلك أننا محاصرون، وأنه سيتم الإمساك بنا. وتجهمت وجوه جماعة الشرطة العسكرية، ورددوا الخبر من مقطورة إلى مقطورة، من الأمام حتى الخلف، وبعد ذلك انطووا على أنفسهم.

- نحن محاصرون، سيتم الإمساك بنا!

وفقدوا صوابهم: سيتم الإمساك بهم، وكل هذه الأجساد الغائبة عن الوعي

التي ترقد ستعود إلى الحياة، وتنهض لتشير بأصابع الاتهام، والجريمة ستكون في حال التلبس بها .خلال الصباح أيضاً، كنا نسمعهم يتشاتمون بملء حناجرهم ويلقون بالدعابات الماجنة والقهقهات على الفتيات، اللاتي كنّ على امتداد المسار، حزانى متقززات، لا يمنحنهم، أكثر من تشجيع كئيب ونادر. وأخلدوا الآن إلى الصمت: لم يكن يخدش صمت القبور هذا أو يعكر كثافة ورطوبة ظلمة الليل إلا صوت قداحة أو توهّج سيكارة بين حين وآخر.

مطر، مطر دائماً، مطر لا ينقطع، مطر بلا نهاية، والسماء لا تنضب.

ومما زاد الطين بلّة، هبوب الريح العاتية وبدأ يحدث صفير حاد من خلال فرجات الألواح الخشبية والماء يصل كالإعصار. كان قماش خيمة الشرطة العسكرية ينتفخ على نحو جاوز الحدّ. وصواعد الخيمة تنثني! وفجأة انقطع أحد مرابطها، ثم انقطع مربط آخر، وبدأ نسيج الخيمة يخفق كأنه علم، ويصطك في الخارج أمام الحاجز. وأطلق رجل الشرطة العسكرية شتيمة، ثم حاول أن يصلح الضرر الحاصل وهو يدمدم ويجدف؛ ولكن عبثاً: كلما نجح في جانب ذهبت الريح بالجانب الآخر!

بعد محاولتين فاشلتين، أقلع عن ذلك. وفجأة التفت إلى أقرب التعساء إليه، وصاح به بعد لطمة مفاجئة من ركبتيه ورفسة في صلبه.

- أنت، أنت!... أيها الكلب الأحمق!

كلب أحمق: بعد أن سمع الرجل أدرك مصدر النداء، وجمع بشكل آلي كل ما بقي لديه من جهد، ونهض وقد حلّ به الذعر، وحين أبصر ما كان ينتظر منه، اطمأن قليلاً. تسلق -أو استسلم للتسلق- على حافة الحاجز، محافظاً على توازنه بركبتيه ويديه، وبمزيد من الاحتياط كي لا يسقط على الحجارة المرصوفة من الجهة الثانية -كي لا يسقط على الحجارة المرصوفة!- أعاد النسيج، وساعد الآخر في إعادة تثبيت الزوايا على الصواعد.

- جاهز؟

- نعم، أيها السيد الشرطي.

حينئذٍ، حدث أمر خارق: وجد الرجل نفسه، في لمحة، وفي ومضة؛ ولولا الظلمة والمطر لتمت فجأة رؤية وميض غريب في عينيه. ففي آن واحد أدرك أنه على ركبتيه فوق حافة الحاجز، وساقاه متجهتان نحو الخارج، وأن القطار لا يسير بسرعة هائلة، وأنها تمطر، والليل حالك، وأن الأميركيين ربما كانوا على مسافة اثني عشر كيلو متراً، وأن الحرية...

- الحرية، أيتها الحرية!

لدى تداعي الأفكار هذا تملكته فكرة جنونية. هو الذي كان منذ لحظات كان خائفاً من السقوط إلى الوراء -يا للسخرية!- واقتحم دماغه نور مبهر، وفاض، وغزا كل جسده، وأخذ يردد:

- نعم، وصرخ: نعم! نعم! نعم...آ....آه!....

وقبل أن يكون لدى الآخر الوقت الكافي، حتى للمفاجأة، شدّ الرجل، الهيكل العظمي، المشرف على الموت، عضلاته في جهد يائس، وثبت ذراعيه الناحلتين على حافة الحاجز، وبضربة خاطفة، قذف بنفسه إلى الوراء، وسمع فرقعة صلبة تطن في رأسه. وكانت لا تزال لديه القوة، والصحوة المدهشة ليفكر أنه سقط في زاوية ميتة، وأحس أن قوة تلقفته وأنه جسداً وروحاً يتدحرج في عدمية اللاشعور.

واستمرت القاطرة، تعرق وتنفخ وتتردد وتتزحلق، وتفرقع، وعادت الأسلحة تبصق الموت. وشيئاً فشيئاً أخذ الصمت الرهيب اللامبالي للطبيعة النائمة، يطبق على المأساة التي تستمر، لا يعكره سوى صوت هطول المطر الذي أصبح منتظماً مع الريح التي خفت.

مطر، مطر، مطر.

* * *

توقف المطر.

ومضت ساعات، ربما اثنتان، ثلاث، أربع، وأخيراً تعبت السماء. وفي الظلمة الكثيفة الرطبة، تحرك شيء، ما، هناك، على مستوى أسفل من الخط الحديدي.

عينان حاولتا في بادئ الأمر أن تنفتحا، ولكن الجفنين أطبقا في ردة فعل مفاجئة، وكما لو أن الرأس كان تحت الماء.

وتقلص حلق جاف ليستدعي اللعاب، ويحضر طعم الأرض إلى لسانه؛ ورسمت ذراع حركة توقفت في منتصف مسارها بسبب ألم حاد في المرفق، وخفيّ في الكتف، ثم لا شيء: عاد الرجل ليغرق في شعور راحة غريبة، واطمئنان، واعتقد أنه عاد إلى النوم.

فجأة انتابته قشعريرة غمرته، انفصل جلد صدره عن ثيابه المبللة، أراد أن يتجمع، أن يضع ساقه تحته: آي!... حينئذٍ حاول أن يستيقظ، خفق جفناه بعصبية، أجبر عينيه لتبقيا مفتوحتين: حدّق في الظلام الدامس، المطلق الثقيل، وصعدت من رئتيه رغبة في السعال، حطمت كل شيء فيه، وانتابه إحساس أن جسده يرقد في أجزاء متناثرة مريضة على الأعشاب الندية والأرض الموحلة.

حاول التفكير، ولدى أول جهد، تلقى ما يشبه الصدمة في رأسه:

– الكلاب.

هذه المرة، استيقظ، وعاد إلى رؤية كل شيء، وهاجمه شلال من الأحداث، تتتابع وتتراكم، الانطلاق، القافلة، جحيم المقطورة، البرد، الجوع، المطر، نسيج الخيمة، الريح، القفزة في الليل. القافلة: لو أنه يعود أدراجه مرة؟ الكلاب: آه! كل شيء أحسن من هذه الميتة.

كان يود الفرار: لا شيء يمكنه عمله. كانت أجزاء جسده مسمّرة هناك. كان يريد أن يتجمع، كان كل شيء يطقطق، كان يسمع صرير عظامه بعضها فوق بعض. ومع ذلك يجب الخروج من هناك، بأي ثمن.

وسـارت مـحـاكـمـتـه في اتجـاه آخـر: إن الخط الحـديدي هو هدف عـسكري للمهاجمين، ومكان مرتفع يمكن استخدامه من المستهدفين بالهجوم، ولا بد للألمان من أن يستخدموه وينسحبوا باتجاهه ويتمسكوا به: سيجدونه.

– الفـرار، آه، الفـرار!... الابتـعـاد ولو بضـع مـئـات من الأمـتـار على الأقل والانتظار هناك، في مأمن، وصول الأميركيين: أولاً يجب الوقوف!

أولاً يجب الوقـوف. كـان يفكر بصـوت مـرتفع، كـان لصـوته صـدى أجش، وكانت تمتمات شفتيه تخرج من فمه حبيبات ترابية، وبصق.

– تف!... تف!...

وباحـتـيـاطات لا مـتناهيـة حـرّك ذراعيه، الواحدة إثر الأخـرى، لا شيء في اليسرى، ولكن في اليمنى، استمر هذا الألم في المرفق والكتف.

– عجباً، لعلها تخفّ...

وكرر الحركة: حقاً، كان الألم يلين مع حركة العضـلات والمفاصل: ليس هناك كسر، والصدر يتنفس على نحو أحسن.

والآن إلى الساقين، فرك عضلاته بهدوء، اشتد ألمه وكاد أن يصرخ... وأخيراً تم ذلك، ليس هناك كسر أيضاً من هذا الجانب، أو على الأقل هذا ما يبدو، وأمسى أهدأ بالاً، وأحسن تنسيقاً.

ونجح في الجلوس، وازداد شـعـوره بالألم من رضـوضـه وإحـسـاسـه بجليد التصاق ثيابه بجسده، وارتعش من البرد، ومع خواء معدته، شعر بمغص دائري: إنه جائع، وهذه علامة جيدة، واستغرب ألاّ يشعر بالجوع من قبل وجعل يده على رأسـه، كـانت قلنسـوة السـجناء مـا تزال على رأسـه، وضـحك من ذلك، وفكر في قبقابه: لقد فقده خلال المغامرة، لا يهم، وأخذ يجسّ نَفَسه، كان مـغـموراً بالوحل وكـأنه كـان ملتـفـاً بركـام من الأسـلاك الحـديدية التي باشـر فـوراً بالتـخلص منهـا، والتفت ثم استند إلى يديه وقدميه، ولم يبق سوى جهد بسيط ليغدو واقفاً.

واقف: إنه واقف، يجب أن يركن إلى الفرار، من الممكن أن ينسحب الألمان، ويأتوا، ويتشبثوا بالخط الحديدي... لا تتسرع، شعر بدوار في رأسه، وبرغبة في القيء، وأحس أنه يترنح، وأنه سيقع وأن لا شيء يحفظ توازنه سوى قدميه الفائصتين، وأنه لا يجوز الاعتماد على وضع الواحدة تلو الأخرى. انتصب، وتماسك بقدر ما أمكنه، ولكنه رأى أنه سينقلب، ويؤذي نفسه أيضاً بسقوطه؛ حينئذٍ جلس القرفصاء بكل هدوء: طالما أنه لا يستطيع السير، سيزحف ولكنه لن يبقى هناك -كلا، لن يبقى هناك. وعاد بذهنه إلى القافلة، إلى الكلاب، إلى الألمان الذين كانوا على وشك الانسحاب، إلى الأميركيين.

– يقال إنهم على بعد اثني عشر كيلو متراً، كلا، إنها حماقة.

وانتشل قدميه من الوحل.

كان يزحف على يديه وركبتيه كأنه دودة معذبة، وأنجز نزول منحدر، واجتاز ما يشبه حفرة ملأى بماء لزج، كانت حوضاً لحقل مجاور لقطعة أرض محروثة حديثاً؛ كان التراب يرتفع أقراصاً ويلتصق بركبتيه، وساقيه ومرفقيه. توقف ليسترد أنفاسه.

حينئذٍ، خفت حلكة الليل، وبدأت السماء تنكشف، فأخذت أشكال الأدغال والأشجار المنعزلة في الجوار تتحدّر من خلال غشاوة من الضباب:

سيطلع النهار: خطر آخر.

على بعد مئات من الأمتار، وعلى قمة مرتفع من الأرض، ميّز كتلة قاتمة: الغابات، ولا شك.

وحدّد هدفه الأول في الوصول إليها قبل الفجر، واستأنف الحركة، وجعل الجهد الدفء يسري في جسده. ويلين عضلاته ومفاصله، ويحدد موضع الألم في شريط على امتداد الجانب الأيمن من جسده. واستطاع الوقوف، والبقاء على هذه الحال وأن يحرك قدميه الحافيتين الفاقدتي الحس، وأن يمشي، أن يمشي ببطء لأن

ساقه اليمنى مرضوضة، وكتفه يؤلمه ألماً ممضاً، ولكنه سار، تقدم: منحنياً، مرهقاً، محطماً، متلوياً، تسلق نحو الغابة، كان يود أن ينتصب، ويجهد ويتشنج. قبل الفجر سيكون هناك سيكمن، سيختبئ، وحينما يأتي الأميركيون، سينجو.

* * *

ومرّ الباقي وكأنه في حلم، في حلم على فترتين، طويل، مرهق.

لدى وصوله إلى الغابة، تحاشى التوغل في حقول الغراس التي كان يخشى أن تكشفه، ورأى من الحكمة الجلوس هناك، في ملجأ إلى حد ما وعلى كل حال بين الأدغال النادرة حيث يمكنه، وكأنه مرصد خفي، أن يرى ما يحدث من كل صوب.

طلع النهار، والمنحدر الذي كان يهبط أمام قدميه، أخذ الظلام ينقشع عنه شيئاً فشيئاً، وأخذت المربعات المنسقة للحقول والمروج تتحدد بعد أن كانت غير واضحة المعالم، والخط الحديدي، هناك، يمتد منتشراً كأنه شريط طويل. في الفجوة بين الهضبتين كانت صخرة عالية تنتصب بين ألوان الدخان المتصاعد مستقيماً من مداخن خفية.

وسرعان ما ظهر في أعالي السماء السحاب الرمادي على الرغم مما يتخلله من إشعاع لبقعة واسعة بيضاء تكشف عن أن الشمس تبحث عن مكان تنفذ منه. وأصبح المكان آهلاً، من كل صوب، ببعض الذين يستخدمون الحيوانات في الحراثة، وكانوا يروحون ويغدون وهم مطمئنون. ومن جهة أخرى، كان أحد الرجال المدنيين ولكن ممن يضعون الشارة ذات الدلالة يقوم، بغير اكتراث، بالسير ذهاباً وإياباً على امتداد الخط الحديدي.

وتذكر مشهداً طبيعياً مماثلاً، في الأحوال الجوية نفسها، تحت السماء نفسها، بالمربعات المنسقة للحقول والمروج نفسها، بالغابات نفسها، بالشجرات المنعزلة نفسها، بقبة الجرس نفسها، بالخط الحديدي نفسه في مكان ما على حدود

مقاطعتي الالزاس والفرانش-كونتيه (الفرنسيتين).

وفكر أن أمه لو رأت هذا في مثل هذه الساعة فلن تتردد بملاحظتها أن السماء (تغتسل) وأن الطقس (ينظف نفسه). تأمل طويلاً حصانين، على بعد خمسمائة متر، يجران نوعاً من المشط، على مرج ليفرشا أكوام التراب؛ كان هذا الشيخ الذي يقودهما، وأقسم على ذلك، الأب توردو، وهذه المرأة الصغيرة، التي كانت تشد في حبل مثبت وراء المشط، كانت حفيدته التي كان والدها طوني معتقلاً في ألمانيا! وبتداعي الأفكار شاهد وجه امرأته القلق ينحني على إنسان صغير في الثانية من عمره.... ثم رجع إلى نفسه وقد تملكته قشعريرة من القلق.

- لا، لا، إنها خديعة، لا يمكن للأميركيين أن يكونوا على مسافة اثني عشر كيلو متراً، كل شيء هادئ؛ فعلى امتداد هذه الحقول وهذه المروج وهذه الغابات لا شيء يوحي بجو الحرب، فكيف باندحار الجيش. في فرنسا، عام ١٩٤٠...

وأصابه الرعب، ما الذي سيصير إليه؟

ما من وسيلة لمخاطبة هؤلاء الناس، مع ذلك، بمثل هذا اللباس!

كان جائعاً، جائعاً جداً، والتقط عسلوجاً وضعه في فمه: كانت تلك أيضاً وصفة من أمه حين كان يشكو الظمأ وهو في حضنها، أوقات بعد الظهر، حين اشتداد الحر، وقت الحصاد، وغيّر هذا أفكاره.

ومضت الساعات، ونجحت الشمس في اختراق السحاب، وتجزئة السماء، قُرع جرس: إنه الظهر، وخلت الساحة، ومر بعد الظهر على المنوال نفسه: عادت الحراثة بأعداد أكثر مع شمس أكثر دفئاً جففت ثيابه بأكملها، ومر رجل بقربه وعلى كتفه قاطعة أعشاب، كاد أن يحتك به، ولكنه لم يتعثر، ولكنه استنتج أنه لا يمكنه أن يبقى طويلاً في هذا الوضع دون أن يكون حذراً. وفكر في اليوم التالي، كان يوم أحد، ولم يجد مشقة في معرفة ذلك بدلالة يوم الانطلاق من المعسكر الذي كان مساء الأربعاء، إذن، غداً صباحاً سيكون مطمئناً، ولكن بعد الظهر سيكون

لديه الكثير مما يخشاه من عادات الألمان كباراً وصغاراً في أنهم يتنزهون في الغابات.

أقبل المساء، ثم الليل، ولم ينفك حارس الخط الحديدي بشارته عن الذهاب والإياب. لم يسمع إنذاراً ولا أدنى صوت محرك في السماء، طوال ذلك النهار:

- لا، لا...

القمر، قمر ضخم بلون الجمر، نشر ضياءه العجيب على الربوع. طلقات مخنوقة تردد صداها عن بعد.

- لا يزالون على بعد أربعين أو خمسين كيلومتراً على الأقل. الكلاب، لو أفلتوها عليّ، لوجدتني قبل أن يصلوا إلى هنا. يجب الرحيل، الذهاب لملاقاتهم. ولكن في أي اتجاه أولاً؟

وكاد أن ييئس من كل شيء حين بعث الإنذار في نفسه الشجاعة. حامت الطائرات فوقه ساعات وساعات، وألقت قنابل في المناطق المجاورة مباشرة ورحلت بهدوء سالمة مع مطاردتها وإطلاق المدفعية المضادة، وجاءت أسراب أخرى، ذهاب وإياب مستمران حتى الفجر.

إنذار، إنذار حقيقي، إنذار جيد!

- هذه المرة، مع ذلك...

خلال النهار، ضباب، سرعان ما انقشع تحت شمس غير مترددة. وعلى الفور كانت السماء صافية، سماء يوم الأحد، شمس حقيقية ليوم أحد حقيقي، لربيع حقيقي.

كانت تبدو أنها الساعة العاشرة حين بدأ أخيراً الانقلاب العظيم.

* * *

- طق!.... طق!.... طقا طقا طقاطق!... طق!...

وقدّر المسافة: أربعة أو خمسة كيلومترات على الأكثر، كان ذلك يأتي من ناحية قبة الجرس، وعلى مدى أبعد بقليل.

- طق! طق!... طق طق طق!... طق!

وألح المدفع الرشاش، وأجابه آخر:

- طوق! طوق!... طوق طوق! طوق طوق!

ثم قصف قوي:

- بم! بم! بم!... بم! المدفع الثقيل، ولم تسقط القنابل بعيداً، ولكن خلف القرية أيضاً.

- بم!... بم!.... بم بم... لحظات.... بم!.... بم!... لحظات أخرى، بم! بم! بم!.... بم! بم! ... بم

كانت الطلقات تأتي باستقامة في اتجاهه، والإطلاق منتظم، بارد، رنان، عليه أن يكون حذراً.

ومزّق الجو انفجار هائل خلفه، كاد أن يكون عليه.

- برّ...اوم!

ثم آخر

- برّ...اوم!

صُمّت أذناه.

- برّ...او! برّ... اوم!

لم يتوقفوا، ومن هناك رجع الصدى:

- بم!... بم!... بم!.... بم!

الشمس رائعة، والسماء متألقة، والحقل مهجور، والرجل ذو الشارة اختفى. لا أحد، كان هو وحده.

- برّ... اوم!... بم، بم، بم، برو... برّ....اوم!

كان في محور الرمي الذي يقطعه الخط الحديدي عمودياً والذي كان الألمان ينسحبون إليه، سيحاولون الدفاع عنه ولكنهم لن يصمدوا طويلاً، سينسحبون إلى الغابة حيث يسجلون زمناً في التوقف، إلى الغابة، أي إليه، سيجدونه

- كلا، لا يجوز البقاء هناك!

إنه في محور الرمي الذي يكاد يقطعه الخط الحديدي للخروج من المحور. لم تعد ساقه تزحف تقريباً، التراب جاف، والأرض صلبة، كان متملكاً لكل قدراته، لقد بدأ المشهد الأخير من المأساة، لن يرتكب حركة خاطئة، إنه واثق من نفسه، سينزل، وقرر:

- لا قرب الخط الحديدي ولا قرب الغابة.

وتتابع الصراع:

- بم!... بم!.... بم!.... بم!

- برّ... اوم!.... برّ... اوم... بم!.... بم!

عجباً، رأى سحب الدخان إلى جانب قبة الحرس، لقد أطال الأميركيون مدى رميهم

- بم!.... بم!.... بم!...... بم!.... بم!

إنهم يطيلونه أيضاً، والقنابل تتساقط على الخط الحديدي ورأى الأرض تنضح برزم في الدخان، على امتداد خط طويل يقطعها بشكل مائل. وشم رائحة القذائف.

- يا للشيطان، يجب أن أنبطح.

كان يود لو أنه سار مسافة أبعد، ولكن... هناك وعلى مقربة:

- ملجأ سيء

وفضل الأخدود الذي يفصل بين قطعتين من الأرض، أمامه، على بعد خمس عشرة خطوة: وجثم هناك

- از... بم!... از...بم!...

كان الوقت مناسباً! كان الصفير فوقه، وسقوط القنابل على مقربة، وعاد القصف الذي صمت خلفه، وصوت الطلقات أكثر اختناقاً وأبعد:

- إنهم يتراجعون

وفيما كان الأميركيون يمتدون في حقل الرمي، كان الألمان يقصرون، كانوا يتقهقرون بانتظام. وفجأة وجد نفسه وكأنه وسط هزة أرضية مرعبة، في سحاب من الدخان، والحديد والتراب، وكان مغطى كله تقريباً بالتراب، وتساءل عن أية معجزة أنقذته من الموت.

وبين جولتين من القصف، خاطر بنظرة من فوق الأخدود الذي كان فيه: كانت أشكال رمادية تجتاز الخط، الواحد تلو الآخر، وبقفزات سريعة، كانوايغيبون في كتل الردم: طلقة!.... اختفاء، طلقة!... اختفاء، طلقة!.... ثم خمس عشرة خطوة إلى الوراء، لعلهم كانوا يمررون الكلمة ثم يقفزون بدورهم.

كانوا يتراجعون باتجاهه. كانوا يحاولون مغادرة المكان المكشوف والوصول إلى الدغل. خمس عشرة خطوة إلى الوراء، طلقة....

- أرجو ألا يأتي أحدهم ليختفي بقربي، ولا عليّ!

ودوى طلق ناري على بعد أقل من خمس عشرة خطوة من يساره، وآخر على أقل من خمس خطوات على يمينه ولم ير أعداء يردون عليه.

- يا رب، على ماذا يطلقون؟

وامتد رمي المدافع شيئاً فشيئاً، ووصل إلى الغابة، واجتازها بوثبة. وتقاطعت الفرقعات فوقه، بينما كانت هناك أشكال رمادية أخرى قد تسلقت الخط الحديدي، وأخذت تدريجياً تتسلق نحو الغابة: خمس عشرة خطوة إلى الأمام! خمس عشرة خطوة إلى الأمام!

نار كثيفة، وضعف أولئك الذين وقع الهجوم عليهم، وكان الرد الذي ينطلق

من الغابة يضعف أكثر فأكثر، وانتهى إلى الانطفاء تماماً.

وفجأة علت جلبة هائلة:

- مرحى!... مرحى!.... مرحى!

واستمر قصف المدفعية، وأصبح صوت القصف مخنوقاً أكثر فأكثر، وبعيداً أكثر فأكثر، ولكن أصوات البنادق والرشاشات صمتت.

- مرحى!... مرحى!.... مرحى!

كان ذلك ينطلق من كل صوب في الأفق، كان يتردد على نحو أقرب فأقرب، لم يكن ينتهي.

- مرحى!... مرحى!... مرحى!

وظهرت مجموعة من الرجال والرشيشات في أيديهم. وكانت المجموعة التي هربت بضع عشرات أو مائة على أكثر تقدير: أما هؤلاء فكانوا ألفاً على الأقل. وكما لو أنهم ينصاعون إلى جاذبية قسرية، كانوا يتوجهون ويتجمعون جميعاً في موضع واحد.

- مرحى... حى... حى...حى!!!

كانوا يعبرون من كل صوب، يسيرون، يركضون، أثملتهم نشوة انتهاء المأساة. لم يره أحد، ورضي بذلك.

فلا أحد يعلم ما يمكن أن يحدث في لحظات الحماس والهياج هذه. وحرص على ألا يلاحظ حضوره أحد قبل الأوان، فانتظر عبور الموجة.

وأخيراً تجرأ على الحركة.

جلس. كان على مسافة ثمانمائة متر رجال عصبيو المزاج، -لا يزيدون على خمسة عشر- فالآخرون توغلوا في الأدغال- كانوا يروحون ويغدون، في حراستهم، يترصدون برشيشاتهم، وكان أمامهم رجال آخرون، متجهون بظهورهم إلى الغابة، مصطفون، أيديهم خلف رقابهم، منتصبون، وآخرون أيضاً، أذرعهم مرفوعة،

والبندقية في النهاية، يتقدمون فرداً فرداً ويلقون بأسلحتهم على الأرض، ومن خلال مراقبة دقيقة عليهم يتجردون من معداتهم ويذهبون للالتحاق بالصف.

- على جناح السرعة!

تباطأ أحدهم، فذكرته رفسة محكمة بالحال التي هو عليها، وآخر أصابه أخمص بندقية، رغب ثالث في أن يفاوض ويتردد وربما يحتج، فتم تفريغ رشيش في صدره مباشرة. وبعد عدد من اللكمات، والرفسات، والضربات بالأخمص أصبحت القافلة جاهزة.

- في الطريق إلى قبة الجرس!

مرت المجموعة بقربه، على بعد مائة متر، والأسرى مصطفون خماسَ خماسَ، مجردون تماماً من معداتهم، ستراتهم مفتوحة أزرارها، وأحذيتهم مفكوكة أربطتها، والأيدي وراء الظهر باستمرار؛ كانوا يتقدمون، قلقين، صامتين، مطيعين؛ ومن كل جانب صف من العساكر المسلحين من سبعة إلى ثمانية رجال يرهقونهم بالتهكم والتهديدات. رأى أن الوقت المناسب قد حان ليعلن عن نفسه، وانتصب بقفزة واحدة

- ياهو!... ياهو!

ورفع ذراعه في حركة تعبر عن النداء.

ولم يدم ذلك طويلاً: توقفت المجموعة، وانفصل عنها أربعة رجال بخطوات فائقة السرعة، وقبل أن يتمكن من شرح ما حصل له كانت سبطانات أربع رشيشات مستندة إلى صدره وظهره. وقال في نفسه:

- هكذا، على الأقل، أنا مطمئن أنهم لن يطلقوا النار. كانت الأسئلة المتوعدة بلغة لا يفهمها.

- أنا فرنسي، قال ذلك بالإنكليزية، وكان هذا كل ما يعرفه في هذه اللغة كما أنه لم يكن واثقاً من صحتها.

ونظروا إليه نظرة استغراب وحذر، وبدا أنهم لم يفهموا ما قال، فقال

بالفرنسية

- فرنسي!

ويبدو أن الأمر ظل على ما هو عليه، وغامر بمرجعه الأخير، فقال بالألمانية:

- سجين فرنسي!... فرنسي.

هذه المرة، كان الأمر على ما يرام، وانخفض أحد الرشيشات الأربعة

- ماذا؟

وأوضح باختصار، بعبارات متقطعة، ووجد نفسه بحضور أحد الألمان واثنين من الإسبان وأحد اليوغوسلافيين تجمع بينهم لغة مشتركة هي إحدى اللهجات الإيطالية.

أدركوا الأمر، وانخفضت كل الرشيشات، وناولوه مطرة. شرب: سائلاً لاذعاً، بارداً، ودّ لو يبصقه، وبدا تعبير على وجهه. قال الألماني:

- قهوة، قهوة طيبة، وأخرجوا جميعاً بسكويتاً -جافاً، قاسياً، ما أقساه - وشوكولا، ومعلبات، وسكائر.... سكائر.

- سيكارة أولاً....

ولكن لا يجوز إضاعة الوقت. قال الألماني:

- يجب علينا... وأدركوا حاله، واصطفوا مثنى مثنى ورفعوه على أكتافهم، كأنه نصب تذكاري حي استعيد، وعادوا ضاحكين إلى المجموعة التي كانت تنتظرهم.

وسأل أحد حراس المرافقة: مريض، مريض؟

فأجاب: نعم، ولكن الباقين لم يردوا، لم يكن هناك سوى إنكليزي واحد -أو أميركي- بين الجماعة... لعلهم جند الصدام، هذا ما فكر به، لواء دولي، وتذكر الحرب الاسبانية.

خلال المساء الذي بدأ بالهبوط، غذّت المجموعة السير إلى قبة الجرس وهو

يمسك بتوازنه بصعوبة على كتفي رجلين مختلفين، وهو يقضم ببطء، مسيلاً لعابه على نحو كاف، البسكويت والشوكولا، وعادت التهكمات، والتهديدات، والشتائم تنهال على الأسرى، الذين استمروا بوداعتهم، يغذون السير قلقين باستمرار بأحذيتهم المفكوكة الأربطة، ورؤوسهم المحنية، وأيديهم على مؤخرات رقابهم.

وبين الفينة والأخرى كان الألماني يبادر في الكلام:

- *أنت!.... أيها الكلب الأحمق!... أنت... وكان يشير إلى أحد الأسرى*

ثم أخرج مسدسه من قرابه والتفت نحو السجين الذي أنقنوه، وسأله:

- هل أقتله؟

وأدار الأسير عينين نجلاوين مذعورتين متوسلتين، مترقباً الجواب الذي كان ابتسامة حيادية مستسلمة.

- أنت محظوظ!... أيها الحثالة! أيها الكلب الأحمق.... وبصق احتقاراً.... صعلوك!

- انعكست الآية!

ومن تهكمات إلى تهكمات، ومن سخريات إلى سخريات، ومن تهديدات إلى تهديدات، وصل موكب المنتصرين والمهزومين الخائبين إلى القرية قبل سواد الليل. تم المرور أمام محطة صغيرة جداً، تشبه كل الشبه محطة أخرى، كان يعرفها حق المعرفة على حدود مقاطعتي الفرانش-كونتيه والألزاس. وقرأ على المدخل موتشلوف بالأحرف القوطية. واجتازوا حاجز سكة حديدية، فوضعوه على الأرض، وانفصلوا عن المجموعة معه، ثم، وبعضهم يساعد البعض الآخر، بدؤوا السير ببطء وسط الضجيج الذي يبعث على الصمم والصادر عن آليات الحرب الهائلة التي تجتاز القرية المهجورة رغم سلامتها بالسرعة القصوى والتهديد المرعب، ماضية إلى مواقع أخرى.

* * *

غالباً ما يكون الضعفاء والمحبطون، والذين استمروا طويلاً في الانزواء عن حياة البشر، مثل العصابيين والمرضى، في منتهى الحساسية، ودائماً ما تتجلى هذه الحساسية بالمقلوب. كان مصدوماً، مصدوماً منذ اللحظات الأولى لمعاودة اتصاله بالحرية. وكانت هذه الصدمة بادئ ذي بدء عند القائد، وحين التقى بالقافلة وأخيراً في هذه الدارة التي قضى فيها ليلتين.

كان ذلك القائد طريفاً، وكان يجيد بطلاقة الإنكليزية والألمانية، والفرنسية، والإيطالية، ثم هذه اللهجة، وهذا المظهر:

– أولاً، عليك أن تختار مأوى، يا صاح، وتأكل، وتستعيد قواك، وترتاح في سرير رحب، وبعد ذلك، سنرى... اقرع أول باب تراه ملائماً... كلا، كلا، لا تفعل ذلك برفقة رجالي، فليس لديهم الوقت، دع رجالي وشأنهم بسلام، الآن اقرع الباب: إذا فتحوا لك، اطلب الطعام– ساخناً، أنت بحاجة إلى ما هو ساخن، سيعطونك أكثر بقليل، أما نحن، بطبيعة الحال، فنتناوله بارداً... إذا لم يجبك أحد، فادخل مع ذلك، سواء أكان هناك أحد أم لم يكن، تصرف كأنك في بيتك، كل هؤلاء الناس هم خدم لنا، فقد جاء دورهم... وما عليهم إلا أن يقوموا به على خير وجه! لا، لا، لا تخف، لدى أقل تقصير في الاعتبار.... أليس كذلك – مفهوم؟ عد لرؤيتي مرة أخرى غداً. ومن الآن حتى ذلك الحين... لست جريحاً؟.... ولا مريضاً؟.... نعم، أنت ضعيف، بلا ريب، ضعيف فقط، إلى الغد إذن، وحاول أن تجد حذاء هناك... وسموكن آخر غير الذي ترتديه!

عاد في اليوم التالي، وكان يتنادم مع إنسانتين رائعتي الحسن تضحكان بقهقهات، وتبدوان في غاية الاستعداد «للصمود» في المعنى العسكري للمصطلح حين يطبق على المدنيين من الجنس الآخر؛ وأخذ يفكر:

– دائماً ما تخضع الأنثى وهي تضحك إلى قانون المنتصر، في فرنسا، عام ١٩٤٠، كلهن، بنات كولاس برينيون.

ولكن الآخر بادره:

- آه، هذا أنت! هيا، منذ مساء الأمس، ورثت عدداً لا بأس به ممن هم في مثل حالك: ومنذ الفجر:، ما انفك رجالي عن نقلهم إلى معسكر خدمة العمل.... ماذا أفعل بهم، يا رب؟... قطار، إنهم يملأون قطاراً! وأنا، ليست لديّ الوسائل لنقلهم إلى ما وراء الخطوط!... سيهلكون جميعاً، أقسم أنهم سيهلكون جميعاً! كيف كان المأوى حيث كنت؟... آه! يا للأنذال! لا تهتم بذلك، يا صاح، هاتان الصبيتان...

وأضاف: حسناً... هل تستطيع السير؟... إذن فلا تذهب إلى معسكر خدمة العمل... نحو الغرب، يا صديقي، نحو الغرب. فارٌ، قادم بوسائله الخاصة إلى أرض صديقة...، اتفاقية لاهاي، الأولوية للمرحّلين... أشر إلى أول سيارة إسعاف تصادفها... وبعد ثمانية أيام تصبح في باريس... كل الحقوق، أقول لك... سيزودونك بالمؤونة من أجل الطريق. في الواقع، أهذا هو كل ما وجدته منذ مساء الأمس؟ يا صاح، ستبعث الذعر في نفوس البنات اللاتي ستلقاهن على الطريق؟ إذن، ألم يكن هناك شيء حيث نمت؟ لقد ربحنا الحرب، بإذن الله!... وهذا أمر جيد حقاً، آه من هؤلاء الفرنسيين، لا يمكن تعليمهم أي شيء... فرانتز!... وأقبل آذن، وتبادلا بضع كلمات بخليط من الإنكليزية والألمانية:

- إلى اللقاء، أيضاً، اتبع دليلك، سيعطيك بعض الزاد، أتمنى لك حظاً سعيداً، ولكن حاول أن تقوم بعمل أحسن في المرة القادمة وأثقلوه بمزيد من الكرم بالمعلبات، والسكر والشوكولا، والبسكويت، والسكائر، إلخ....، بحيث لم يدرِ أين يضعها، ووجد نفسه خارجاً، كان يود رؤية القافلة، وتوجه نحو المحطة.

كان هناك أناس، مدنيون وعسكريون، يروحون ويغدون، منهمكين، على الأرصفة، يتحاورون ويتجاملون، وتباعدوا لدى مروره: كان اللباس الذي يرتديه يضفي عليه شيئاً من الاعتبار. كانت بعض الزمر تجر المقطورات؛ أجساد شبه

عارية، في ثياب رثّة، ناحلون، متسخون، لحاهم طويلة، متوحلون. كان المدنيون يساعدون، ويتأملون، وقد امتلأوا شفقة وهلعاً... صفّوا الجثث على طرف الخط الحديدي، بعد أن أخذوا الأرقام في حال بقائها على الأسمال المهترئة، وبحث فيما إذا كان بين الموتى وجه معروف لديه... رجلان، اثنان من المدنيين الألمان وصلا يحملان جسداً ناحلاً:

قال أحدهما: مكسور! فأجاب الآخر: لا، إنه ما يزال يتنفس.

وتعرّف على باراي: باراي!

كان باراي مهندساً من سانت اتين، وكانا في المعسكر قد ناما فترة ثلاثة أسابيع على فراش القش نفسه، وأصبحا صديقين، وتعاهدا على المراسلة، إذا نجوا.

وعلم من أحد الناجين أن الشقي فاضت روحه من ضرب السجناء الألمان لأنه وهو في هذيان الجوع والبرد والحمى أنشد المارسييز (النشيد الوطني الفرنسي). وأشرف رجال الشرطة العسكرية على المأساة بابتسامة عريضة، وقد وجدوا أن هذا الأسلوب أكثر تسلية من طلقات المسدس المملة الرتيبة. وقال في نفسه:

– باراي!.. ليس هناك نصيب في تنفيذ الوعد.

وابتعد وهو يفكر أن هناك حقاً قدراً في سير الأمور وأن بعض الهواجس تتحقق في الحياة: منذ خمسة عشر يوماً على الأقل، كان باراي يقسم بربه العظيم أن الحرية ستعم الجميع يوم الاثنين الذي يقع بعد أسبوع من عيد الفصح... وعاهد نفسه، مع ذلك، أن يكتب إلى أرملته وولديه، الذين طالما تحدثا عنهم مساء حين يحل وقت النوم.

وقد روى له الناجي -كان يقول الناجي!- قصة القافلة... بعد أن تجاوزت المحطة بكيلومترين، توقفت، فجر يوم السبت، وأنزل أفراد الشرطة العسكرية كل

الرجال الأصحاء، وجمعوهم في صف طويل لا نهاية له اختفى داخل الغابات، بين نباح الكلاب وطلقات النار القاتلة. وتركوا هناك الموتى والمحتضرين وكل من كان له الحظ بفضل البلبلة العامة أن يبدو كذلك: وكان جلياً أنه كان الكثير من هؤلاء، بيد أنه لم يكن لديهم الوقت الكافي لقتلهم فرداً فرداً.. لا وقت لذلك أو لا مزاج. وقد تبين فيما بعد أنه لم يكن لديهم أمر بالقيام بذلك.

وتابع بحثه. في مقطورة مفتوحة على الملأ دون أن يهتم بها أحد، كانت أجساد حية ترتعش على الرغم من الشمس الساطعة، انبعثوا من بين كتل الموتى، كانوا يتراصون ليحموا أنفسهم من برد لا يشعر به سواهم.

- ماذا تنتظرون؟

- حسناً... ننتظر الهلاك، ألست ترى؟

- ماذا؟

- لا زال بيننا أربعة عشر من الأحياء، والآخرون ماتوا جميعاً، وكل منا ينتظر دوره...

ولم يدرك مدى هذا الزهد في التعلق بالحياة. وأخذ يفكر:

- هؤلاء استسلموا، ولا داعي للاهتمام بهم... وقد أصبحوا في الجانب الآخر، وبهذا يشعرون بأنهم في حال حسنة. إنهم يستقبلون الحياة كأنها عقاب يتعجلون في أن يزال عنهم.

ومضى غير مبال، ما أكثر الناس الذين عرفهم في المعسكر الذين يجرون بأذيالهم نوعاً من القدر ولا يمكن ملاقاتهم دون التفكير بأنهم قد ماتوا، وأن جثتهم ما تزال حية فيهم بشكل ما. لم تكن تفوتهم فرصة دون أن يقتربوا منك ويلقّنوك أن الحرب ستنتهي بعد شهرين، وأن الأميركيين أصبحوا هنا، والروس كذلك، وألمانيا في ثورة، الخ... كانوا مثيرين مزعجين. وفي يوم من الأيام ما عاد أحد يراهم: انقضى الشهران، ولم يروا شيئاً يحصل، فضاع أملهم فاستسلموا للموت في

الوقت المحدد، وهؤلاء ضاع عماد أملهم، فالشهران انقضيا الآن، يوم الحرية! كان يعرف بالتجربة أنه لا يمكن القيام بأي عمل.

وبعد أن ابتعد خطوتين أنّبه ضميره:

- لا تبقوا هكذا، تخلصوا، الأميركيون هنا، إنهم يفرغون المقطورة المجاورة، سيصلون إليكم، سيطعمونكم، هناك مستشفى في القرية.

لم يصدقوه، ولكنه فعل ما بوسعه.

عشر، اثنتا عشرة، خمس عشرة مقطورة، موتى، محتضرون:

- الموت هنا!... الحضور للموت هنا!

في مؤخرة القطار كانت المؤونة: أكياس البسلّة، الطحين، المعلبات، رزم من كل ما يمكن تخيله من بدائل المواد الغذائية، المشروبات الكحولية، البيرة، الخمور، الألبسة، الأحذية، قطع التبديل، إلخ... أخذ كيس جندي وحذاءً إيطالياً ذا وجه قماشي، ونعلاً منبسطاً، يلائم قدميه ملاءمة جيدة، ومضى، على عجل ليغادر كل هذا البؤس.

مع ذلك كان يود رؤية معسكر خدمة العمل هذا، على بعد خطوتين، حيث قال له القائد أنهم ينقلون الأحياء: كانت مساحة كبيرة من الأرض محاطة بأبنية خشبية، وكانت هناك هياكل عظمية تروح وتغدو، كانوا يضغطون بأيديهم على أمعائهم التي تتلوى، وكانت هناك جثث متناثرة. كانوا حوالي خمسمائة أو ستمائة. وهناك ممرضون متطوعون منهمكون بينهم، يتراكضون من واحد إلى آخر، ويبذلون عبثاً ما في وسعهم لجعلهم يدركون أنه يجب عليهم البقاء بهدوء متمددين على فرش القش داخل البراكات. وكان من النادر أن تجد بينهم الإرادة في النظرة والرغبة بالحياة في القلب؛ والذين استطاعوا إنقاذهم بدؤوا بالموت بسبب الإسهال الزحاري، إذ أنهم استهانوا بالنصائح المعطاة لهم وأقبلوا بشراهة على المؤونة الموزعة عليهم بسخاء: كانوا يأكلون ثم يشعرون بأشد الحاجة إلى الهواء، ويرغبون

في الرحيل فيتساقطون موتى في الساحة... كلا، كلا، ليس هذا هو المكان المناسب له؛ كانوا على مقربة من خطوط التماس، وما زالوا يسمعون قصف المدافع شديد الوضوح، سيرحل إلى النهاية ولو اقتضى الأمر أن يكون الرحيل على قدميه: ودارت في خلده عودة أوليسيوس...

وتوجه نحو الدارة التي نام فيها ليلة أمس، وكان ينتظره انقباض صدر جديد. في غضون ذلك شاهد جندياً أميركياً، على باب مستودع للحبوب يود لو يدكّه وهو يتسلى.

والحق يقال، لم تكن هذه دارة، بل بيتاً صغيراً لمهندس أو متقاعد يشبه البيوت الكثيرة من أمثاله في فرنسا، محاطاً بالحديقة والشبك؛ كان قد رآه بالأمس مهجوراً، وأبوابه كلها مفتوحة. وفي المطبخ لم ترفع الأطباق عن المائدة: جبنة بيضاء في طبق، ومربى -المرملاد الألماني- في طبق آخر. في قاعة الطعام، كانت أبواب الخزانة منفرجة؛ والبياض وأشياء أخرى مكدسة على الديوان والطاولة والكراسي بشكل مرتجل؛ وكانت إحدى الحقائب قد فتح غطاؤها وهو ينتظر. وكانت غرفة النوم على أتم ترتيب، وقد أحس داخل هذا المنزل الإحساس المفاجئ بالخطر لأناس ميسورين لم يضع أملهم حتى النهاية وانتظروا اللحظة الأخيرة كي يرحلوا. وقال في نفسه:

– ليسوا بعيدين، وسيعودون بين لحظة وأخرى.

ونام في السرير الكبير الموجود في غرفة النوم، وفي الصباح تكاسل هناك وهو يدخن سيجارة، وتمطّى داخل حرارة الأغطية، تحت حزمة عريضة من أشعة الشمس التي كانت تنعكس على الأثاث المبرنق. ولدى مغادرته ذلك المنزل ليلقى القائد، حوالي الساعة العاشرة صباحاً، فكر فيما كان قد حدث معه عام ١٩٤٠، حين أراد، خلال انسحابه من الألزاس، أن يمر للمرة الأخيرة على بيته. رأى نفسه ممسكاً بقلم ليكتب ورقة كان يود أن يعلقها على الباب، لو لم يمنعه في اللحظة

الأخيرة نوع من الإباء: استخدم كل شيء، لا تسرق شيئاً، لا تكسر شيئاً، لا تنتقم بالأشياء مما تأخذه على الأفراد... لا تجعل من الأفراد ما تعتقد أنه خطأ المجتمع. لم يأخذ من خزانة البياض سوى ما لا يستغني عنه: قميص، سروال، منديل، ومن تحت صوان المطبخ أخذ صندلاً من تقليد الجلد جعل القائد يضحك كثيراً... وقاوم إغراءً شديداً، خلال مروره أمام المرآب في الحديقة، في اللحظة الأخيرة، قبل خروجه، إذ رفع الستار عن سيارة أوبل رائعة.

والآن، اختفى كل شيء، كانت الأوبل بعيدة، والأثاث مخلوع، والبياض مسروق، والآنية مكسورة.... وقال في نفسه:

– وأنا الذي انتابني كثير من الوسواس، الحرب آه، الحرب!

على منضدة الليل، كانت الساعة المنبهة التي لاحظها بالأمس وقد بقيت على حالها، بمعجزة، كانت تشير إلى الثامنة عشرة والنصف. وارتمى بكامل لباسه على السرير ونام.

* * *

وفي الصباح الباكر لليوم التالي، وتحت شمس ساطعة، اتخذ طريقه... كان قصف المدافع ما زال يدوي: وخلفه كانت آلات الحرب الشديدة ما تزال تتصاعد نحو هجوم جديد؛ وفي مخرج القرية، وأمام منزل منعزل، كان بعض المدنيين يطبخون شيئاً ما في قدر معدني موضوع على حجرتين، كانوا ستة أشخاص، بثياب رثة، لم يغتسلوا ولم يحلقوا لحاهم، متسخين، ووجد أحدهم يوقد النار بكتب يأخذها من كومة مكدسة. واقترب وقد ثار فضوله: كانوا من المتطوعين البلجيكيين والهولنديين، والكتب كانت من مكتبة الشبيبة الهتلرية.

وألقى نظرة سريعة على عناوينها: نقد عن فيورباخ، اللصوص لشيلر، كانت والأخلاق، غوته، هولدرلن، فيخته، نيتشه، الخ... كانت جميعها هناك وكأنها على موعد مأساوي، وسط سادة من سلالة أقل نبلاً، من أمثال غوبلز وشترايشر، ليتم

نشرها. كان الورق جيداً، والتجليد متواضعاً، والعرض جيد الصنع. كان دائماً يشعر بميل إلى الكتب مهما كانت، ولمح واحداً منها: أنت والفن، لأحد قادة الحزب النازي. فتحه بصورة آلية ووجد نسخة بالألوان للوحة «الحرية تقود الشعب» للفنان دولاكروا وتصفح بحذر أكثر فرأى: الزهور لمانيه، وتفصيل لرينوار، والجوكندا، ومدام ريكانيه، وشهيد سان سيباستيان. وقد آلمه التباين مع الجحيم الذي كان خارجاً منه، فطلب السماح له بأن يأخذ الكتاب، الذي كان مع ذلك ثمرة هذه الحضارة التي كانت شديدة القسوة عليه، التي ستدهش وتثير استنكار العالم حتى نهاية الزمان. وتم السماح له مع ابتسامة وتهكم، حقاً، لقد كان من الصعب أن يدركوا ذلك.

واتجه إلى الغرب، مع الشعور المسبق أنه لن يصادف سيارة إسعاف ذات نية حسنة، وأنه سيمضي على قدميه حتى النهاية... وفجأة أحس أنه على عتبة مغامرة جديدة ولو أنه في زمان آخر وتحت سماء أخرى، فإنها تشبه مغامرة أوليسيوس التي تذكرها أمس.

رأى أمامه طرقات، وفلاحين في الحقول، وأحراج من الزهور، والأشجار ذات البراعم، والمزارع، والناس الذين يسألونه عن قصته فيرويها لهم برحابة صدر، وطرقات، وطرقات أيضاً، وهناك في أعماق هذه الآفاق من السراب، بيت صغير بين أشجار العفص في ضاحية مدينة صغيرة. في الساحة الصغيرة، كان طفل صغير ما زال في الثانية من عمره، يلعب بالرمال، رفع عينين نجلاوين بدت عليهما الدهشة لدى رؤيته قادماً في ثياب السجناء.... وتحرك لسانه:

– ما اسمك، يا صغيري؟ أين أمك؟....

وبكى.

سان نكتير، الأول من أيلول ١٩٤٨

الجـــزء الثاني

2

تجربـــة الآخـــريـــن*

* صدر عام ١٩٥٠ بعنوان تُرّهات أوليسيوس

إلى أولئك الذين لم يطيقوا التضليل:

- ليس لتلك الوطنية البالية التي ترى في الحقد كل مادتها.

- ولا لذلك العداء للفاشية الذي لا عمق له ولا هدف، مكتفياً بتبرير نفسه ببعض (الحقائق) عن الأحوال....

.... ولبعض الآخرين

الفصل الأول

أدب المعتقلات

على الصعيد السياسي، تم تجاوز معسكرات الاعتقال الألمانية. وعلى الصعيدالأدبي تم «استهلاكها». وبعد أن تخلى الرأي العام عنها، وكأن ذلك تم بإيعاز خفي، مجتازاً المراحل بحيوية، توقف لدى المعسكرات الروسية.

ومع شعوري، على الوجه الأكمل بواقع هذه الحال، فقد نشرت حديثاً، عن نظام المعتقلات الهتلرية، شهادة محددة بدقة لتجربتي الشخصية. وبطبيعة الحال، وصلت متأخراً بعض الشيء وهذا ما تمت ملاحظته، والآن أكرر أخطائي على شكل آخر: لن يفوتهم القول إني أكابر بلا روية وضد التيار؛ وعلى هذا، من المناسب، قبل كل شيء أن أعتذر علناً.

في المعسكر نفسه، كانت كل أحاديثنا، التي كانت تسمح بها لحظاتنا النادرة مرتكزة على ثلاثة موضوعات: التاريخ المحتمل لانتهاء الحرب، حظوظنا الفردية أو الجماعية في النجاة منها، وطبخات الأيام التالية مباشرة، وما يمكن أن يطلق عليه «إشاعات» المعسكر، إذا كان لهذه الكلمة علاقة مع الواقع المأساوي الذي تدل عليه. ولم يكن أي من هذه الموضوعات الثلاثة يمنحنا الإمكانات الواسعة في الهروب من الحال التي كنا نحياها في تلك الفترة: بل على العكس، كانت تقودنا، متفرقة كانت أم مجتمعة، حسب الوقت الذي كنا نتمتع به لاستعراض عالمنا الضيق، إلى المحاولة الأدنى، بواسطة «حينما سنروي ذلك...» تلفظ بلهجة فيها تأكيد بنظرات فيها وميض كنت أخشاه. واعترافاً مني بعجزي، بشكل أو بآخر، عن تصعيد وعيي إلى ما فوق الجو السائد، انطويت على ذاتي وتحولت إلى شاهد صامت عنيد.

وبدون أن أشعر وجدتني عائداً إلى صبيحة الحرب الأخرى، إلى المحاربين القدماء، إلى رواياتهم وكل أدبهم، ولا شك أن ما بعد هذه الحرب سيشهد زيادة عن ذلك، أسرى قدماء، ومرحّلين قدماء ممن سيعودون إلى بيوتهم مع ذكريات أشد هولاً. وبدا لي أن الطريق مفتوح أمام الإدانة الجماعية وإدانة الأفراد العلنية باسم المجتمع. وفي المجال الذي تمكنت فيه من تجريد مصيري الشخصي عن المأساة الكبرى التي كانت تجري، كان كل آل مونتيغو وآل كابوليت وكل أهل أرمانياك وأهل بورغينيون الذين عرفهم التاريخ يستعيدون خصوماتهم منذ البداية، ويشرعون بالرقص أمام عينيّ رقصة السربند الجامحة، في مشهد مكبر على الصعيد الأوروبي. ولم أنجح في التصور أن تقاليد الحقد التي كانت على وشك الانبعاث أمام عيني، يمكن أن تتوقف مهما كانت نتيجة هذه الحرب.

ولو حاولت تقدير النتائج الناجمة عن ذلك لكفاني أن أفكر أن لي ابناً سيفضي به الأمر إلى عدم الاكتفاء بسؤالي: أما كان من الخير ألا يعود أحد فحسب ولكن أن يتمنى لو أن السلطات العليا في الرايخ الثالث أدركت من قبل أنها لن تحصل على الغفران، إلا إذا ضحّت تضحية شاملة هائلة بكل من بقي من أهل المعسكرات لخلاص البشرية من كثير من الشر. وقررت، بعد ما دار بخلدي، أني إذا عدت، أن أكون قدوة: وعاهدت نفسي ألا أتطرق لا من قريب ولا من بعيد إلى ما حصل معي.

وخلال فترة من الزمن، بدت لي طويلة، وحتى بعد فوات الأوان، حافظت على عهدي: ولم يكن ذلك بالأمر اليسير.

أولاً، كان عليّ أن أقاوم نفسي. وعلى هذا الصعيد، لن أنسى تظاهرة نظمها المرحّلون في الحقبة الأولى في بيلفور للإعلان عن عودتهم، وترك أهل المدينة جميعاً أعمالهم ليستمعوا إليهم ويتلقوا رسالتهم. وكانت كبرى صالات بيت الشعب غاصة بهم. وكانت الساحة الأمامية سوداء من كثرة البشر. وكان عليهم تمديد مكبرات

الصوت حتى الشارع وكنت شديد الأسف إذ لم يمكّني وضعي الصحي من حضور هذه التظاهرة مستمعاً ولا خطيباً. وكان أسفي أشد في اليوم التالي حين حملت إليّ صحف اليوم التالي البرهان، من خلال كل ما ذكر، أنه من المستحيل قطعاً بناء رسالة صحيحة. كانت تخوفاتي في المعسكر لها ما يبررها، ولكن الجمهور لا يسهل خداعه: فلن يمكن فيما بعد جمعه للغرض نفسه.

كان علي أيضاً أن أناضل ضد الآخرين: فأنّى ذهبت فهناك دائماً سواء في حديث ما بعد الطعام أو مع كوب الشاي، إحدى الثرثارات المتميزات بمرض الانفعالات النادرة، أو صديق خيّر يعتقد أنه يسدي إلي خدمة وهو يلفت الانتباه إلي ليجذب الحديث حول الموضوع: أحقاً أن؟.... هل تعتقد أن؟... ما رأيك بكتاب الـ ؟.... كانت كل هذه الأسئلة، وهي ليست مستوحاة من فضول منحرف، تكشف علناً عن الشك والحاجة إلى المجابهة؛ كانت ترهقني. وبأسلوب منهجي كنت أضع حداً لما لا يمر دون أن يثير أحياناً أحكاماً قاسية.

وأدركت ذلك، ولو كنت أحس بشيء من الغيظ، وألقيت بالمسؤولية على رفاقي في المصيبة، الذين نجوا مثلي، الذين لا ينفكون عن نشر الروايات التي غالباً ما تكون خيالية، والتي يضفون فيها على أنفسهم، عن طيب خاطر، مظاهر القديسين والأبطال والشهداء. كانت كتاباتهم تتراكم على منضدتي مثل الإغراءات. ولدى اقتناعي بأن الوقت قد حان لأكون مضطراً للخروج عن تحفظي وأن أقوم بنفسي بسلب ذكرياتي طابعها القدسي المحرم على الجمهور، فقد فوجئت بنفسي أرى في الكلمة المنسوبة إلى (ريرا) من أنه يجب بعد كل حرب، قتل جميع المحاربين القدماء. رأيت هذه الكلمة تستحق أن تكون أكثر من مجرد مزاح.

وجاء يوم أدركت فيه أنه تم اختلاق فكرة زائفة في أذهان الرأي العام عن المعسكرات الألمانية، وأن قضية المعتقلات ظلت على ما هي عليه على الرغم من كل ما قيل عنها، وأن المرحلين، لو لم يعد لهم أي تأثير، لما أسهموا إسهاماً فعالاً في

جرّ السياسة الدولية إلى مسالك خطرة. فالقضية خرجت من إطار الصالونات. وفجأة شعرت أني بعنادي، أغدو متواطئاً في سلوك سيء. وبجرّة قلم، وبدون أي اهتمام ذي طابع أدبي، وبأسلوب بسيط قدر الإمكان، كتبت كتابي «اجتياز الخط» لأعيد الأمور إلى نصابها، وأحاول في الوقت نفسه أن أعيد الناس إلى حسّ الموضوعية وإلى مفهوم أكثر قبولاً لدى النزاهة الفكرية.

واليوم يأتي الرجال أنفسهم الذين قدموا معسكرات الاعتقال الألمانية إلى الجمهور، ليقدموا المعسكرات الروسية وينصبوا الشراك نفسها في طريقه. من هذه العقلية نشأت بين دافيد روسيّه من جهة، وجان پول سارتر وميرلو-بونتي من جهة أخرى، مناظرة، كل ما فيها لا يمكن إلا أن يكون مغلوطاً، لأنها ترتكز أساساً على المقارنة بين الشهادات التي قد لا تكون قابلة للطعن – أقول: قد –للناجين من المعسكرات الروسية وشهادات من ليسوا بالتأكيد من الناجين من المعسكرات الألمانية.... ولا ريب أنه لم تكن هناك أية فرصة مواتية لإعادة وضع هذه المناظرة على الدروب التي كان عليها أن تسلكها. سبق السيف العذل: إذ خضع المتنافسون إلى أمور مطلقة أكثر من الطبيعة ذاتها للأمور موضع النقاش.

ولكن هذا لا يمنع التفكير في أن المناقشات في المستقبل حول قضايا المعتقلات ستصل إلى الانطلاق إلى إعادة النظر العامة في الأحداث التي كانت المعسكرات الألمانية مسرحاً لها من خلال حشد الشهادات التي أثاروها، ولدى قناعتي بهذه الفكرة، أصبح لزاماً علي أن أجمع وأنشر العناصر الأولى لإعادة النظر هذه. وهذا ما يشرح ويبرر وجهة النظر هذه حول أدب المعتقلات.

سيدرك القارئ الآن، بعد أن تأخرت كثيراً في الكلام، أني إذ ما أزال أحاول، بعد أن صَمَتَ العالم بأسره، وبدا أنه لم يعد لأحد ما يقوله، أن أعيد الشباب إلى موضوع، أدركته الشيخوخة، في نظري، قبل الأوان، فبإمكاني الاعتقاد أن لي الحق في أن أسأله الاستفادة من الظروف المخففة، وهذا ما سيكون

موضع اهتمامي الأول.

* * *

إن تجربة المحاربين القدماء التي هي أحدث من أن تذهب عبثاً، لا تألو جهداً في تقديم مقارنة مقنعة.

كانوا قد عادوا ولديهم رغبة عارمة في السلم، وقد أقسموا بكل القديسين أن يبذلوا ما في وسعهم لتكون هذه الحرب آخر الحروب، وقد تم التعبير عن الامتنان لهم، والعرفان المشوب بالإعجاب. وفي غمرة الفرح والأمل والحماس، هبت الأمة بأسرها لاستقبالهم استقبالاً ودوداً واثقاً.

ومع ذلك، فقد كانوا عشية هذه الحرب موضع انتقاد شديد، وقد تم التعليق على شهاداتهم بكثرة وفي اتجاهات مختلفة، وأقل ما يمكن قوله عن ذلك، أن الرأي العام لم يكن متساهلاً معهم، على نحو أقل من أن يدركوه أو يشغل بالهم. وغالباً ما كان جائراً. فحينما كان يميّز بين خطبهم وحكاياتهم، لم يكن يألو جهداً في أن يصدر أحكاماً حاسمة عليهم أشبه ما تكون بالوقاحة. كان يسخر من أصحاب الخطب، سواء أكانوا من الخرِفين -وهذه الكلمة التي كان يستخدمها- الذين كانت ذكرياتهم تقف حائلاً أمام كل الأحاديث، أم قادة الروابط على مستوى المحافظة أو على المستوى الوطني، الذين كانت مهمتهم، على ما يبدو، مقتصرة على المطالبة بالحق الإلهي. وكان في غاية الصراحة مع الكتّاب، ولم يعترف إلا بشهادة واحدة وهي: النار، للكاتب باربوس؛ وفي لحظات تساهله النادرة، يستثني بعض الاستثناءات، وهذا ما حصل بالنسبة لغالتيه - بواسيير ودورجيليس ولكن لأسباب أخرى: فالأول نظراً لمسالمته الساخرة والعنيدة، أما الثاني فنظراً لقناعته بواقعيته.

من سيذكر الأسباب الحقيقية لهذا الانعطاف؟

في رأيي، إنها تنضوي بأسرها ضمن إطار هذه الحقيقة العامة: إن الناس أكثر اهتماماً بالمستقبل الذي يحقق تطلعاتهم، من الماضي الذي لم يعودوا

ينتظرون منه أي شيء، ومن المستحيل تجميد حياة الشعوب في حدث مهما كان منقطع النظير، وخاصة في حرب أصبحت ظاهرة تميل إلى الابتذال والتقادم، على أية حال، وسريعاً في إطار السمات الخاصة بها.

عشية حرب ١٩١٤، كان جدي الذي لم يكن قد انتهى بعد من هضم حرب ١٨٧٠، يروي أحداثها طوال يوم الأحد على أبي الذي كان يتثاءب من الملل؛ وعشية حرب ١٩٣٩ لم يكن والدي قد انتهى من رواية حربه، ولئلا يكون كلامي ناقصاً، لم أكن أتمالك نفسي من التفكير أن القائد دوغسكلان لو بُعث بيننا مع مفاخرة بالمآثر التي حققها بقوسه القديم لما كان أكثر إثارة للسخرية.

وهكذا فإن الأجيال تتعارض بمفاهيمها، وتتعارض أيضاً بمصالحها. وهذا ما يدفعني إلى القول، تفصيلاً، أن في فترة ما بين الحربين، كان لدى الأجيال الصاعدة شعور بأن من المستحيل عليهم تحقيق أدنى وثبة في سبيل تحقيق مستقبلهم دون الاصطدام بالمحارب القديم، وادّعاءاته وامتيازاته. لقد أقرّوا له بحقوق علينا، وكان يستفيد منها ليطالب دون توقف بحقوق أخرى. وهكذا فإنها حقوق مجرد المعاناة في حرب طويلة الأمد تم كسبها لا يمنح أولئك الجديرين ببناء السلام أو أولئك الأكثر تواضعاً استحقاقهم في إنشاء مقهى أو وظيفة ناطور أو مسابقة تعليم.

وتم الطلاق دون الأمل في العودة في الثلاثينات مع الأزمة الاقتصادية، وتفاقم عام ١٩٣٥، بسبب نسيان المحاربين القدماء، وتعاهدهم على العودة، وقبولهم السهل للغاية لاحتمال نشوب حرب جديدة، وإرادة السلام لدى الأجيال الصاعدة. وهذا هو أحد قوانين التطور التاريخي الذي يكمن في أن الأجيال الشابة من أنصار السلام، وبهم، على مدى العصور، توطدت الإنسانية تدريجياً في السعي إلى السلام الشامل، وأن الحرب دائماً، وإلى حدّ ما، هي ضريبة استيلاء المسنين على الحكم.

ومع تقدم هذا وما يلائمه من احتياط، بدا مع ذلك أن المحاربين القدماء ارتكبوا خطأ في وجهة نظرهم ضاعفه خطأ في المجال النفسي. وعلى كل حال، وبعد عشرين عاماً من التحريض العنيد المستمر، لم تمس خلالها قضايا الحرب والسلم إلا بصورة سطحية، بقيت هذه القضايا على ما هي عليه؛ والحق يقال، مع ذلك، وهذا أمر لا يجوز أن ننكره عليهم: أنهم رووا حربهم، كما حصلت. وفي كل كلمة كتبوها أو رووها، كان يتم الشعور بعمق صدقها أو على الأقل بمصداقيتها. وهذا ما لا يمكن أن يقال عن المرحِّلين.

المرحلون عادوا مع الحقد والضغينة على لسانهم وفي أقلامهم. ومن المؤكد أنهم ارتكبوا الخطأ نفسه في المنظور وفي المجال النفسي الذي ارتكبه المحاربون القدماء، أضف إلى ذلك أنهم لم يشفوا من آثار الحرب وطالبوا بالثأر. كانوا يعانون من عقدة نقص في أن يتحدثوا إلى أربعين مليوناً من السكان،لم يعد يوجد منهم سوى ثلاثين مليوناً وفي أسوأ حال، ليستدروا بتأكيد أكثر الشفقة والعرفان، فراحوا يبذرون بذور الرعب على هواهم أمام جمهور سبق أن عرف مجزرة أورادور، وما يزال يرغب في سماع ما يثير.

كان بعضهم يحرّض بعضهم الآخر، وكأنما أخذتهم دوّامة، فتوصلوا تدريجياً، دون شعور من بعضهم، وبدراية بعضهم الأكثر عدداً إلى رسم لوحة أكثر قتامة. وهكذا كان أوليسيوس الذي يقوم بالخارق من الأمور، وكان على مدى رحلته يضيف كل يوم مغامرة جديدة إلى ملحمته (الأوديسة)، سواء أكان ذلك ليرضي ذوق جمهور ذلك العصر، أم ليبرر غيبته الطويلة في نظر أهله. ولكن إذ نجح أوليسيوس في إبداع أسطورته واسترعاء الانتباه إليها على مدى خمسة وعشرين قرناً من التاريخ، فليس من المبالغة القول إن المرحلين فشلوا في ذلك.

سار كل شيء على ما يرام في الفترة الأولى بعد التحرير. ولم يكن يستطاع الاعتراض على شهاداتهم دون التعرض إلى الشبهة، وإذا تم ذلك فلم يكن يلقى

استحساناً، ولكن رويداً رويداً، وكما تتم الأمور في صمت المؤامرة، بدأت الحقيقة تثأر لنفسها. وقد ساعد في ذلك مرور الزمن والعودة إلى حرية التعبير في شروط عادية أكثر وأكثر في الحياة؛ فانفجرت في وضح النهار. فتمكن بعضهم من الكتابة مع العزم على التعبير عن الألم المشترك في ألاّ يمر الخداع:

«من جاء عن بعد يمكنه الكذب على هواه... لقد قرأت العديد من حكايات المرحّلين: وطالما شعرت بالتكتم أو التحريف، حتى داڤيد روسيّه، يضللنا أحياناً: إنه كثيراً ما يعلل».

الأب ماريوس پيرّان

أستاذ في الكلية الكاثوليكية في ليون

(مجلة لوبيي روانيه، ٢٧ من تشرين الأول ١٩٤٩)

وأيضاً:

«المرحلة الأخيرة فيلم أحمق أو غير موفق»

روبير پيرنو

(پاول فرانسين، ٢٧ من تشرين الثاني ١٩٤٩)

وعن كل شيء لم يكن أحد ليجرؤ في الحديث عنها أو حتى يفكر في ذلك مثل كتب النار، أو الصلبان الخشبية، أو الوهم الكبير، أو لا جديد في الغرب، أو أربعة في سلاح المشاة.

لقد أمضى المحاربون القدماء خمس عشرة سنة قبل أن يفقدوا ثقة الرأي العام؛ ولم يكن يلزم سوى أقل من أربع سنوات لحرق المرحلين لكل سفنهم، مع أنهم أمضى سلاحاً. وبهذا الفارق اليسير، كان مصيرهم السياسي مشتركاً.

وهذه هي أهمية الحقيقة في التاريخ.

* * *

أودّ أيضاً أن أروي طرفة صغيرة شخصية تعدّ نموذجية بما تعبر عنه من أن القيمة هي نسبية فيما يعتمد عليه في الشهادات بوجه عام.

جرى المشهد أمام إحدى المحاكم في خريف ١٩٤٥؛ وكانت امرأة تجلس في قفص الاتهام، ولم تفلح المقاومة التي كانت تتهمها بالتعاون مع الألمان في قتلها قبل وصول الأميركيين، ولكن زوجها خرّ صريعاً برصاص رشيش في إحدى زوايا شارع مظلم، في إحدى أمسيات شتاء ١٩٤٤-١٩٤٥، ولم أعلم قط ماذا فعل الزوج والزوجة اللذان كنت سمعت عنهما قبل اعتقالي أكثر الأقاويل بعداً عن المنطق. ولدى عودتي، وحرصاً مني على الوقوف على جلية الأمر، ذهبت إلى قاعة المحكمة.

لم يكن هناك شيء يذكر في الملف. وكان الشهود كثيري العدد عديمي الشفقة. وكان الشاهد الرئيس بينهم أحد المرحلين وهو رئيس قديم لإحدى مجموعات المقاومة المحلية -كما ذكر! وكان يبدو القلق على القضاة إذ أن الاتهامات المسندة تقوم على أدلة قابلة للاعتراض.

وكان محامي الدفاع يبحث عن ثغرة في الشهادات ووصل الشاهد الرئيس، وأوضح أنه تمت الوشاية بعدد من أفراد مجموعته إلى الألمان، وهذا لا يمكن أن يتم إلا من المتهمة وزوجها اللذين كانا يعيشان في صحبتهم ويعرفان كل ما يقومون به من نشاط؛ وأضاف أنه رأى بأم عينيه المتهمة وهي تُجري حديثاً ودياً، وربما غرامياً، مع ضابط من الحامية الألمانية كان يسكن في الساحة الواقعة خلف حانوت أهلها، وأنهما تبادلا أوراقاً، إلخ....

المحامي - أنت تتردد إذن على هذا الحانوت؟

الشاهد - نعم بالضبط، لأراقب تلك التجارة.

المحامي - هل يمكنك أن تصفه؟

(استعد الشاهد للعبة بمنتهى طيب الخاطر، وبيّن موضع المكتب، والرفوف، والنافذة الداخلية، وحدد الأبعاد التقريبية، إلخ... وكل الأشياء التي لا تثير أي

اعتراض).

المحامي – إذن فقد شاهدت من خلال النافذة الخلفية التي تطل على الساحة، المتهمة والضابط يتبادلان الأوراق.

الشاهد – تماماً.

المحامي – إذن يمكنك أن تحدد المكان الذي كانا يوجدان فيه في الساحة وأين كنت تقف في الحانوت؟

الشاهد – كان المتواطئان في أسفل الدرج المؤدي إلى غرفة الضابط، والمتهمة تستند بمرفقها إلى الدرابزون، والمتحدث إليها كان قريباً جداً منها مما يحمل على الاعتقاد أن...

المحامي – هذا يكفيني (ثم توجه إلى هيئة المحكمة ومدّ يده بورقة): أيها السادة، لا يوجد أي مكان، يمكن من خلاله رؤية الدرج المشار إليه: وهذا هو مخطط المكان قام به مهندس ذو خبرة.

(شعور بالإثارة، قام الرئيس بفحص الوثيقة، وأطلع عليها مساعديه، واتضح الأمر وتوجه إلى الشاهد):

– هل تصرّ على شهادتك؟

الشاهد – أي أن... لست أنا الذي شاهدت... ولكن واحداً من رجالي هو الذي زودني بتقرير بناء على طلبي.... وأنا....

الرئيس (بجفاء) – يمكنك الانصراف.

وليس هناك أهمية لما حصل بعد ذلك إذ أن الشاهد لم يوقف أمام هيئة المحكمة لإهانة المحكمة أو شهادة الزور، وإذ أن المتهمة اعترفت أنها كانت تتابع دورات المعهد الفرنسي –الألماني، مما تسبب، كما قالت، ببعض علاقات الصداقة بينها وبين بعض ضباط الحامية الألمانية، فقد تمت إدانتها بعقوبة السجن بسبب مجموعة من الأحوال التي لا تنالها إلا بصورة ضمنية.

ولكن، لو تمت ملاحقة الشاهد حتى معقله الأخير، لكان من المحتمل معرفة أن الرجل الذي زعم أنه طلب إليه كتابة التقرير رجل وهمي وأن شهادته لم تكن سوى تجميع من القيل والقال الذي يسمم جوّ المدن الصغيرة حيث يعرف الجميع بعضهم بعضاً.

إنني أستبعد فكرة مقارنة جميع الشهادات التي ظهرت حول معسكرات الاعتقال الألمانية بهذه الشهادة. وما أقصده بكلامي يقتصر على إثبات أنه كان هناك من حصلوا على كل مبتغاهم منها، بما فيهم أولئك الذين لم نجمهم في الرأي العام. وإذا تركنا جانباً النية الحسنة أو السيئة فهناك كثير من الأمور الخفية التي تبسط نفوذها على الراوي، وأن من الواجب دوام الحذر من التاريخ المروي، وخاصة إذا كان الحديد لا يزال حامياً. إن كتاب «أيام موتنا» الذي يكرس الموهبة المتميزة لداڤيد روسيّه هو من الغلاف حتى الغلاف، وفي أغلب الأحداث التي يستند إليها الكاتب، هو إن لم يكن مجموعة من القيل والقال الرائجة في كل المعسكرات والتي لا يمكن قط التحقق من صحتها في مكانها، فهو على الأقل سلسلة من الشهادات المتناقلة والمرتبة – بانسجام، إذ يجب الاعتراف بذلك– في مخطط يخدم تفسيراً خاصاً.

في هذا المؤلَّف، حيث المطلوب هو الحقيقة لا المهارة لا يوجد أي مقطع من نص معتمد.

إن النصوص التي أستشهد بها منقولة حرفياً، وأغلبها مسبوقة أو متبوعة بتعليق شخصي.

ومن أجل سهولة المقارنة، قمت بتصنيف كتّابها إلى ثلاث زمر: أولئك الذين لا يوجد أي دليل على صدق شهادتهم والذين سأطلق عليهم –دون أية نية في الانتقاص من قدرهم– اسم الشاهدين القاصرين؛ وعلماء النفس الذين هم ضحايا نزعة شديدة الوضوح إلى الحجة الذاتية؛ وعلماء الاجتماع أو المعدودين كذلك.

وزيادة في الحذر حتى من نفسي، كي لا أُتّهم بالحديث عن أشياء تقع في معزل بعيد عن تجربتي الخاصة، فأقع في الخطأ الذي ألوم فيه الآخرين، وأتعرض بدوري لبعض التشويه لقواعد النزاهة الفكرية، فقد أحجمت عمداً عن عرض جدول كامل عن أدب المعتقلات. فليس هنا سوى وجهة نظر، وأنا أؤكد على ذلك أيضاً؛ وجهة النظر هذه لا تتناول سوى الأحداث والحجج التي استطعت تقديرها بنفسي.

وهكذا فإن عدد الكتاب موضع النظر محدود بالضرورة في كل زمرة وهم بالإجمال: ثلاثة شهود قاصرين(١) (الأب روبير پلوتون والأخ بيران من المدارس المسيحية في إيپرناي، والأب جان پول رينار)، وعالم نفس هو (داڤيد روسيه) وعالم اجتماع (أوجين كوغون)، وخارج إطار هذه الزمر: مارتان شوفيّه. وبما أن المصادفة السعيدة شاءت أن يكونوا الأكثر تمثيلاً، فإن وضوح العرض يستفيد من ذلك، وسبل إعادة النظر في قضية المعتقلات لن تكون في ذلك إلا أكثر بياناً.

بطبيعة الحال، سيحاول القارئ أن يضع هذه الإيضاحات المتعلقة بمأساة الترحيل المريرة، في مواجهة مجمل نتائجها المفجعة، على الصعيد البشري، وقد يستخلص من ذلك أني توقفت كثيراً عند التفاصيل. فإذا بيَّنتُ أن عمليات النقل من فرنسا إلى ألمانيا كانت تتم بوضع مائة في المقطورة المخصصة لاستيعاب أربعين شخصاً على الأكثر، وليس مائة وخمسة وعشرين كما زعم بعضهم، لوحظ أن ذلك لا يعدّل على نحو محسوس إلى أفضل الشروط العامة للرحلة. وإذا حددت أن أحد المعسكرات يحمل اسم (بيرغن–بيلسن) وليس (بيلسن–بيرغن)، فمن المؤكد أني لا أبدل شيئاً في مصير أولئك المعتقلين فيه. وأن كلمة (كاپو) سواء أكانت مكونة من الأحرف الألمانية الأولى لشرطة العمل في معسكرات الاعتقال، أم

١- أرجو ألا يرى في هذا أية نية سيئة في معاداة رجال الدين، بطريقة غير مباشرة، إذ أن الثلاثة كهنة.

كان مشتقة من مصطلح إيطالي، فليس لذلك أهمية في حد ذاته. وأن سوء المعاملة، والجوع، والتعذيب، إلخ.... التي شهدها أحد المعسكرات أو خلافه، وأن الذي روى ذلك شهده أم لم يشهده، وإذا كان ذلك قد تم من الشرطة العسكرية الألمانية مباشرة أم من الشخص المسخَّر من السجناء الذين تم اختيارهم بدقة، فإن ذلك يبقى معاملة سيئة.

وألاحظ بدوري أن أية مجموعة هي مؤلفة من التفصيلات، وأن أي خطأ بالتفصيل سواء أكان بنية حسنة أو سيئة، إضافة إلى أن من طبيعته تزييف العرض لدى المشاهد، فإنه يؤدي به حكماً إلى الشك في كل شيء إذا اكتشفه. هذا إذا كان خطأ واحداً، فما بالك بمجموعة من الأخطاء...

وسيتم إدراك ما أقصده على نحو أفضل لو تمت الرغبة في الرجوع إلى خبر عادي شغل الساحة الإعلامية، منذ بضع سنوات. ففي عشية هذه الحرب، انتهز أحد الطلاب الأجانب فرصة غفلة الحرس فسرق من متحف اللوفر لوحة للفنان (واتّو) معروفة باسم (اللامبالي)، وبعد بضعة أيام أعادها أو وجدوها في منزله، ولكنه كان قد أجرى عليها تعديلاً طفيفاً: أزعجته تلك اليد التي ترتفع في حركة كان جميع ذوي الاختصاص يقولون إنها غير مكتملة، سواء أكان ذلك بسبب فعل الفنان نفسه، أم بسبب حادثة السلب، فقد أسند اليد إلى عكاز؛ لم يغير العكاز شيئاً في الشخصية، بل على العكس كان ينسجم مع هيئة الرجل. ولكنه كان يحدد بدقة معنى لا مبالاته ويعدّل بشكل محسوس التفسير الذي كان يمكن أن يعطى لأسباب تلك اللامبالاة أو هدفها، بيد أنه يمكن التأكيد أن هذا التفسير كان سيغدو مختلفاً لو تم، بدلاً من العكاز، وضع قفازين، أو تم إسقاط باقة من الزهر بإهمال.

وعلى الرغم من أنه لا يمكن التأكيد إلا على الأصل، فطالما أن العكاز لم يكن موجوداً فعلاً على اللوحة، فإنه لم يكن قط لا هو ولا القفازات ولا باقة الزهر في ذهن (واتّو)، فتمت إزالته وأعيدت اللوحة إلى مكانها، ولو تركوه قائماً، لما لاحظ

أحد أي تنافر، لا في اللوحة نفسها، ولا في المشهد العام لأروقة التصوير في متحف اللوفر. ولكن لو أن صاحبنا الطالب، بدلاً من اقتصاره على تصحيح لوحة (اللامبالي) رأى أن يحل جميع الألغاز في كل اللوحات، لو أنه وضع قناعاً مخملياً على ابتسامة (الجوكندا)، وخشخيشات في الأيدي الممتدة لكل صور المسيح الطفل الذي يستند بدهشة في حضن أو بين ذراعي العذراء المتسمرة، ونظارات لصورة إيراسم؛ ولو أبقوا كل ذلك قائماً. فلنتصور المشهد الذي سيتخذه اللوفر!

إن الأخطاء التي يمكن انتشالها من شهادات المرحِّلين هي على المستوى نفسه لعكاز (اللامبالي)، حيث احتمال وجود قناع على وجه (الجوكندا): وبدون تعديل محسوس في لوحة المعسكرات فقد زيفوا معنى التاريخ.

ولدى مقارنة الواحدة بالأخرى والربط بينهما، فإن المرحّل ذا النية الحسنة سيكون لديه الإحساس نفسه كما لو أنه يطوف في متحف مشوّه، أعيد النظر فيه وصُحح بأكمله.

وقس على ذلك القارئ إذا أراد، قبل أن يصدر حكمه على كلٍّ من النصوص المذكورة أن يتساءل، متجرداً من كل الاعتبارات، إذا كان الكاتب يمكن أن يبقيه تماماً أمام محكمة مشكلة بانتظام على أن تكون دقيقة في أحكامها فضلاً عن ذلك.

ماكون، ١٥ من أيار ١٩٥٠

الفصل الثاني

الشهود القاصرون

هؤلاء الشهود لا يروون إلا ما شاهدوه أو يزعمون أنهم شاهدوه، ودون المزيد من التعليق، لا يتناول النقد هنا، إلا التفصيلات التي غالباً ما تكون ثانوية، وسيعذرني القارئ على ذلك: فالألغاز الكبرى لقضية المعتقلات لا يمكن التصدي لها إلا مع الشهود الراشدين، بيد أنه لا يمكن نسيان الآخرين.

١- الأخ بيران
(واسمه الحقيقي: ألفريد أنترينر)

نشر عرضاً متسلسلاً من الناحية الزمنية لعبوره إلى معسكري (بوشنفالد) و (دورا):

العنوان: ستة عشر شهراً في سجن الأشغال الشاقة صدر عن دار (مايّو-برين) في ران، في٢٠ من حزيران ١٩٤٦

تقديم: إميل بوالار

في الديباجة، الظروف التي أدت إلى اعتقاله وترحيله. في الذيل، قصيدة من الشعر الحر للأب جان پول رينار: «رأيت ورأيت وعشت...»

وفي الخاتمة تنويهان يتضمن أحدهما منح صليب الحرب، والآخر الترفيع إلى رتبة جوقة الشرف بالإضافة إلى مقتطف من الخطبة التي ألقاها السيد إميل بوالار، الذي كان مفوض الجمهورية في ستراسبورغ حينما تم ذلك الترفيع.

تم اعتقاله في كانون الأول ١٩٤٣، وترحيله إلى بوشنفالد في ١٧من كانون

الثـاني ١٩٤٤، وإلى دورا في ١٣من آذار التـالي. كنا مـعـاً في قـافلة واحـدة في الترحـيل وفي النقل من مـعسكر إلى آخر. وكـانت أرقـامنا مـتـقـاربة: كـان رقـمـه ٤٣٦٥٢ ورقمي ٤٤٣٦٤.

وتم تحـريرنا مـعاً. ولكن داخل المعسكر كـان مصـيرانا مـختلفين: فـبـفـضل معرفته التامة باللغة الألمانية، التي اكتسبها من أصله الألزاسي نجح في أن يُعيَّن كـاتباً في مكتب إحـصـاء العمل، وهي وظيفـة متـمـيزة غاية الامـتـيـاز، بينمـا لقيت المصير المشترك الذي لم يقف أمامه سوى المرض .

وفي عمله كاتباً في مكتب إحصاء العمل، أسدى ما لا يحصى من الخدمات لعدد لا يستهان به من الموقوفين ولا سيما الفرنسيين. كان إخلاصه لا حد له. ولدى اتهامه في مؤامرة، مازلت أعتقد أنها ملفقة، تم اعتقاله في سجن المعسكر خلال أربعة أو خمسة الأشهر الأخيرة من ترحيله.

وهو يدرّس حالياً -إن لم أكن مخطئاً- في مدارس ايبرناي المسيحية.

ويزعم كتاب «ستة عشر شهراً في سجن الأشغال الشاقة» أنه رواية أمينة «فـأنا مـع ذلك لا أرغب إلا في رواية مـا شـاهدت» كـذلك ذكـر الكاتب في الصـفـحـة ٣٨. وربما كان مع ذلك يعتقد بما يقوله بإخلاص،

وسيتم الحكم على ذلك.

الرحيل إلى ألمانيا (من محطة كومبين)

«لقـد وضـعـونـا في مـقطورة «٨ أحـصنة لأربعين رجـلاً».... ولكن العـدد كـان ١٢٥» (الصفحة ٢٨).

في الواقع، لدى الرحيل عن معسكر (روياليو) نظمونا في أرتال خماسية. كل مائة على حدة وفي مقطورة. وقد تم إحضار خمسة عشر أو عشرين من المرضى إلى المحطة بواسطة سيارة تمتعوا وحدهم بمقطورة كاملة. أما الدفعة الأخيرة من الرتل الطويل الذي كان يسير في موكب في شوارع (كومبين) بين الجنود الألمان

المدججين بالسلاح فلم تكن كاملة؛ كانت تضم زهاء أربعين شخصاً، وزعوهم على كل المقطورات لدى نهاية الركوب. وكان نصيبنا في مقطورتنا ثلاثة، مما جعل عددنا مائة وثلاثة. وأنا أشك في أن هناك أسباباً خاصة جعلت المقطورة التي كان يوجد فيها الأخ بيران تتلقى خمسة وعشرين. ومهما يكن، حتى ولو كان الأمر كذلك، كان يجب أن يعرض الأمر بنزاهة كاستثناء.

الوصول إلى بوشنفالد

«على كل قادم أن يمر على التعقيم. في بادئ الأمر إلى جزّ الشعر العام الذي كان يقوم به حلاقون، لا علاقة لهم بمهنة الحلاقة وهم يَسْخرون من حيرتنا ومن الشجوج الي يحدثونها في الخاضعين لتعذيبهم بسبب السرعة أو الرعونة.

وكان السجناء يهرعون بعد ذلك، وكأنهم قطيع من الغنم بعد جزّ صوفه، كيفما اتفق، إلى حوض واسع من الماء المعقم بنسبة عالية من زيت القطران. وكان هذا الحوض الملطخ بالدم والملوث بالنجاسة يستخدم من قبل كل أفراد الترحيلة. وكانت الرؤوس مرغمة على الغطس في الماء بسبب التهديد بالنبابيت. وفي نهاية كل جلسة، كان ينتشل بعض الغرقى من هذا الحوض النتن. (ص ٣٥).

سيعتقد القارئ غير المطّلع، حتماً، أن هؤلاء الحلاقين غير المؤهلين والساخرين والذين يجزّون هم من الشرطة العسكرية الألمانية، وأن النبابيت التي تهدد الرؤوس هي نبابيتهم. والأمر ليس كذلك قط، إنهم من السجناء، وبما أن أفراد الشرطة العسكرية غائبون عن هذه الحفلة، ولا يراقبون إلا عن بعد، فلا أحد يجبر هؤلاء السجناء على التصرف الذي يقومون به. ولكن التدقيق في الأمر لم يتم، وألقيت المسؤولية برمتها على عاتق الشرطة العسكرية الألمانية.

هذا الإبهام الذي لن أعود إلى إثارته بعد الآن، قد تم اتباعه على مدى صفحات الكتاب وبالأسلوب نفسه.

نظام المعسكر:

«النهوض في الصباح الباكر، والتغذية من الواضح أنها لا تكفي من أجل اثنتي عشرة ساعة عمل: ليتر من الحساء، ومائتان إلى مائتين وخمسين غراماً من الخبز، وعشرون غراماً من زبدة المارغرين». (ص ٤٠).

عجبي! لماذا نسي أو تناسى ذكر نصف الليتر من القهوة الصباحية والمسائية ومستديرة السجق أو ملعقة الجبن أو المربى التي تصاحب باستمرار العشرين غراماً من زبدة المارغرين؟ إذ أن طابع عدم كفاية التغذية اليومية ما كان ليقل كثيراً عما هو عليه، وما كانت نزاهة الرواية لتتعرض إلى ما تعرضت إليه.

«منذ آذار، تم اختيار ألف ومائتي فرنسي، كنت في عدادهم، إلى مصير مجهول، وقبل الرحيل تلقينا ملابس المحكومين بالأشغال الشاقة، ذات التخطيط الأزرق والأبيض: سترة وبنطال فقط، لا يمكن لهما أن يقيانا من البرد» (ص ٤١).

كنت في عداد هذه القافلة، وقد تم إعطاء الجميع معاطف بالإضافة إلى ذلك، وإذا كان هذا اللباس لا يقينا من البرد فذلك ليس عائداً إلى عدد القطع التي يشكلها، بل لأن هذه القطع كانت من الليف الاصطناعي.

في دورا:

«بدأت إقامة معسكر دورا في تشرين الثاني ١٩٤٣...» (ص ٤٦).

وصلت القافلة الأولى إلى هناك في ٢٨ من آب ١٩٤٣، بالضبط.

«هناك كما كان عليه الأمر في بوشنفالد، كان رجال الشرطة العسكرية ينتظروننا أمام مهبط المقطورة... وكانت هناك سكة مثلمة بأخاديد طافحة بالمياه، تؤدي إلى المعسكر، تم اجتيازها هرولة، وكان النازيون المنتعلون جزمات ضخمة يطاردوننا وقد أطلقوا كلابهم علينا، وترافق مع هذا السباق الجديد في نوعه العديد من طلقات البنادق والعواء الوحشي.....» (ص ٤٣-٤٤)...

لا أذكر أن كلاباً أطلقت علينا، كما لم يتم إطلاق النار من البنادق. بل على

العكس أذكر تماماً أن رؤساء المجموعات وشرطة المعسكر (الذين هم من السجناء أنفسهم) والذين جاؤوا ليأخذونا على عاتقهم كانوا أشد عدواناًوفظاظة من أفراد الشرطة العسكرية الذين واكبونا.

وقبل أن أتعرض إلى أخطاء أشد وطأة، أودّ أيضاً أن أذكر خطأين أهون من ذلك، ولكنهما يثبتان خفة وزن الشهادة، ولا سيما، إذا عرفنا أن الكاتب كان بحكم موقعه في المعسكر، على دراية تامة بوضع الناس الموجودين في المعسكر مما يحرمه من أي عذر:

«لم أذكر سوى ذلك الطبيب الشيخ الدكتور ماتون الذي يطلق عليه لقب باب جيرار... (ص ٨١).

«خلال عشرة أشهر، كنت أضع دائماً حرز السانت-رينريرڤ، وقد كان دائمًا يزودني به الكهنة الذين يتعرضون للموت باستمرار، وعليّ هنا أن أذكر الأب بورجوا، والأب المحترم رينار وهو من (تراپ)، وذلك الأب العزيز آميو من أنڤيل... (ص٨٧).

من جهة، كان هناك في دورا طبيب يدعى ماتون وطبيب يدعى جيرار، والثاني كان طاعناً في السن، وهو الذي كنا نطلق عليه لقب بابا جيرار. ومن جهة أخرى فإن الأب بورجوا مات في الشهر الثاني من وصوله إلى دورا بين ١٠ و٣٠ من نيسان ١٩٤٤، قبل رحيل دفعة من المرضى كان قد اختير أن يكون في عدادهم. وهكذا فإنه لم يتمكن من تزويد الأخ بيران خلال عشرة أشهر؛ أضف إلى ذلك أن سوء معاملة الكهنة كانت للأسباب نفسها التي أسيئت فيها معاملة سائر السجناء، وزيادة على ذلك بسبب انتمائهم الديني، من أنهم لا يتعرضون للموت لاحتفاظ كل منهم في حوزته بحرز السانت- رينريرڤ.

أخطاء فاحشة

«كانت نساء جماعة الشرطة العسكرية يخترن ضحاياهن وعلى نحو أشد

وقاحة من أزواجهن. وكان ما ينشدنه هو البشرة الآدمية الجميلة الموشومة وشماً فنياً. ومن أجل إرضائهن صدر الأمر باجتماع في ساحة التفقد، وكان على الجميع أن يحضروا بلباس آدم. ثم مرت أولئك النسوة بين الصفوف، وكأنهن في معرض صانعة قبعات، يقمن باختيارهن» (ص ٧٣-٧٤).

غير صحيح أن هذه الأمور حدثت في دورا. كانت هناك قضية غطاء مصباح من الجلد البشري الموشوم في بوشنفالد، وهي مدرجة في ملف إيلزا كوخ الملقبة بكلبة بوشنفالد. وحتى في بوشنفالد لا يمكن للأب بيران أن يكون قد حضر اختيار الضحايا، كما يدعي في بيانه، والذي كان قد مر ذكره في الصفحة ٣٨، إذ أن هذه الأفعال الإجرامية تمت قبل وصولنا، إذا كانت قد حصلت فعلاً.

بقي أنه يضفي على اختيار الضحايا هذا طابع العادة والتعميم، كما يقوم بوصفه في دقة متميزة. ما الذي يمنع من الاعتقاد بأن من بنى الحادث في بوشنفالد على جسم الجريمة (غطاء المصباح المعهود)، قد قام بذلك بالطريقة نفسها، فيكون الاتهام بحق إيلزا كوخ، في هذا الصدد، واهياً جداً(١).

وللانتهاء من هذا الموضوع، أذكر تحديداً أنه خلال شهري شباط وآذار ١٩٤٤، سرت إشاعة في معتقل بوشنفالد تتهم شرطيي مراقبة العمل المسؤولين عن المقلع والبستنة بهذه الجريمة التي ارتكبت سابقاً من قبلهم بالتواطؤ مع جميع زملائهم تقريباً. وقيل إن الشريكين المتواطئين جهّزا موت السجناء الموشومين الذين باعوا جلدهم، مقابل حظوات تافهة، إلى إيلزا كوخ وأخريات بمساعدة شرطي مراقبة العمل والشرطي العسكري الألماني المسؤولين عن إدارة محرقة الجثث.

ولكن، هل تجولت زوجة قائد المعسكر ونساء الضباط الأخريات في المعسكر

١- كان واهياً لدرجة أن محكمة الجنايات في أوغسبورغ لم تأخذ به ضد المتهمة، لنقص الأدلة.

بحثاً عن الوشمات الجميلات التي كن يخترن بأنفسهن أصحابها للموت؟ وهل كانت تنظم دعوات للتفقد يخرج فيها السجناء كما خلقهم ربهم، لتسهيل البحث عنهن؟ هذا ما لا أستطيع أن أؤكده ولا أن أنفيه. كل ما أستطيع قوله هو أنه، خلافاً لما يؤكده الأخ بيران، لم يحصل في دورا ولا في بوشنفالد في فترة اعتقالنا المشترك.

«حين تم التأكد من عمليات التخريب، أصبحت عمليات الشنق أشد قسوة. كان المعذبون يرفعون عن الأرض بجذب ملفاف كهربائي يقوم برفعهم رويداً رويداً عن الأرض، ونظراً لعدم تلقيهم الرجّة المحتومة التي تصرع المعذب وغالباً ما تدقّ عنقه، فإن هؤلاء التعساء كانوا يمرون بكل مراحل أهوال الاحتضار.

«وأحياناً كان يغرز كلاّب الجزار تحت فك المحكوم بالإعدام الذي كان يعلق بهذه الوسيلة البربرية» (ص٧٦).

صحيح أنه لدى نهاية الحرب، أواخر عام ١٩٤٤ ومطلع عام ١٩٤٥، أصبحت أعمال التخريب عديدة مما جعل عمليات الشنق تجري بشكل جماعي. وجرت العادة أن يتم التنفيذ في النفق نفسه، بواسطة رافعة تعمل بواسطة ملفاف، وليس في ساحة التفقد فحسب، وبأعواد مشانق تشبه التي توضع في ملعب كرة القدم. وفي ٨ من آذار ١٩٤٥، تم شنق تسعة عشر بهذه الطريقة، وفي أحد الشعانين تم شنق سبعة وخمسين، وقبل ثمانية أيام من التحرير، إذ كنا نسمع مدافع الحلفاء قريبة جداً، كما أن جماعة الشرطة العسكرية لم يكونوا يشكون بقرب نهاية الحرب!

ولكن قصة كلاّب الجزار، التي رُويت من قبل عن بوشنفالد، حيث وجدت الأداة في فرن حرق الجثث، فلها نصيب كبير في أن تكون زائفة فيما يتعلق بمعسكر دورا، ومهما يكن، فأنا لم أسمع عن ذلك قط في المكان نفسه وهو لا يتلاءم مع العادات المتبعة في المعسكر.

«بتحريض من الشرطة العسكرية الألمانية الذائعة الصيت التي كنت على صلة بها، استخدمت أساليب أخرى في إعدام المخربين».

«كان التعساء يرغمون على حفر حفيرات ضيقة، حيث يجبر رفاقهم على دفنهم حتى رقابهم، ويتركون منعزلين في هذا الوضع لفترة من الزمن، ثم يأتي أحد أفراد الشرطة العسكرية مسلحاً ببلطة ذات مقبض طويل، ويقطع الرؤوس».

«ولكن سادية بعض أفراد الشرطة العسكرية دفعتهم إلى إيجاد نوع من الموت أشده قسوة. كانوا يوعزون إلى سجناء آخرين بأن يمروا بعربات الرمل التي تجر باليد فوق هذه الرؤوس البائسة، وكنت أتعذب من هذه النظرات التي،إلخ..» (ص ٧٧).

وهذا أيضاً لم يحدث قط في دورا، ولكن تمت رواية القصة لي بصيغ متقاربة وأنا في المعسكر، من سجناء جاؤوا من معسكرات مختلفة وهم يدّعون أنهم جميعاً حضروا المشهد: من ماتهاوزن وبيركناو، وفلوسنبورغ، ونوينغام، إلخ....

ولدى عودتي إلى فرنسا، قرأت ذلك لدى عدد من الكتّاب: لم يكن هناك داع إلى تصوير ذلك، في شهادة مكتوبة، لحساب معسكر لم يحصل فيه هذا الأمر. إن الإمساك بكاتب وهو في حال التلبّس بالخطأ يجعل الرأي العام الفرنسي يشك بما قيل عن كل المعسكرات، كما يبرر للرأي العام الألماني الافتراء.

<u>مصير المرحّلين</u>

«بما أننا نحمل أسرار صواريخ (ف١ وف٢) كنا نعلم أننا محكوم علينا بالموت وسيتم قتلنا لدى اقتراب الحلفاء» (ص ٩٧).

الحديث هنا ليس عن حدث معين بل عن مبرر، وقد استخدم هذا الأمر من قبل كل كتّاب الشهادات حتى من (ليون بلوم) في كتابه (الشهر الأخير). فقد رأى مظهراً ما في التبرير في غرق السجناء في بحر البلطيق الذي تم قبل التحرير

بفترة قصيرة. وكانوا على المراكب في عرض البحر وتم إغراقها من الشاطئ(١). وكذلك في بيان لطبيب الشرطة العسكرية في دورا الذي أكد على وجود أوامر سرية من هذا القبيل، والذي أنقذ بذلك حياته.

والمسألة المطروحة هي معرفة هل حادثة الغرق في البلطيق هي حادث منفرد قام به بعض المرؤوسين الشديدي الحماس في اللحظة الأخيرة، أم هي جزء من مخطط لمجزرة عامة أعدتها دوائر هملر قائد الشرطة العسكرية، ومدير إدارة الشرطة؟ على حدّ علمي، لم توجد نصوص مؤيدة للفرضية الثانية، ويمكن للمؤرخ أن يشك في أن طبيب الشرطة العسكرية في دورا لم يقم بهذا البيان إلا لإنقاذ حياته.

وعلى أية حال فإن حاملي أسرار صواريخ (ف١ وف٢) في دورا لم يقتلوا، ولا القافلة التي كانت تضم ليون بلوم. ويمكن القول دائماً: إن الأمر لو كان كذلك في كل مكان كما كان عليه في البلطيق، فذلك فقط لأن الشرطة العسكرية في هرج ومرج الهزيمة الألمانية، ولم يكن لديهم الوقت ولا الوسائل لوضع مخططاتهم المشؤومة قيد التنفيذ.

ولكن الاستنتاج لا مبرر له.

وكذلك فيما يتعلق بحادثة الغرق في البلطيق، ذاته، تبدو الفرضية الألمانية معقولة بمقدار الفرضية الفرنسية، وقد أكدها القبول الذي لقيته في العالم أجمع.

١- الطرح المقبول الآن من العالم أجمعه أن السفينة (أركونا) التي كانت تقل السجناء إلى السويد تم إغراقها من القوات الجوية - البحرية للحلفاء التي هاجمت الموكب دون أن تدري شيئاً عن طبيعته. وكان رد المدفعية المضادة الألمانية سبباً في هذا الالتباس. فقد ظن شهود الحادث أنها كانت تطلق على الأركونا بينما كانت تطلق على طيران الحلفاء. (الطبعة الثانية من الكتاب).

الأب جان بـول رينـــار

هو مرحّل تحت رقم ٣٩٧٢٧، سبق الأخ بيران وسبقني شخصياً ببضعة أسابيع إلى بوشنفالد، ثم إلى دورا حيث لقيناه.

نشر مجموعة من القصائد مستلهمة من صوفية مؤثرة أحياناً، بعنوان «سلاسل وأضواء» وتشكل هذه القصائد تتابعاً من ردود الفعل الروحانية أكثر مما هي محاولة للشهادة الموضوعية.

مع ذلك، فإحدى هذه القصائد تعدد أحداثاً: رأيت، ورأيت، وعشت... وقد نشرها الأخ بيران في ذيل شهادته الخاصة، كما ذكرت من قبل.

«رأيت الآلاف والآلاف من الأشخاص يدخلون إلى الحمام وعليهم كانوا يصبون، عوضاً عن السائل، الغاز الخانق.

«رأيتهم ينخزون العاجزين عن العمل في قلوبهم».

في الواقع لم ير الأب جان بول رينار شيئاً من هذا، إذ أن غرف الغاز لم تكن موجودة لا في بوشنفالد ولا في دورا. أما الوخز بالإبر الذي لم يمارس في دورا، فإنه لم يمارس في بوشنفالد في الفترة التي قضاها هناك.

وحينما أبديت له هذه الملاحظة في مطلع عام ١٩٤٧ أجابني:

– أنا أوافقك، ولكنها ليست سوى لفتة أدبية... وطالما أن مثل هذه الأمور قد حصلت في أماكن أخرى، فليس ذلك بذي أهمية.

وجدت المنطق مستساغاً. وفي تلك اللحظة لم أجرؤ على الرد بأن معركة (فونتينوا) كانت هي أيضاً واقعاً تاريخياً. ولكن ليس هذا مبرراً للقول حتى في «اللفتة الأدبية» إنه حضرها؛ ولا أنه لو زعم ثمانية وعشرون ألفاً من الناجين من المعسكرات النازية أنهم حضروا كل الأهوال المقتطفة من كل الشهادات، فإن المعسكرات تأخذ شكلاً في نظر التاريخ مختلفاً عما لو اكتفى كل منهم بذكر ما رآه

فقط؛ ولا أنه من الأجدى ألا يضبط أحدنا متلبساً بتهمة الافتراء أو المبالغة.

بعد ذلك، في تموز ١٩٤٧، ظهرت قصيدة «رأيت ورأيت وعشت» ضمن مجموعة «سلاسل وأضواء» وقد سررت لدى ملاحظتي أن المؤلف ولو أنه أبقى بالكامل شهادته المتعلقة بالوخز، فقد نسب مع ذلك، وبنزاهة، ما يتعلق بغرف الغاز بإحالة تلقي المسؤولية في ذلك على عاتق مرحّل آخر.

الأب روبيـــر بلوتــون

كان كاهناً في كنيسة الميلاد في سانت-اتين، وحالياً هو كاهن في فيرميني.

تم ترحيله إلى بوشنفالد برقم ٤٤٠١٥ في كانون الثاني ١٩٤٤ في القافلة التي كانت تضمني، وبقينا معاً في البناء ٤٨ الذي غادرناه معاً إلى دورا.

نشـر كـتـاب «من مـونلوك إلى دورا» في آذار ١٩٤٦، في سـانت -اتين لدى الناشر «دوما».

شهادة خالية من الادعاء تقع في ٩٠ صفحة. يروي فيها الأب روبير بلوتون الأحداث كما رآها فقط، دون أن يتعمق بها وغالباً دون أن يضبط نفسه. من الجليّ أنه نقيّ الضمير، وإن بالغ فذلك ناجم عن نزعة طبيعية أو سطحية تفاقمت بسبب العجلة التي اتبعها ليروي ذكرياته.

في فترة اندحار الجيش الألماني، اقتيد إلى (بيرغن-بيلسن)؛ وهو يكتبها (بيلسن-بيرغن) على مدى الفصل المتعلق بالحدث، مما لا يجعلنا نعتقد بوجود خطأ مطبعي.

وفي البناء ٤٨ في بوشنفالد سمع عبارة:

«نحن بإمرة سجين ألماني كان نائباً شيوعياً في الرايخشتاغ (مجلس النواب الألماني)». (ص ٢٦).

وأقرّ ذلك، والواقع أن رئيس البناء هذا، إيريك، لم يكن سوى ابن النائب الشيوعي.

وفيما يتعلق بالتغذية، فقد كتب بالشروط نفسها، ولا ريب:

«من حيث المبدأ، كانت الوجبة اليومية تتضمن ليتراً من الحساء، و ٤٠٠ غرام من الخبز الشديد الكثافة وعشرين غراماً من المارغرين المستخرج من الفحم الحجري، وتحلية مختلفة: أحياناً ملعقة مربى، وأحياناً جبن أبيض، أو شيء من

السجق» (ص٦٣، ٦٤).

كثير من الناس قالوا إن المارغرين كان مستخرجاً من الفحم الحجري، وكثير من الصحف كتبت ذلك دون أن يكذبها أحد إذ أن القضية لم تكن تطرح حول الأصل الدقيق لهذا النتاج. مع ذلك فقد فعل لويس مارتان-شوفيّه أفضل من ذلك إذ كتب: «يبدو أنه لم يكن يسرهم (أي الشرطة العسكرية) إلا ما كان اصطناعياً: والمارغرين الذي كان يوزع علينا بتقتير كان يجد لديهم كل نكهته إذ أنه نتاج مستخرج من الفحم الحجري. (كانت علبة الكرتون تحمل ما يلي: «مضمون بخلوِّه من المواد الدسمة») الإنسان والوحش (ص ٩٥).

وحين يباشر الأب بلوتون بالحديث عن وسم المساجين، يجد أن هناك ثمانية أصناف دون أن يدرك أن هناك ثلاثين فعلاً، وأنه غير مستوفٍ لما يقول.

وإذا تحدث عن نظام المعسكر يقول:

«إحدى الوسائل الأكثر فعالية والأكثر دناءة في الانحطاط الأخلاقي، والمستوحاة من تعليمات كتاب «كفاحي» هي في أن يعهد إلى بعض السجناء المختارين على نحو يكاد يكون مقتصراً على الألمان، أمر شرطة المعسكر» (ص ٢٨).

لعله لا يدري أن هذا الإجراء الدنيء قد استخدم بالضبط لأنه فعال، في كل سجون العالم، وكان موجوداً قبل أن يكتب هتلر «كفاحي»(١). وهل هناك حاجة للتذكير بأن كتاب «دانتي لم ير شيئاً» لألبير لوندر، يركز على نصيب فرنسا في ممارستها في سجونها ومعتقلات الأشغال الشاقة فيها؟

وهذا تفسيره لإطالة أمد التفقد الذي أصاب كل السجناء:

«ننتظر التحقق من الأرقام، مهمة شاقة، تطول فترتها وفقاً لمزاج كبير مقرري

١- انظر ملحق هذا الفصل.

الشرطة العسكرية (ص ٥٩).

بينما طول فترة التفقد، وإن كان وفقاً لمزاج كبير مقرري الشرطة العسكرية، فإنه يتعلق أيضاً بمدى كفاءة المكلفين بالتحقق من وضع الموجودين في المعسكر يومياً. وبينهم، كان يوجد أفراد الشرطة العسكرية، الذين يعرفون كيف يحسبون بصورة عامة، ولكن كان يوجد أيضاً، وعلى الأخص، السجناء الأميون، أو أشباه الأميين، الذين لم يصبحوا كتبة أو محاسبين في مكتب إحصاء العمل إلا بالوساطة. وعلينا ألا ننسى أن إسناد العمل إلى أي سجين في معسكر اعتقال متوقف على لباقته وليس على مؤهلاته. وفي دورا كما هو عليه الأمر في كل مكان، حدث أن البنائين كانوا محاسبين، والمحاسبون كانوا بنائين ونجارين، ونجارو العربات كانوا أطباء أو جراحين، ومما يمكن حدوثه أن يكون طبيب أو جراح خراطاً أو كهربائياً أو بلاّطاً.

وفيما يتعلق بالحقن بالأبر ينحاز الأب روبير بلوتون إلى الرأي العام:

«بينما كان المشفى يتوسع ويضاعف برّاكاته في منحدر الهضبة، كان المصابون بالسل المستعصي شفاؤهم ينتهون من وجودهم البائس بتأثير حقنة مميتة» (ص ٦٧).

وهذا خطأ (كما ذكرنا سابقاً).

وإذا وضعنا هذه الملاحظات جانباً، فإن هذا الشاهد ليس مكبلاً بهوس المبالغة، إنه مسحوق فقط بتجربة تجاوزته. وعدم الدقة التي وقع فيها ليست بذات شأن بالمقارنة مع ما وقع به الأخ بيران. وهي أقل بكثير من حيث خطورة نتائجها أيضاً. وهكذا فإن القلق على الموضوعية يضطرني لتسجيل ذلك.

ذيل الفصل الثاني

التأديب في سجن ريوم المركزي

عام ١٩٣٩

«هناك ثلاثة عناصر جديرة بالذكر ينبغي التوقف عندها لدى الحديث عن وسائل التأديب».

«الأول، إقامة طبقة خاصة من المساجين تساعد الحراس في المحافظة على النظام. كثيراً ما سمعت أناساً فرنسيين يتذمرون من إقامة أمثال هؤلاء المساعدين المجانيّين للحراس الأفظاظ في السجون الألمانية، إنهم أنفسهم الذين لا يمكنهم أن يصدقوا أن الألمان كانوا يجهلون ما كان يحدث على أرضهم، وهم لا يدرون ماذا يحدث في فرنسا. فهناك سوابق لشرطة مراقبة العمل والمحاسبين ورؤساء الزمر ورؤساء الغرف، إلخ... (كما جرى في المعتقلات الألمانية)، إنهم محاسبو المشاغل، ورؤساء الورش (ويوجد بينهم أيضاً مدنيون)، وكل الإدارة منتقاة من المساجين، وهم بطبيعة الحال يتمتعون ببعض الامتيازات. وهذا إلى جانب نظّار السجن المختارين من بين السجناء والمكلفين قصداً بالحفاظ على النظام. وهذا يتماشى من ناظر المهجع الذي يستخدم زرّ نداء قرب سريره لإنذار الحرس في حال حدوث أمر مخالف للأصول (تدخين، مطالعة، حديث، الخ...) والذي لا يستخدم إلا قليلاً لحسن الحظ- حتى من قِبَل الجلاد الرسمي وهو ناظر المقر.

«عليّ الآن أن أذكر ما هو المقر المنيع: إنه السجن الخاص داخل السجن، وفي الواقع هو مكان التعذيب (وأؤكد أن استعمال هذه الكلمة غير مبالغ فيه). هذا العنصر الثاني من التأديب يتضمن مثل «جحيم» دانتي دوائر مختلفة. وانطلاقاً من

قاعة التأديب، حيث، وفق المبدأ، يكتفى بجعل المدانين يدورون حول أنفسهم مع استراحات قصيرة جداً، وبإيقاع يحدد المدرب فتراته، بينما يجري تخفيض الوجبة الغذائية كقاعدة لدى الآخرين؛ وتنهال الرفسات. وقد كان الحظ إلى جانبي باستطاعتي تجنب هذا، ولكني أؤكد أنني غالباً ما كنت أشاهد المساكين عائدين من «القاعة» مع آثار ظاهرة لرفسات حديثة العهد. ويصل هذا إلى الحبس المنفرد، وهو من حيث المبدأ تسعون يوماً متتابعة وهو عملياً يعادل عقوبة الموت، حيث يعطون قصعة حساء كل أربعة أيام، مع تفنّن بالقسوة لا يمكن التعبير عنه؛ وأؤكد بوجه الخصوص، أن التعذيب الملقب بالقميص الجبري، وهو قميص يضم الذراعين خلف الظهر وغالباً ما كان يصل حتى العنق، كان يمارس باستمرار، وأؤكد إذ تتفق الشهادات التي لا تحصى، أن بعض الحرس، بمساعدة خاصة من النظار، كانوا يضربون بشتى الأدوات، بما فيها الحديدة التي تحرك فيها النار، مما يؤدي أحياناً إلى الموت، وأؤكد أن النازيين لم يأتوا إلاّ ببعض (الإصلاحات) التفصيلية على فن القتل البطيء للبشر.

وهذا يقودنا إلى الأداة الثالثة للتأديب، إذ أن هذه الإدانات «الإضافية» التي كانت توصل إلى الموت الخفي، لم يكن يتم إصدارها من المحاكم التي أقامها القانون ولكن من سلطة قضائية تجهل ما هي المحكمة على حد علمي. إنها محكمة داخلية في السجن يرأسها المدير، يساعده نائب المدير، ورئيس الحرس الذي يقوم بوظيفة كاتب المحكمة، لا مرافعة ولا دفاع، واتهام غامض أحياناً، ولا جواب إلا العبارة الشكلية «شكراً سيدي المدير» التي تلي الإدانة. وقد استطعت، فيما يخصني، أن أنسحب دائماً مع الحكم بعقوبة، تقضي بخفض حق الشراء من الندوة. وكانت الموارد مقتصرة على الأجر، أو بالأحرى على الجزء الضئيل المتوفر منه، وعلى مساعدة خارجية منخفضة إلى أبعد حد؛ في ذلك الحين لم تكن تصل طرود إلا طرود الملابس الداخلية. بيد أن الإدانات القاسية كانت تتساقط حتى من

أجل التقصير في مهمة مفروضة (پيير برنار، الثورة البروليتارية، حزيران ١٩٤٩).

في سجون «التحرير»

«كل الفرنسيين رغبوا في هذا، هكذا يقول «مواطنونا».

ادوار جانتيز، عامل مطبعة في كوربيڤوا، تم الحكم عليه في تموز ٤٦، ولم يكن هذا الحكم بسبب كونه مجرماً بل عامل مطبعة، وتم تحويله من سجن (فرين) إلى (فونتيڤرو) في أيلول ٤٦، وعلى أثر الرفسات والحرمان والبرد، أصيب بداء ذات الجنب، مما أدى إلى حذف اسمه من قائمة النقل إلى فونتيڤرو.

«قبل ساعة من الرحيل، حذفت أسماء مجموعة من المحكوم عليهم بإحدى التهم ممن كانوا على هذه القائمة، وبناء على إيعاز، إذ أن الحاجة إليهم ما زالت قائمة، وتم وضع من يحل محلهم وكان جانتيز في جملة المسجلين الجدد.

«ولدى وصوله إلى السجن المركزي، أوقف ساعتين ونصف تحت أشعة الشمس الحارة، ثم وُضع ثمانية أيام في حفرة. وبعد هذه الفترة تم قبوله في المستوصف الذي يتحكم به جزار قاتل يدعى آنج سوليي، وهو خلاسي كان قد قام بذبح خليلته وحبسها، مما هيأه ليقوم بوظائف ناظر – ممرض – طبيب السجن، وهو أشد سيطرة من الطبيب المدني الشاب، الذي يضع المرهم، ويدعى غولتيه أو غوتيه.

كان سوليي يقبل في المستوصف المرضى إذا أعطوه ثلثي الطرود التي تردهم ويطرد من كانت طرودهم أقل من أن تذكر، وكان يجري هذا ضمن قاعدة واضحة وبسيطة للغاية.

«وبما أن جانتيز لم تكن تصله لا طرود ولا حوالات، ولم يكن يستطيع الدفع، فعلى الرغم من خطورة مرضه فقد وضع في عداد «الشواغر» المجبرين على السير السريع مدة ثلاثة أرباع الساعة التي تتخللها ربع ساعة من الاستراحة من الصباح حتى المساء، كل يوم حتى يوم الأحد».

«ونظراً لضعف جانتيز فقد تم إعفاؤه من هذا العذاب، ولكن لم يكن مسموحاً له، بدلاً من ذلك، أن ينام ولا حتى أن يجلس، بل يجب عليه، خلال فترة السير، أن يبقى واقفاً بلا حركة، ويداه خلف ظهره، وبدون معطف».

«وبعد أن زاد داء ذات الجنب من خطورة حاله، كان جانتيز يذهب كل أسبوع للعيادة حيث يعطى الأسبيرين وزيت كبد الحوت، ويضعون له كؤوس الحجامة، دون أن يتم قبوله قط في المستوصف».

«وكان يشكو، بلا انقطاع، طوال الليل، وقد قام الطبيبان السجينان، وهما الجراح پيريبير والدكتور لاجون بالاستماع إلى صدره، صباح السبت واكتشفا وجود التهاب قصبات والتهاب رئوي مزدوج».

«ولدى سقوط جانتيز في الساحة، جاء المرض الذي تم إعلامه بآنج سوليي الذي أنشأ يزمجر، ويتهمه بالتحريض، ورماه في سجن منفرد، وكذلك الدكتور پيريبير المدان بتهمة الاستماع إلى الصدر بدون موافقة».

«تمت تعرية جانتيز من أجل تفتيشه، ورميه في السجن المنفرد بدرجة ١٥ تحت الصفر، وكان يضرب طوال الليل لينادي من يسمعه، وما من مجيب. وفي اليوم التالي، في ١٤ من كانون الثاني ١٩٤٧، وُجد ميتاً».

«وأخيراً، تم نقله إلى المستوصف حيث أعلنوا أنه مات هناك بسبب أزمة قلبية، وتم دفنه تحت رقم فقط: هو ٣٤٧٩».

«بيد أن هناك شاهداً مثيراً للقلق، هو ابن جانتيز، الذي عرفته في السجن، وعشت إلى جانبه أحداث هذه الفاجعة المرّة، وحصل على تحقيق صادق، فتم نقل آنج سوليي إلى فرين، ولكن تم إطلاق سراحه على إثر إجراءات عفو (كذا)، كما تم نقل كل من المديرين: دوڤور وڤيسيير وغيّونيه.

« وقد وعد أندريه ماري أن يخفف عقوبة ابن جانتيز إلى ثلاث سنوات، في أعقاب هذه القضية المأساوية، وقد مر على هذا الأمر ما يزيد على ثلاث سنوات،

وعلى حدّ علمي، ما زال في السجن» التوقيع: بينوا س...

«هذا هو مقتطف من رسالة وُجّهت إليّ من سجن س... في مكان ما من فرنسا (إن تكتمي ناجم عن قلق في أن لا أعرّض كاتب الرسالة للأحكام القضائية التي قد تسببها له الوثيقة المذكورة).

«لم يقرأ بينوا س... كتاب: ارقصْ أيها السجق، الذي لا علم له به ولكن قرأ: ضلالات».

«أعلمني عن نسبة المساعدات الاجتماعيات -ومقدارها (١٠٪)- اللاتي ينقنقن -وهو لا يقول ذلك ليأخذه عليهن- ويروي لي دون أن يشكو من تلك الأساليب الغريبة التي يلجأ إليها (بعض السادة من جمعية سان فنسان دي بول للإحسان من ذوي الأصابع المكسوّة بالخواتم ذات الشعارات).

«إن هذه الشهادة الآتية من أحد المهووسين جنسياً وليس سياسياً ليست سوى شهادة مفحمة (نشرة صادرة عن باراز).

في بواسّي

«في شباط ١٩٤٦ كان الكاتب والصحفي المعروف (هنري بيرو) حليق الرأس، بقبقابه وثيابه الصوفية الرخيصة في المشغل ١٤ الواقع في الطابق الثاني من السجن المركزي في بواسّي. وكان ينجز، تحت أنظار مراقب مسؤول عن مراعاة «قانون الصمت» وهو قانون يجثم على السجن ليل نهار، رقعاً ذات عقد أميركية من أسلاك الحديد الحلزونية بأجر مقداره ٠,٩٥ من الفرنك عن كل ألف وحدة.

«رعونة خاصة بالسجون: كان الرئيس المشرف على المنضدة لصاً محترفاً، وكان بإمرته، عدا بيرو اللواء بنسار، وعقيد، ورئيسا محكمة، ومحامٍ عام، ورئيس تحرير الجورنال دي روان، وأستاذ جامعة، وصحفيون باريزيون».

«وفي كتابه (أنا خارج من سجن الأشغال الشاقة) الذي كتبه أحد رفاقه في سجن پواسي وفي سجن جزيرة (ريه)، أحصى أرباح السجين بالأشغال الشاقة بيرو خلال شهر نيسان ١٩٤٥ فكانت أجور العمل: ١٥ فرنكاً، حسم إدارة السجن ١٢ فرنكاً، الباقي ٣ فرنكات، حجز احتياطي ١.٥ فرنك، تحت تصرف السجين ١.٥ فرنك».

«وهذا مقابل عمل سبع ساعات يومياً (صحيفة لاباتاي ٢١ من أيلول ١٩٤٩).

سجناء ألمان في فرنسا

لاروشيل، ١٨من تشرين الأول ١٩٤٨. -لدى التحقيق مع الضابط السابق (ماكس جورج رو)، البالغ من العمر ٣٦ عاماً، والذي كان مساعداً لقائد معسكر الأسرى الألمان في شاتلايون -پلاج، بتهم شائنة تبين أنه مذنب فيها، أعلم قاضي التحقيق بذلك المحكمة العسكرية في بوردو حيث أحيل (رو). والضابط السابق يمضي حالياً عقوبة ثمانية أشهر سجن، حكم عليه بها في آب الماضي في لاروشيل بتهمة سوء الائتمان، والنصب لحساب عصابات مختلفة(١).

والجنح المرتكبة من قبل (رو) في معسكر الأسرى، أخطر على نحو كبير للغاية، فقد كانت جرائم حقيقية وعلى قدر من الهول مما يبدو أنه من العسير أن يتحمل رو وحده مسؤوليتها أمام القضاة. وقد قام هذا الشخص الدنيء، بإرغام العديد من أسرى الحرب على خلع ثيابهم وجلدهم بسوط مرصّص، وقد لقي اثنان من التعساء حتفهما أثناء جلسات الجلد هذه.

١- حالياً، يشغل رو المشار إليه وظيفة هامة في الإدارة في جنوب شرقي فرنسا، مكافأة على أعماله المجيدة، ولا شك (الطبعة الثانية من الكتاب ١٩٥٤)

وهناك شهادة مفحمة للطبيب الألماني كلاوس شتين الذي كان موقوفاً في شاتلايون لدى التحقيق معه في بلدة كيل حيث يقيم. فقد أفاد السيد شتين أنه من أيار وحتى أيلول ١٩٤٥، أثبت وفاة خمسين من مواطنيه في معسكر أسرى الحرب. وكان سبب موتهم سوء التغذية والأشغال الشاقة والخوف المستمر الذي كان يعيشه هؤلاء التعساء من توقع تعذيبهم.

كان النظام الغذائي للمعسكر، الذي كان بإمرة الرائد تيكسيه، يتكون في الواقع من صحن حساء خفيف وكسرة من الخبز. أما باقي المخصصات فكانت تذهب إلى السوق السوداء، وقد مرّت فترة تجاوزت فيها نسبة الزحار ثمانين بالمائة.

وقد قام تيكسيه ورو مع مرؤوسيه، بالإضافة إلى ذلك بتفتيش أسراهم، ونهبوا منهم كل ما غلا ثمنه من حاجاتهم، وتم تقدير مجموع السرقات والأرباح التي حققها اللصوص ذوو الرتب العسكرية بمائة مليون فرنك، واستطاع هؤلاء أن ينظموا أمورهم أحسن تنظيم، فأرسلوا الحوالات المصرفية، والحلي مباشرة إلى بلجيكا بالسيارة.

ولعلنا نأمل أن يحبس المذنبون الآخرون في حصن (ها)، وأن تفرض العقوبة الرادعة بحق هذا النمط من مجرمي الحرب الحقيقيين.

(الصحف، ١٩ من تشرين الأول ١٩٤٨)

* * *

الفصل الثالث

لويس مارتان ـ شوفيّه

إنه في منزلة متوسطة بين الشهود القاصرين الذين يفوقهم بمحاولته الإحاطة أو على الأقل التفسير العلمي للأحداث التي عاشها، وبين كبار الشخصيات المرموقة مثل دافيد روسيّه الذي لا يمتلك قدرته على التحليل، وأوجين كوغون، الذي ليس له وضوحه ولا دقته. وعلى هذا، ونظراً للمكانة التي يحتلها في الأدب والصحافة لما بعد الحرب، لا يمكن تصنيفه لا مع الأولين ولا مع الآخرين.

إنه معني بالأدب محترف. إنه منتسب إلى هذا الصنف من الكتاب الذين يطلق عليهم أنهم ملتزمون. هو يلتزم ولكن غالباً ما يتحرر من هذا الالتزام -ليعود إلى الالتزام، إذ أن الالتزام لديه طبيعة ثانية. عرفناه من أنصار الشيوعية -في سن متأخرة- وهو الآن معاد للشيوعية، ربما كان ذلك للأسباب نفسها وفي الظروف نفسها: الزي الدارج. لم يكن باستطاعته الامتناع عن تأدية شهادته عن معسكرات الاعتقال. أولاً لأن مبرر وجوده الاجتماعي هو الكتابة، ثم لأنه كان بحاجة ليعطي نفسه بنفسه تفسيراً للحدث الذي كان قد واجهه، فيفيد بذلك الآخرين. ولا ريب أنه لم يلحظ أنه كان يتحدث مثل جميع الناس، مع طريقة في التعبير لا أهمية لها.

عنوان الشهادة: الإنسان والوحش، ١٩٤٨، دار النشر غاليمار

الابتكار: رأى علب الكرتون التي كانت تحتوي زبدة المارغرين -المستخرجة من الفحم الحجري، بطبيعة الحال- التي كانت توزع علينا، معطاة بملاحظة: «مضمونة بخلوها من الدسم».(صفحة ٩٥. سبق ذكرها).شهادة هي محاكمة طويلة تستند إلى أحداث يميزها الكاتب على كل ردة فعل أخلاقية أو أخرى.

نمط المحاكمة

قبل ترحيله إلى (نويينغام)، أقام لويس مارتان-شوفيّه في كومبيين-روياليو، حيث عرف النقيب دوس الذي كان حينئذ عميد المعسكر، وهذا حكمه عليه:

«السيد النقيب دوس «عميد» المعسكر، والخادم المتحمس لأولئك الذين وضعوه في هذا الموضع، كان يجثم على طاولة، ويجري حساباته بصوت مرتفع، وهو يدخن سجائر ممنوعة علينا، خلافاً للأنظمة» (صفحة ٥١).

في نويينغام، عرف أندريه الذي كان من أبرز شخصيات المعسكر، وهو موظف من السلطة اختارته الشرطة العسكرية من بين الموقوفين. وهذه هي الصورة التي رسمها عنه:

«ولما كان عرضة للمراقبة الدقيقة من الشرطة العسكرية، وكان من أشد الناس حذراً، كان عليه، من أجل المحافظة على الدور الذي اختاره، معاناة المشقة في أن يتظاهر بخشونة كلامه مع الموقوفين. وأن يبدو فظّاً في الحديث، عديم الشعور والمرونة. كان يعلم أن أدنى ضعف سيتسبب بالوشاية وعزله الفوري. وكانت الأغلبية تأخذ سلوكه على ظاهره، فتعتقد أنه متواطئ مع الشرطة العسكرية، وصنيعتهم وعدوّنا؛ وبما أنه كان مسؤولاً عن الفرز وإسناد المهمات نسب إليه كل الذين أرسلهم إلى المجموعات، بلا مبالاة ظاهرة، دون أن يأخذ بالحسبان صنوف الرجاء والشكاوى والاعتراضات؛ وحين كان على ألف أن يرحلوا في مجموعة، ويتم حشر ٩٩٠ فقط في مقطورات البهائم، لم يكن أحد يتصور كل الخدع التي استخدمها أندريه، وكل الأخطار التي تعرض لها من أجل نجاة عشرة رجال من موت محتمل. كان يعلم أنه مكروه أو مشبوه بوجه عام، ولكنه اختار أن يكون كذلك، مفضلاً أداء المعروف على التقدير....

«هكذا عرفت أندريه، كان راضي النفس بالمودّة المبطنة بالتهديد من الشرطة العسكرية، والدناءة المتواطئة لشرطة مراقبة العمل ورؤساء الأبنية، وكراهية كتلة

الموقوفين؛ وأعتقد أنه كان يتغلب على المهانة، ويستبدل فضيلته الخاصة بنوع من النزاهة الباردة الغربية عن خلقه. لقد تخلى عن نفسه في سبيل واجب، كان في نظره يستحق هذا الإذعان». (صفحات ١٦٧-١٦٨-١٦٩).

وهكذا فإن الرجلين اللذين يشغلان وظيفتين متماثلتين، يتعرض أحدهما إلى قسوة مقتضبة، واحتقار من الكاتب، بينما لا يتمتع الآخر بتسامحه المؤيد فحسب، بل بإعجابه. وإذا تعمقنا بالأمر، علمنا من خلال قراءة الكتاب أن الثاني أدّى خدمة قيمة إلى مارتان-شوفيّه في ظرف كان يعرّض حياته للخطر. لم أعرف النقيب دوس في كومبيين، ولكن من المحتمل جداً أنه، مقارنة بأندريه، كان خطؤه الوحيد أنه لم يعرف كيف يختار الأشخاص الذين يؤدي لهم خدمات -إذ من المؤكد أنه كانت له زبائنه- وأن معلوماته الأدبية محدودة جداً وأقل من أن يعلم باحتواء مقر عمادته على عدد ما من أمثال مارتان-شوفيّه، ومارتان-شوفيّه نفسه.

ولعله ليس من نافلة القول إضافة هذا الحكم المطروح كأنه مسلّم به:

«طالما أعجبت، مع قليل من الذعر، وبعض الاشمئزاز، بأولئك الذين يجتازون في سبيل خدمة وطنهم وقضية عادلة من وجهة نظرهم كل عواقب الازدواجية، وازدراء العدو الذي يستخدمهم، أو ثقته التي يستغلونها، واشمئزاز رفاقهم في المعركة الذين يرون الخيانة فيهم، والصحبة الدنيئة للخونة الحقيقيين، أو الذين باعوا أنفسهم، والذين يرون فيهم مرتبطين بمهمتهم نفسها، ويعتبرونهم في عداد صفوفهم، ويقتضي ذلك إنكاراً للذات لا أستطيعه، ومكراً يثير بي الحيرة ويعود بي القهقرى.» (ص ١٦٨).

لعلنا نتساءل ماذا ينتظر محامو (بيتان) ليستشهدوا بنصّ من هذه الحجة التي تكتمل نكهتها بصدورها بقلم إحدى أجمل زهرات بستان الشيوعية. ولو عاد شأن البيتانيين، فسيمكن لمارتان شوفيّه، على كل حال أن يفخر بذلك، وربما استفاد بعض الشيء.

نمط آخر من المحاكمة.

كان الكاتب يتحدث في المعسكر مع طبيب قال له:

«يوجد حالياً في المعسكر ثلاثة أضعاف ما أستطيع استقباله من المرضى. وستنتهي الحرب بعد خمسة أو ستة أشهر، على الأكثر. وعليّ أن أتحمل أكبر عدد ممكن. ولقد اخترتك أنت وآخرين لتتماثلوا إلى الشفاء ببطء. ولو أعدتكم إلى المعسكر في مثل هذه الحال وهذا الفصل (وكنا في نهاية كانون الأول) فستموتون خلال ثلاثة أسابيع. سأحتفظ بكم. و -استمع إلي جيداً- سأعمل على إدخال من لم يصل مرضهم إلى حد من الخطورة، ويمكن بإبقائهم لفترة في المشفى أن ننقذهم؛ أما الميئوس من شفائهم، فسأرفضهم. إذ لن أسمح لنفسي باستقبالهم لأمنحهم ميتة مريحة. إن ما أركّز عليه هو الاحتفاظ بالأحياء. وسيموت الآخرون قبل أوانهم بثمانية أيام. سيّان. ما أبغيه ليس المشاعر، بل الفعالية. هذه هي مهمتي.

«كل زملائي متفقون معي، هذا هو سواء السبيل... وكلما رفضت دخول أحد المشرفين على الموت ونظر إليّ بدهشة، وبذعر وبملامة، كنت أشرح له أني أبادل حياته مقابل حياة ربما تم إنقاذها، ولم يكن يدرك، إلخ...» (صفحة ١٩٠).

لقد شعرت، هناك، أنه من الممكن الدخول إلى المشفى وتلقي العناية -نسبياً- لأسباب لم يكن فيها المرض أو خطورته إلا أسباباً ثانوية: حصانة، دعم، ضرورة سياسية، إلخ... كنت أردّ الأمر على ما تمليه الشروط العامة للحياة. وفضلاً عن ذلك إذا استخدم بعض الأطباء والمعتقلين المنطق الذي ينسبه مارتان-شوفيّه إليهم، فمن المناسب تسجيل ذلك في عداد الحجج المنطقية، وإدخاله عنصراً سببياً إلى جانب «سادية» الشرطة العسكرية في تفسير عدد القتلى، إذ يحتاج الطبيب إلى الكثير من العلم والثقة والقرائن ليحدد خلال بضع دقائق، من يمكن إنقاذه ومن لا يمكن. وكل ما أخشاه، لو كان الأمر كذلك، أن يكون الأطباء

الذين خطوا الخطوة الأولى نحو إدراك جديد للسلوك في المهنة، قد توصلوا إلى خطوة ثانية تدريجياً، وأن يتساءلوا عمن يجب إنقاذه ومن يجب أن لا يُنقذ بدلاً من تساؤلهم عمن يمكن إنقاذه ومن لا يمكن، وأن يحلوا هذه المشكلة الوجدانية بالرجوع إلى عوامل خارجة عن نطاق العلاج الطبي.

نظام المعسكر.

«كانت المعاملة التي يفرضها علينا رجال الشرطة العسكرية تنفيذاً لخطة مرسومة لدى السلطات العليا، ويمكن لهذه الخطة أن تقتضي بعض التزويقات والتحسينات والزخارف، المستوجبة من مبادرة أو نزوات أو رغبات قائد المعسكر، فللسادية ألوان، والخطة العامة محددة. قبل قتلنا أو جعلنا نموت، يجب إذلالنا.» (صفحة ٨٥).

في ظل الاحتلال، كان يوجد في فرنسا رابطة لأسر المرحلين والموقوفين السياسيين. وإذا خاطبتها إحدى الأسر لتحصل على معلومات حول مصير أحد أفرادها المرحّلين، كانت تتلقى تقريراً آتياً من هذه «السلطة العليا» الألمانية.

وإليكم هذا التقرير:

«معسكر ڤايمار» -يقع المعسكر على بعد تسعة كيلومترات من ڤايمار ويتصل بها بواسطة خط حديدي، وهو على ارتفاع ٨٠٠ متر.

«وهو يضم ثلاثة أسوار من الأسلاك الشائكة متحدة المركز. داخل السور الأول تخشيبات السجناء، وبين الأول والثاني المصانع والمشاغل حيث تصنع القطع التبديلية للأجهزة اللاسلكية والقطع الميكانيكية، إلخ...

«وبين السورين الثاني والثالث تمتد قطعة أرض غير مبنية انتهوا إلى اجتثاث أشجارها ويتم فيها استخدام طرق المعسكر وسكة حديدية صغيرة».

«السور الأول من الأسلاك الشائكة مكهرب وقد نُصِب عليه عدد لا يحصى من المراصد، على كل منها ثلاثة رجال مسلحين. ولا حراسة على السورين الثاني

والثالث، ولكن داخل محيط المعامل توجد ثكنة للشرطة العسكرية؛ وهم يقومون خلال الليل بدوريات مع الكلاب، وكذلك هو الحال داخل السور الثالث».

«ينتشر المعسكر على مساحة ثمانية كيلومترات مربعة ويضم زهاء ثلاثين ألف موقوف. وفي بداية العهد النازي، أوقف فيه المعارضون؛ وحول طبيعة سكانه، فنصفهم فرنسيون والنصف الآخر أجانب، ألمان ضد النازية، ولكنهم يبقون ألماناً ومنهم أغلب رؤساء الأبنية، ويوجد روس أيضاً بينهم ضباط في الجيش الأحمر، ومجريون وبولونيون، وبلجيكيون، وهولنديون، إلخ...

ونظام المعسكر هو كالتالي:

«في الساعة الرابعة والنصف: استيقاظ، اغتسال مراقب بصدر عار، غسل الجسد إجباري».

«في الخامسة والنصف: تناول ٥٠٠ سم٣ من الحساء أو القهوة مع ٤٥٠ غراماً من الخبز (وأحياناً في حال ندرة الخبز، كمية من البطاطا ذات النوعية الجيدة، وبوفرة)، ٣٠ غراماً من زبدة المارغرين، وشريحة دائرية من السجق أو قطعة جبن».

«الساعة الثانية عشرة: قهوة».

«الساعة الثامنة عشرة والنصف: ليتر من الحساء الجيد الكثيف».

«في الساعة السادسة صباحاً؛ انطلاق إلى العمل، والتجمع يتم حسب نوع العمل، معمل، مقلع، تحطيب، الخ... وفي كل دفعة يصطف الرجال خماس خماس ويتماسكون بالأذرع كي تستقيم الصفوف وتتباعد على نحو جيد. ثم يتم الانطلاق، وفي المقدمة تصدح الموسيقى (من ٧٠ إلى ثمانين عازفاً من الموقوفين في اللباس الرسمي: بنطال أحمر، وسترة زرقاء مزدانة بالأسود).

الوضع الصحي في المعسكر على خير ما يرام، ويشرف عليه الأستاذ ريشه، وهو مرحل. تتم الزيارة الطبية كل يوم. هناك أطباء عديدون، ومستوصف

ومستشفى، كما هو الأمر عليه في الجيش. يرتدي السجناء لباس المحكومين الألمان بالأشغال الشاقة وهو من الصوف الاصطناعي الذي يبعث الدفء إلى حد ما. واللباس الداخلي يعقم لدى دخولهم، ويتمتع كل اثنين منهم بغطاء واحد.

«لا توجد كنيسة في المعسكر، ومع ذلك يوجد العديد من الكهنة بين السجناء، ولكنهم، بصورة عامة، يكتمون صفاتهم، وهؤلاء الكهنة يجمعون المؤمنين من أجل محاضرات، وتلاوات كنسية، إلخ...»

«أوقات الفراغ. -حرية مطلقة داخل المعسكر، يوم الأحد بعد الظهر، وتزدان هذه الأمسية بعروض تؤديها فرقة مسرحية قام بتنظيمها السجناء أنفسهم. (السينما)، مرة أو مرتين أسبوعياً (أشرطة ألمانية). جهاز إذاعة في كل تخشيبة (بيانات ألمانية)، معزوفات جميلة تؤديها أوركسترا السجناء».

«كل السجناء متفقون على أنهم أحسن حالاً في ڤايمار مما كانوا عليه في فرين أو في سائر السجون الفرنسية».

«ونسترعي انتباه أُسر الموقوفين أن غارة الحلفاء على مصانع ڤايمار، التي تمت في أواخر آب، لم توقع أية ضحية في صفوف الموقوفين في المعسكر.

«ونسترعي الانتباه أيضاً أن أغلب القطارات التي انطلقت من كومپيين ومن فرين في آب ١٩٤٤ توجهت نحو ڤايمار».

وقد قام (جان پويسّان) الذي أورد هذا النص بالحكم عليه أنه: صرح من الغش والأكاذيب.

ومن الواضح أن كتابته تمت بأسلوب متسامح. فلم يرد فيه أنه في مشاغل بوشنڤالد، كانت القطع الميكانيكية التي تصنع عبارة عن أسلحة، لم يتحدث عن المشانق بسبب التخريب، ولا عن التفقد ومراجعة التفقد، وعن ظروف العمل، وعن العقوبات الجسدية. لم يوضح أن حرية بعد ظهر يوم الأحد محددة بمصادفات الحياة في الحي المجاور، ولا أن الكهنة الذين يجمعون المؤمنين من أجل

المحاضرات والصلوات كانوا يعدّون أنهم يحيكون المؤامرات فيقيمونها سراً وهم عرضة لإرباكات قاسية. وهو يكذب حتى حين يزعم أن المرحلين أحسن حالاً مما كانوا عليه في السجون الفرنسية، وأن غارة آب ١٩٤٤ لم تسبب أية ضحية في صفوف السجناء، وأن أغلب القطارات المنطلقة من كومبيين أو من فرين آنذاك قد توجهت نحو ڤايمار.

ولكن هذا التقرير، على ما هو عليه، أقرب إلى الحقيقة من شهادة الأخ بيران، ولا سيما ما يتعلق بالغذاء، ويبقى موجزاً عن نظام المعسكرات كما أعدته الدوائر المهيمنة للنازية. من الواضح أن هذا النظام لم يتم تطبيقه، والتاريخ سيذكر السبب، ربما عزا ذلك السبب الرئيس إلى الحرب، ومبدأ إدارة المعسكرات من الموقوفين أنفسهم، وكذلك التحولات التي تطرأ، لدى كل إدارة متسلسلة، على الأوامر وهي منحدرة من القمة إلى القاعدة. وهذا هو الحال في الجيش، إذ أن أوامر العقيد يعبّر عنها في الجبهة المساعد وتقع مسؤولية تنفيذها على العريف: كل العالم يعرف أنه داخل الثكنة، يعدّ المساعد هو الرجل الخطير وليس العقيد. وهذا ما هو عليه الأمر في فرنسا فيما يخص تعليمات الإدارة العامة المتعلقة بالمستعمرات: فهي مصاغة ضمن مفهوم يتفق مع رسم الحياة في المستعمرات التي يدرّسها كل المعلمين في كل مدارس القرية: إنهم يوضّحون مهمة فرنسا في نشر الحضارة، وإن أقل ما يجب هو قراءة أعمال لويس-ڤيردينان سيلين أو جوليان بلان أو ڤيليسيان شالاي، للحصول على فكرة سديدة عما يقوم به عسكريّو امبراطوريتنا الاستعمارية تجاه السكان المدنيين الأصليين لصالح المستوطنين الفرنسيين.

وأنا، من جهتي، مقتنع، أنه ضمن نطاق ما نجم عن واقع الحرب، لم يكن هناك ما يمنع السجناء الذين يتولون إدارتنا، ويقودوننا، ويراقبوننا، ويحيطون بنا، من أن يجعلوا من الحياة في معسكر اعتقال شيئاً ما قد يشبه إلى حد ما اللوحة التي كان الألمان يقدمونها عن طريق وسطاء إلى الأسر التي كانت تطلب

المعلومات.

معاملة سيئة:

«شاهدت بعضاً من رفاقي التعساء، الذين لا ذنب لهم سوى وهن أذرعهم، يموتون تحت الرفسات التي ينهال بها عليهم المعتقلون السياسيون الألمان الذين تسلموا رئاسات الورش وأصبحوا متواطئين مع خصومهم السابقين».

(صفحة ٩٢).

ويتبع ذلك الشرح:

«لم تكن لدى هؤلاء الأفظاظ النية بالقتل، ولكنهم، مع ذلك، كانوا يقتلون وهم في سَوْرة غضب عارم؛ العينان محتقنتان، والوجه قرمزي، واللعاب يسيل على الشفتين، وإذ لم يكونوا يستطيعون التوقف، فما كان عليهم إلا أن يمضوا حتى نهاية متعتهم».

يتحدث هنا عن عمل مسند، خلافاً للقاعدة، إلى السجناء دون لفّ ولا دوران. ولا نعلم أبداً إذا كان من الممكن وجود أناس يقتلون في «سورة غضب عام» ولا هدف لهم سوى «أن يمضوا حتى نهاية متعتهم». في المجتمع الذي إن لم نقل إنه سويّ، فعلى الأقل عادي ومقبول بأعرافه، هناك من ليسوا بالأسوياء، كما أنه من الممكن أكثر أن يوجد هؤلاء غير الأسوياء في مجتمع غير سويّ أصلاً. بيد أنني أكثر ميلاً للاعتقاد أنه لو أن أحد شرطة مراقبة العمل، أو أحد رؤساء الأبنية أو عميد المعسكر استسلم فوصل إلى هذا الحدّ، فإنهم يخضعون إلى عوامل متغيرة من العقد الأكثر قبولاً: الرغبة في الانتقام، الحرص على إدخال السرور في نفس السادة الذين سلموهم وظيفة مختارة، الرغبة في المحافظة على هذه الوظيفة مهما كان الثمن... وأضيف أنهم حتى في حال قسوتهم في المعاملة كانوا يحرصون، بوجه عام، ألا يتسببوا في موت أحد، وهذا جدير بأن يجلب لهم المتاعب مع الشرطة العسكرية. وهذا على الأقل ما رأيته في بوشنفالد ودورا.

على الرغم من هذا التفسير، لا بد من أن نغفر لمارتان-شوفيّه ذكره أيضاً لحادثين لا يمكن لطابعهما الإجرامي إطلاقاً أن يعد ناجماً عن «تنفيذ خطة موضوعة من السلطات العليا».

«كل أسبوع كان شرطي مراقبة العمل لدى المستوصف يقوم بالزيارة (وهو لا يفقه شيئاً)، ويفحص أوراق درجات الحرارة التي تمتلئ هوامشها بملاحظات حول تشخيص مثير للقلق، وينظر إلى المرضى: فإذا لم ترق له وجوههم أعلن عن إخراجهم، مهما كانت حالهم. وكان الطبيب يحاول أن يتدخل أو يثنيه عن قراره الذي يصعب مواجهته، إذ أن شرطي مراقبة العمل الذي تحل انطباعته محل العلم كان غريب الأطوار أيضاً.» (صفحة ١٨٥).

و :

«كان تيار الهواء القطبي، والاغتسال الإجباري بالصدر العاري، تدبيرين صحيين. كل إجراء مضرّ كان يغطى بتضليل صحي. ،قد تكشف هذا عما هو أكثر فاعلية. إذ أن كل من كانوا يشكون من ألم في صدورهم قضوا نحبهم خلال بضعة أيام.» (صفحة ١٩٢).

لم يكن هناك ما يرغم شرطي مراقبة العمل على تبني هذا التصرف، ولا ما يرغم المسؤولين عن الغرف أو ممرضي المستوصف على جعل الريح تهب في تيار من الهواء القطبي، أو على جر التعساء الذين كانوا بعهدتهم إلى الاغتسال عراة الصدر وبالماء البارد. ودون تمييز.

مع ذلك كانوا يقومون بذلك ضمن خطة في إدخال السرور إلى رجال الشرطة العسكرية، الذين غالباً ما كانوا يجهلون ذلك، كما كانوا يحرصون على الاحتفاظ بوظيفة تنقذ حياتهم. كنا نفضل لو أن مارتان-شوفيّه وجه صك اتهامه ضدهم بالشدة نفسها التي وجهها إلى رجال الشرطة العسكرية، أو على الأقل قسّم المسؤولية بينهم بالعدل.

الفصل الرابع

علماء النفس

دافيد روسيّه وعالم المعتقلات

من بين جميع الشهود، لم يبلغ أحد هذه المهارة وهذه القدرة على الإثارة وهذا الوضوح في إعادة بناء الجو العام للمعسكرات، التي يعدّ هو أعظم شخصياتها المرموقة، على الصعيد العالمي، ولكن ما من أحد أيضاً استطاع أن يضفي عليها الطابع الروائي بشكل أكثر ولا أفضل.

سيحفظ التاريخ اسمه: وأخشى أن يكون ذلك على الصعيد الأدبي، أما على الصعيد التاريخي بما للكلمة من معنى، فقد تجاوز الظاهر المحتوى، وقد توقع ذلك فسبق إلى القول:

«لقد سبق وأن رويت بعض الأحداث كما كانت معروفة في بوشنفالد وليس كما قدمتها الوثائق التي تم نشرها بعد ذلك...»

«وإن التناقضات في التفاصيل موجودة، وليس ذلك بين الشهادات فحسب بل بين الوثائق. إن معظم النصوص المنشورة حتى الآن لا تقف إلا عند المظاهر الخارجية جداً لحياة المعسكرات، أو تبريرات تتعرض بالتلميح، وتؤكد على المبادئ أكثر مما تجمع الوقائع. إن مثل هذه الوثائق لها قيمتها، ولكن شريطة معرفة ما تتحدث عنه بعمق: إذ غالباً ما تتيح إيجاد حلقة ما تزال خفية، وقد بذلت جهدي بدقة لإعادة التقارير إلى جماعاتها من حيث تعقيداتها الحقيقية وقوانين تصرفاتها.»

(أيام موتنا، الملحق صفحة ٧٦٤).

إن هذا الحكم أتاح له أن يهمل كلياً، أو يكاد أن يهمل الوثائق، وأن يؤكد،

معتمداً على أن ما كان منها متعلقاً بالمعسكرات الشرقية نادر وفقير، إن: «اللجوء إلى الشهادات المباشرة هو الأسلوب الرصين الوحيد للاستقصاء» (المرجع نفسه).

ثم يختار من خلال هذه الشهادات المباشرة أفضلها في خدمة أسلوبه في الرؤية انطلاقاً من ذلك.

«المسألة، ضمن هذه العوامل، أنه من الأنسب محاولة جريئة -ربما قيل عنها أن فيها مخاطرة- من أن نرغب في رؤية مشهد عام لمجمل عالم المعتقلات.» (المرجع نفسه).

لا يمكن وصفه بأدقّ مما يفعل هو. ولكن لماذا يتم تقديم المعسكرات بهذا الشكل الناجم عن التأكيد القاطع؟

إن كتاب «عالم المعتقلات» (باڤوا ١٩٤٦) حاز على نجاح جدير به. في جوقة الشهود القاصرين الذين يتصايحون بالثأر والموت في أعقاب الألمان المهزومين(١)، كان يحاول إلقاء المسؤولية على عاتق النازية، وسجل بذلك منعطفاً، وتوجهاً جديداً، وفرنسا *المسالمة* أصبحت مدينة *لدافيد روسيّه بانتهائه إلى هذه الكلمات*:

«إن وجود المعسكرات هو إنذار. والمجتمع الألماني، بسبب قوة بنيته الاقتصادية ومرارة الأزمة التي هزمته، في آن واحد، عرف فساداً ما يزال منقطع النظير في الظرف الحالي للعالم. بيد أنه من اليسير البيان أن الخطوط الأكثر دلالة في عقلية الشرطة العسكرية الألمانية، والبنية التحتية الاجتماعية باتت موجودة ضمن قطاعات أخرى في المجتمع العالمي، صحيح أنها ليست متهمة وليس هناك ما يجمعها في التطور المعروف لدى الرايخ الأكبر، ولكن المسألة هي مسألة

١- «على الفرنسيين أن يعلموا ويحفظوا أن الأخطاء نفسها تؤدي إلى الأهوال نفسها، عليهم أن يبقوا على حذر من مزاج وعيوب جيرانهم القاطنين عبر نهر الرين، من ذلك العنصر المتسلط. ولهذا السبب فقد قام السجين رقم ٤٣٦٥٢ بكتابة هذه السطور. أيها الفرنسيون، كونوا يقظين ولا تنسوا أبداً.» (الأخ بيران. ١٦ شهراً في معتقل الأشغال الشاقة. صفحة ١١٧)

ظروف. إنه لمن التضليل والتجني الزعم أنه من المستحيل على الشعوب الأخرى أن تقوم بتجربة مماثلة لأسباب مخالفة لطبيعتها. لقد فسّرت ألمانيا بالأصالة الخاصة بتاريخها، الأزمة التي قادتها إلى عالم المعتقلات. ولكن وجود وآلية هذه الأزمة مرتبطان بالأسس الاقتصادية والاجتماعية للرأسمالية والأمبريالية. ويمكن لعوامل مماثلة أن تظهر غداً بأشكال جديدة(١)

والمسألة تكمن من حيث النتيجة في أن هناك معركة في غاية الدقة يجب خوضها.» (صفحة ١٨٧).

إن كتاب «أيام موتنا» الصادر عام ١٩٤٧ الذي ينطلق من معطيات كتاب «عالم المعتقلات» ويدفع بهذه المعطيات إلى أقصى معاقل التأمل، هو أبعد إلى حد ما عن المجاهرة بالرأي، بينما كتاب «المهرج لا يضحك» الصادر عام ١٩٤٨ ينسى تماماً؛ وذلك ما يدعو إلى الاستنتاج أن داڤيد روسيّه قد تطور تحت غطاء الوضوح، مما جعل كتابه ينتهي إلى اتخاذ طابع أكثر معاداة للألمان مما هو معاد للنازية،

١- والدليل على ذلك. -«بينما تمكن مئات الألوف من «الأشخاص المهجرين» الكبار من مغادرة المعسكرات والرحيل إلى الأمريكيتين، فإن آلاف الأطفال بقوا مع الشيوخ تحت وصاية المنظمة الدولية للاجئين في المخيمات الكئيبة الموجودة في ألمانيا والنمسا وإيطاليا، ولكن المنظمة الدولية للاجئين ستنقطع نهائياً عن أعمالها خلال بضعة أشهر، ولنتساءل عن مصير هؤلاء اليتامى الذين تم تشريدهم مرتين».

«لقد أصبح وضعهم منذ الآن مأساوياً، إذ أنهم في بعض المخيمات لا يتناولون من الغذاء إلا ما يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة حريرة في اليوم الواحد، ولا أحد يدري إذا كان من الممكن المحافظة على هذه الجراية. والموت في هذه الظروف يفتك فيهم فتكاً ذريعاً.» (صحيفة لاباتاي. ٩ من أيار ١٩٥٠) وتحدد الصحيفة أن هناك ١٢ مليوناً يعيشون على هذا النحو في أوروبا بعد أن تخلصت من هتلر وموسوليني وكل تسلط فاشي. وأنا أطالب بإجراء التحقيق حول المعاملة التي يخضعهم لها حراسهم (المؤلف)

في نظر الجمهور. إن هذا التطور يتميز على الأخص ببعض التسامح مع البلشفية، لدى نقطة انطلاقه، ثم انتهى إلى استنتاجه في وقت متأخر إلى عداء للبلشفية مع مجازفة في القول إنه لن يتحول إلى مجرد معاداة محضة للروس، إذا اندفعت الأزمة العالمية إلى درجة التصميم على الحرب.

وهكذا فإن أصالة كتاب «عالم المعتقلات» تكمن في التمييز بين ألمانيا والنازية في تحمل المسؤوليات، وتجاوز ذلك بنظرية تركت أثراً عميقاً، وذلك بتبريرها لسلوك السجناء المكلفين بإدارة شؤون المعسكر، نظراً لضرورة المحافظة على النخبة من الرجال الثوريين، قبل كل شيء، من أجل ما بعد الحرب(١). وبينما كان (مارتان-شوفيّه) يبرر عمل الطبيب الذي يريد إنقاذ أكبر عدد ممكن من السجناء ببذل جهوده نحو بعض المرضى في بادئ الأمر، فإن دافيد روسيّه يبرر السياسة التي تود إنقاذ النوع لا العدد، ولكن هذا النوع محدد وفقاً لضرورات خارج نطاق العوامل الإنسانية، وهذا يعطي الكثير من المبررات، وليس أهونها لما ينصبّ على كتلة الرجال المجهولين من المعتقلين. وإذا حصل في يوم من الأيام وجرى الحديث، عن هذا التبرير أو ذاك ضمن نطاق التضليل الفلسفي، فلن يكون ذلك بالأمر العجيب. ويمكن للنفوس الخبيثة أن تضيف أن دافيد روسيه قد تم على الأرجح إنقاذه من الموت على يد شرطي مراقبة عمل شيوعي ألماني يدعى إميل كوندر، كان يعتبره منتمياً إلى هذه النخبة الثورية، والذي أظهر له وداً لهذا السبب ويتبرأ منه اليوم.

أقول هذا من غير مساس ببعض التحفظات الأخرى.

النظرية المسلّم بها:

«من الطبيعي، حينما تكون كل القوى الفاعلة لإحدى الفئات رهينة الصراع

١- هذه النظرية تم التأكيد عليها أيضاً في كتاب «أيام موتنا».

الأكثر شمولية مما اكتشف حتى الآن، أن يوضع الخصوم في حال يستحيل فيها عليهم إلحاق الضرر، وإبادتهم إذا دعت الضرورة إلى ذلك». (صفحة ١٠٧).

هذا الكلام لا غبار عليه، ولكن النتيجة التي انتهى إليها منه، دون تمهيد، أمر آخر:

«إن هدف المعسكرات هو الإبادة الجسدية تماماً». (المرجع نفسه).

لا يمكن التغاضي عمّا ورد في المسلّمة نفسها من أن الإبادة الجسدية منوطة بالضرورة وليست مقررة من حيث المبدأ: لا يتم التفكير فيها إلا في الحال التي لا يكفي تدبير السجن لوضع الفرد خارج نطاق القدرة على إلحاق الضرر.

وبعد تجاوز أو استنباط جريء بهذا المقدار، لم يكن هناك داعٍ للتوقف، وأمكن كتابة ما يلي:

«الأمر يحمل سمة السيّد، فقائد المعسكر يجهل كل شيء، ومسؤول الشرطة العسكرية عن البناء يجهل كل شيء، وعميد المعسكر الذي اختارته الشرطة العسكرية من بين السجناء يجهل كل شيء، والمنفّذون يجهلون كل شيء؛ ولكن الأمر يشير إلى الموت، وكيفية الموت، والفترة التي يجب قضاؤها لعملية الموت، وهذا كافٍ في متاهة الجهل هذه.» (صفحة ١٠٠).

وهذه طريقة لجعل اللوحة صارخة الألوان من جهة، ومن جهة أخرى لإلقاء التبعية على عاتق «السلطة العليا» كما قال مارتان-شوفيّه، وإتاحة الاستنتاج أن هناك خطة تمّ وضعها لتنظيم الرعب تبرر مسلكها فلسفياً.

«إن العدو، من وجهة النظر الفلسفية للشرطة العسكرية الألمانية، هو قوة الشر المعبّر عنها فكرياً وجسدياً. فالشيوعي والاشتراكي، والليبرالي الألماني، والثوريون ورجال المقاومة الأجانب هم الرموز الفعّالة للشرّ. ولكن مجرد وجود بعض الأجناس: اليهود والبولونيين والروس، هو التعبير السكوني عن الشر. ليس هناك داعٍ ليهودي أو بولوني أو روسي أن يعمل ضد النازية: فهم، بحكم ولادتهم،

هراطقة لا يمكن استيعابهم، منذورون إلى نار جهنم. وهكذا فليس للموت معنى تام؛ والكفّارة وحدها يمكن أن تكون مرضية ومهدئة للسادة. إن معسكرات الاعتقال هي الآلة العجيبة المعقدة للكفّارة. وأولئك المحكوم عليهم بالموت يسيرون إليه ببطء محسوب، ليتحقق سقوطهم الجسدي والمعنوي على درجات يدركون من خلالها أخيراً أنهم ملعونون، ونماذج للشر، وليسوا بشراً. ويشعر من نصّب نفسه حكماً بمتعة خفية ولذة عارمة في دمار الأجساد.» (صفحة ١٠٨-١٠٩).

وعلى هذا، فإننا نرى أنه انطلاقاً من معسكرات الاعتقال المقررة أنها وسائل لوضع المعارضين خارج نطاق القدرة على إلحاق الضرر، يمكن بسهولة جعلها أدوات إبادة من حيث المبدأ والتهويل إلى ما لا نهاية عن هدف هذه الإبادة. وبدءاً من اللحظة التي تبلغ فيها الأمور هذا الحد، لن تعود المسألة إلا مسألة قابلية لبناء الفكر ومهارة. ولكن المجهود الأدبي الذي ينتج أمثال هذه الأحداث السعيدة للساديّة غير مُجدٍ قط، ولا حاجة له في أن يكون قد عاش الحدث ليصفه على هذا النحو: وما عليه إلا أن يرجع إلى وثائق الراهب توركمادا (الذي كان مسؤولاً عن محاكم التفتيش في القرن الخامس عشر) وإلى إعادة نسخ أطروحات محاكم التفتيش.

لم أتوقف أمام الجزء الأول من الشرح الذي يشبّه الروس والبولونيين باليهود لدى فكر القادة النازيين: فالخيال ظاهر للعيان.

العمل.

«العمل مفهوم على أنه وسيلة للعقاب. واليد العاملة في المعتقلات ليس لها سوى أهمية ثانوية، وَهْم غريب عن الطبيعة الداخلية لعالم المعتقلات. وهو من الناحية النفسية مرتبط بتلك السادية في إرغام الموقوفين على دعم أدوات عبوديتهم».

«لقد أدت الأسباب التاريخية لتصبح المعسكرات مؤسسات للأشغال العامة.

فقد استدعى توسع الحرب على الصعيد العالمي إلى الاستخدام الشامل لكل شيء ولكل الناس، للعرجان والصمّ والعميان وأسرى الحرب. وقد قامت الشرطة العسكرية بتعبئة رهط العميان في المعتقلات مستخدمة الجلّد في المهمات الأكثر إنهاكاً... ولم يكن عمل رجال المعتقلات يستهدف أساساً تحقيق مهمات محددة بل الحفاظ على «الموقوفين المحميين من غضب الشعب» في حال القسر الأكثر ضيقاً وإذلالاً.» (صفحة ١١٠-١١١-١١٢).

إذا تم الإقرار أن هدف المعسكرات هو الإبادة، فمن البديهي أن العمل ليس سوى عنصر مهمل في حدّ ذاته ضمن نظرية صوفيّة الإبادة. وينطلق أوجين كوغون، موضوع بحثنا في الفصل التالي، من المبدأ نفسه ولكن بشكل أقل لياقة، فيكتب في هذا الصدد بكتابه «الجحيم المنظم»:

«... لقد تقرر أن للمعسكرات هدفاً ثانوياً، أكثر واقعية وعملية ومباشرة: وبفضلها يتم جمع واستخدام يد عاملة مشكلة من العبيد الذين تملكهم الشرطة العسكرية، وهم طالما يسمح لهم بالبقاء على قيد الحياة فما عليهم إلا أن يخدموا أسيادهم. بيد أن ما سُمي أهدافاً ثانوية (إخافة السكان، استخدام العبيد يداً عاملة، المحافظة على المعسكرات مكاناً للتدريب وحقلاً للتجارب من أجل الشرطة العسكرية). هذه الأهداف تحولت تدريجياً إلى الصعيد الأول، من أجل الأسباب الحقيقية للإرسال إلى المعسكرات، حتى ذلك اليوم الذي أدّت فيه الحرب التي أطلقها هتلر ونظر فيها وهيأها مع الشرطة العسكرية على نحو أكثر منهجية، إلى التطور الهائل للمعسكرات.» (صفحة ٢٧-٢٨).

لدى المقارنة بين النصيّن يُستنتج من النص الأول أن الطارئ التاريخي للحرب وأيضاً في لحظة اتساعها على الصعيد العالمي فقط، هو الذي جعل استخدام الموقوفين يداً عاملة على الصعيد الأول من أهداف المعسكر، بينما يرى النص الثاني أن هذه النتيجة قد تحققت قبل الحرب، ولم تفعل الحرب سوى

إعطائها أهمية أكثر.

وأنا أميل إلى الرأي الثاني: إذ أن تقسيم المعسكرات إلى معسكرات اعتقال، ومعسكرات عمل ومعسكرات عقوبة كان قد تمّ حين إعلان الحرب. كانت تتم عملية الاعتقال، قبل الحرب، على مرحلتين: كانوا يجمعون المؤهلين في معسكر مهيأ أو مبرمج من أجل العمل، ويقوم بالإضافة إلى ذلك بدور محطة للفرز؛ ومن هناك كانوا يوجهونهم نحو المعسكرات الأخرى، وفقاً لاحتياجات العمل. وكانت هناك مرحلة ثالثة من أجل الجانحين الذين هم قيد الاعتقال: كانوا يُرسلون للعقاب إلى معسكر عادة ما يكون في طور البناء، ويعد هذا المعسكر معسكر تأديب، ولكن ما إن يتم إنشاؤه حتى يصبح بدوره معسكراً عادياً.

وأضيف أنني أرى أن العمل دائماً كان مقدّراً. وهو جزء من القانون الدولي للعقوبة: ففي جميع بلدان العالم، تلجأ الدولة إلى جعل من تسجنهم يكسبون قوتهم بعرق جبينهم، ما عدا بعض الاستثناءات القليلة (كسجناء النظام السياسي في الدول الديمقراطية، والمنفيين المتميزين لدى الأنظمة الديكتاتورية). ولا يمكن أن يتم عكس ذلك: إذ أن المجتمع الذي يرعى أولئك الذين يخرقون قوانينه ويهدمون أسسه لا معنى له. ولكن شروط العمل تختلف تبعاً للعامل إذا كان حراً أو معتقلاً -وكذلك هامش الربح الممكن تحقيقه.

فيما يتعلق بألمانيا، حصلت تلك الحال الخاصة من أنه كان من الواجب بناء المعسكرات من أولها حتى آخرها ولكن الحرب جاءت على حين غرّة. وخلال كامل فترة الإنشاء كان يمكن الاعتقاد أن هدفها كان محصوراً بالإبادة: واستمر الأمر خلال الحرب، وكان هناك ما يحمل على الاعتقاد بذلك بعد الحرب أيضاً. وكان الاحتيال أقل وضوحاً بسبب ما كانت الحرب تستدعيه دائماً من عدد أكبر من المعسكرات، وأن فترة البناء لم تنته قطّ، وبتلاقي هذين الظرفين في أحداثهما فقد أتاحا إغناء عامل الغموض، والأخذ بالمظاهر.

الإدارة الذاتية للمعسكرات:

من المعروف أن الشرطة العسكرية فوضت بعض الموقوفين بتوجيه وإدارة المعسكرات. وهكذا فهناك رؤساء مجموعات، ورؤساء أبنية وشرطة وعمداء أو رؤساء معسكرات، إلخ... إنها إدارة بيروقراطية للمعتقلات تمارس على الواقع كل السلطة داخل المعسكر. كما أنها قاعدة تشكل جزءاً من قانون القمع في سائر بلدان العالم. «لو كان للموقوفين الذين تؤول إليهم كل هذه الوظائف الحد الأدنى من مفهوم التضامن، والحد الأدنى من روح الانتماء، لكان هذا التدبير عاملاً في تخفيف العقوبة عن الجميع. ولكن مع الأسف، فالحال ليست على هذا النحو إطلاقاً. إذ أن السجين الذي وقع الاختيار عليه، حين يتمكن من الوظيفة التي أسندت إليه، في كل مكان، يبدّل عقليته وانتماءه. إنها ظاهرة أشهر من أن نلح على شرحها وأكثر شمولاً من أن نعزوها فقط إلى الألمان أو النازيين. والخطأ الذي وقع فيه داڤيد روسيّه كان في الاعتقاد، على كل حال، وحمل الآخرين على الاعتقاد أنه يمكن أن يكون هناك وجه آخر في أحد معسكرات الاعتقال، وفعلاً كان هناك وجه آخر -إذ أن المعتقلين السياسيين كانوا من ماهية أرقى من عامة الناس وأن الأمور التي يخضعون لها كانت أنبل من قوانين الصراع الفردي من أجل البقاء.

وهذا ما دفع به أن يطرح من حيث المبدأ أن إدارة المعتقلات بعدم قدرتها على إنقاذ العدد الأكبر، فلها الفضل في إنقاذ النوعية كحد أقصى:

«يمكن من خلال التعاون الوثيق مع أحد شرطة مراقبة العمل خلق شروط حياة أفضل بكثير، حتى في الجحيم». (صفحة ١٦٦، في الحاشية).

ولكنه لم يقل كيف كان يمكن الحصول على التعاون الوثيق مع شرطي مراقبة العمل، ولا أن هذا التعاون لا يتجاوز قط، إلا فيما ندر، إذا كان هذا الشرطي سياسياً، مرحلة العلاقات الفردية للسيد مع تابعه، ولا أنه نتيجة لذلك لا يتمتع بذلك إلا عدد زهيد من السجناء.

والكلام يتبع بعضه بعضاً:

«إن الحصول على هذه الوظائف، إذن، ذو أهمية رئيسة، وحياة وموت الكثير من الناس متوقف عليها.» (صفحة ١٣٤).

ثم إن من يحصلون عليها ينظمون أنفسهم، وخير من ينظمون أنفسهم هم الشيوعيون، إذ يحيكون مؤامرات حقيقية ضد رجال الشرطة العسكرية، ويقيمون برامج عمل من أجل ما بعد الحرب. وإليكم بعض المقتطفات:

«في بوشنفالد، كانت اللجنة المركزية للتنظيم الشيوعي تضم ألماناً وتشيكيين وروسياً واحداً وفرنسياً واحداً.» (صفحة ١٦٦).

«منذ عام ١٩٤٤ كان اهتمامهم منصباً على الأحوال التي ستنشأ لدى انتهاء الحرب. كانت لديهم خشية جسيمة من أن يقتلهم رجال الشرطة العسكرية جميعاً قبل ذلك. وكانت هذه الخشية في محلها.» (صفحة ١٧٠).

«في بوشنفالد، وخارج نطاق المنظمة الشيوعية التي بلغت، دون ريب، درجة من الكمال والفاعلية فريدة في سجلات المعسكر، كانت هناك اجتماعات شبه منتظمة بين عناصر سياسية تتراوح بين الاشتراكيين واليمين المتطرف، وانتهت هذه الاجتماعات إلى صياغة برنامج عمل مشترك من أجل العودة إلى فرنسا.» (صفحة ٨٠-٨١).

كل هذا منطقي: وهو الواقع الذي يصلح نقطة انطلاق لما هو قابل للجدل.

كان هناك، حقاً، لدى كل المعسكرات، لقاءات تقارب بين السجناء، وتشكيلات سرية للمجموعات، بسبب تجانس بينها من أجل خلق شروط أحسن لتحمل المصير المشترك، أو بسبب المصلحة، من أجل الوصول إلى السلطة، أو الاحتفاظ بها، أو ممارستها على نحو أفضل.

لدى التحرير أشاع الشيوعيون الاعتقاد، بمساندة من دافيد روسيّه أن وثاق رابطتهم يكمن في عقيدتهم التي كانوا يقومون بأفعالهم على نحو مطابق لها في

الواقع إن هذا الوثاق يكمن في الفائدة المادية التي كان يستطيع الحصول عليها من كان في عداد هذه الرابطة، سواء من حيث المؤونة الغذائية أم من حيث المحافظة على الحياة. وفي المعسكرين اللذين عرفتهما، كان الرأي السائد أن كل لجنة سياسية، شيوعية كانت أم لم تكن، فأول طابع تتخذه هو طابع رابطة لسرقة المواد الغذائية وتحت أي مظهر كان. ولا شيء يمكنه أن يلغي هذا الرأي. بل على العكس، فالجميع كانوا يؤيدونه: إذ أن تلك الزمر الصغيرة للشيوعيين أو السياسيين تتجابه حول التعديلات في تركيبة من كان يتولى السلطة بينهم، ويتدخلون دائماً في أعقاب مختلف أشكال توزيع وتقسيم ما نهبوه، وحول توزيع وظائف القيادة التي تتبع الإجراء نفسه، إلخ، إلخ.

خلال الأسابيع القليلة التي قضيتها في بوشنفالد في البناء ٤٨، قررت مجموعة من القادمين الجدد، بإيحاء من رئيس البناء أو بتفويض منه، أن تأخذ على عاتقها رفع الروح المعنوية لدى كتلة السجناء. وشيئاً فشيئاً اكتسبت السلطة ولا سيما في العلاقات بين رئيس البناء وبيننا، وانتهى الأمر إلى ألاّ يتم ذلك إلاّ بوساطتها. وضعت لوائح الحياة في البناء، وكانت تنظم المحاضرات، وتعيّن أعمال السخرة، وتوزع المواد الغذائية، إلخ. وكان مما يدعو إلى الرثاء أن نرى جوقة التملق بكل صنوفها تتصاعد من أولئك المنضمين إليها لرئيس البناء المطلق الصلاحية. وذات يوم فوجئ المحرّك الأساسي لهذه المجموعة بأحد السجناء يتقاسم مع شخص آخر البطاطا التي سرقها من الحصة المشتركة.

ويروي أوجين كوغون أن الفرنسيين في بوشنفالد الذين كانوا وحدهم يتلقون طرود الصليب الأحمر قرروا تقاسمها بالتساوي مع سائر الموجودين في المعسكر.

«حين أبدى رفاقنا الفرنسيون استعدادهم لتوزيع قسم كبير على المعسكر بمجمله، قوبلت بادرة التضامن هذه بالعرفان. ولكن التوزيع تم بأسلوب مخزٍ خلال أسابيع، إذ لم يكن، في الواقع، سوى رزمة واحدة لكل مجموعة من عشرة

فرنسيين... بينما كان مواطنوهم المكلفون بالتوزيع، وعلى رأسهم رئيس الزمرة الشيوعية الفرنسية في المعسكر(١)، يحتفظون لأنفسهم بأكداس الطرود، حيث كانوا يستخدمونها لصالح أصدقائهم الذين هم على شاكلتهم.» (الجحيم المنظم، صفحة ١٢٠). ومن جهة أخرى، يرى دافيد روسيَّه جانباً ضاراً في مثل هذه الظروف، إن لم يجعل من ذلك قضية مثيرة للعقبات وجوهرية للكراهية، وهو يكتب:

«لم تكن البيروقراطية تمارس فقط في إدارة المعسكرات: فهي بوساطة رؤوسها ذات صلة بعمليات التهريب التي تقوم بها الشرطة العسكرية. كانت برلين ترسل صناديق السجائر والتبغ لتدفع أجراً للسجناء، وكانت شاحنات المواد الغذائية تصل إلى المعسكرات. وكان يجب إعطاء الأجر كل أسبوع للسجناء؛ ولكن ذلك لم يكن يتم إلا كل خمسة عشر يوماً أو كل شهر. وقاموا بتخفيض عدد السجائر، وأعدوا لوائح بالذين لا يقومون بعملهم على النحو المطلوب الذين لن يتلقوا شيئاً، فينهار الرجال بسبب عدم التدخين، وماذا يهمّ؟ فالسجائر تمضي إلى السوق السوداء. كذلك اللحم والزبدة والسكر والعسل والمعلبات. ونسبة أعلى من الملفوف الأحمر، والشوندر، وملفوف الروتاباغا المتبّل بقليل من الجزر..تكفي! أما اللبن فقليل منه المخلوط بالماء سيكون صالحاً. والباقي بأكمله: اللحم، الزبدة، السكر، العسل، المعلبات، اللبن، البطاطس، فترسل إلى السوق من أجل المدنيين الألمان الذين يدفعون الثمن وهم مواطنون صالحون! وستكون جماعة برلين راضية لدى علمها أن كل شيء، على ما يرام، يكفي أن تكون السجلات نظامية والمحاسبة يمكن التحقق منها... والطحين؟ كيف يتم ذلك، تُخفف حصص الخبز، وبدون التظاهر بشيء يمكن للأجزاء أن تقطع بأصغر قليلاً، والسجلات لا تهتم بهذه

١- أسندت إليه هذه الصفة من قبل الفئة الحاكمة، والمقصود هو مارسيل بول (انظر الفقرات الأخيرة من الفصل الثاني من الجزء الأول).

الأمور. وسادة الشرطة العسكرية على علاقات اجتماعية ممتازة مع تجار المنطقة.» (صفحات ١٤٥-١٤٦-١٤٧).

وهذا يقوم بتكذيب، ما يتعلق بالمواد الغذائية على الأقل، الأسطورة التي تزعم أن هناك خطة موضوعة من «السلطات العليا» لتجويع السجناء. فبرلين ترسل كل ما يلزم لتقدم إلينا الحصص المشار إليها طبقاً لما تمت كتابته إلى الأسر بَيدَ أنه دون علم منها لم تكن تُوزَّع علينا(١). ومن الذي يسرق؟

١- اتضحت الظاهرة نفسها من خلال الدعوى التي أقيمت مؤخراً على «جمعية البر بالأمهات والأطفال» في فرساي التي تشرف عليها زوجة الجنرال پالو، وكشف التحقيق في القضية عما يلي: «كان الأطفال ذوو الثياب الرثة، مهملين في قذارة مثيرة للاشمئزاز، في قاعة تعجّ فيها الهوامّ، وفرش القش يفوح منها نتن الغائط والبول وكان الدود أحياناً يتجمع فيها. لم يكن هناك سوى ملاءة واحدة وغطاء واحد. كل المراحيض مسدودة، وكان الأطفال يقضون حاجاتهم حيث وجدوا، وكانوا ممتلئين بالبثور الجلدية المعدية والقمل.

«هذا من حيث المظهر. فهناك ثلاثة عشر طفلاً ماتوا من الجوع. ومع ذلك فإن جمعية زوجة الجنرال التي تعد ذات نفع عام، تتلقى، عدا الجرايات العادية، مخصصات إضافية، ولا يرى الأطفال من كل هذا شيئاً: فاللبن يمزج بالماء نصفاً بنصف، وتستخدم المواد الدسمة لتغذية الموظفين، والسكر مقنن إلى حد بعيد.

«قالت إحدى المراقبات: لقد تحمل الأطفال كثيراً».

«كانت زوجة الجنرال تتسلم يومياً ليتراً ونصفاً من الحليب وشوكولا وأرزاً ولحماً من الصنف الأول».

«وكانت المديرة، وهي امرأة قصيرة سمراء، ترسل إلى أسرتها طروداً يزن كل منها عشرين كيلوغراماً من مدخراتها الشخصية».

«كل هؤلاء الناس كانت تغذيتهم جيدة ولا يدهشون من تلك التغذية الدارجة من ملفوف الروتاباغا اليومي «والأطفال؟ آه! ما أسهل ذلك، فهم لا يطالبون بشيء.» وإذن ألم يكن هناك طبيب؟ بلى. هم يكتفون، ربما بزيارة سريعة...

قال الدكتور دوبون: حالة الحصبة هذه دارجة وقد عالجتها بشكل عادي تابع

إنهم السجناء المكلفون بالتوزيع. يقول لنا داڤيد روسيه إن ذلك يتم بناء على أمر الشرطة العسكرية التي يعهدون إليها بحصيلة السرقة: كلا، إنهم يسرقون من أجل أنفسهم في بادئ الأمر، ويتنعمون بكل شيء على مرأى منا، ويدفعون الإتاوة إلى الشرطة العسكرية، ليشتروا تواطؤها.

وهكذا إذن فقد انحطت اللجان الثورية الشهيرة، من الدفاع عن مصالح المعسكر أو الإعداد للخطط السياسية لما بعد الحرب، إلى هذا الدرك واستطاعت مع ذلك أن تغش الرأي العام من هذه الناحية. وأنا أدع لغيري مهمة البحث عن الأسباب التي دعت كي تسير الأمور على هذا النحو. مع ذلك سأسمح لنفسي بالإضافة أيضاً أن أولئك الذين نجحوا في تشكيلها أو الانتساب إليها أو تأمين السلطة التي كانت تمارسها في سائر المعسكرات،، كانوا يلجأون إلى مبدأ التملق حتى لا يكونوا مذنبين في مواجهة الشرطة العسكرية. وفي صدد المحاضرات المنظمة في البناء ٤٨ التي أشار إليها داڤيد روسيّه آنفاً يقول أيضاً:

«وهكذا نظمت المحاضرة الأولى: إذ قام مسؤول غرفة روسي في الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين من عمره، عامل في مصنع مارتي في لينينغراد،

تابع: (على فراش قش نتن وغطاء واحد، وهكذا يحدث التهاب القصبات والالتهاب الرئوي والموت).

ويسأل وكيل النيابة الطبيب الآخر الدكتور ڤاسلان:

– إذن، فأنت هرعت حين أعلموك أن الطفل داغورني قد تم نقله إلى المستشفى حيث مات بعد يومين؟

–لم أكن أستطيع، فقد تصادف ذلك مع موعد تناولي طعام الغداء... أقصد موعد استشارتي (صحيفة لوبوبلير، ١٦ من أيار ١٩٥٠) هذه الصفحة جديرة بأحسن حكايات معسكرات الاعتقال. لقد حدثت المأساة في فرنسا ولم يدر الرأي العام عنها شيئاً ولا الإدارة التي ترتبط بها «جمعية البر بالأمهات والأطفال». كان الأطفال يموتون فيها كما يموت سجناء المعتقلات، في الشروط نفسها، وللأسباب نفسها. ومع ذلك فقد كان في بلد ديمقراطي.

بعرض مفصل عن الوضع العمالي في الاتحاد السوفييتي، وقد دامت المناقشة التي أعقبت ذلك يومين بعد الظهر، وقام بالمحاضرة الثانية أحد الكولخوزيين عن التنظيمات الزراعية السوفييتية. وقمت بنفسي، بعد لأي بمحاضرة عن الاتحاد السوفييتي منذ الثورة وحتى الحرب.»... (صفحة ٧٧).

لقد حضرت هذه المحاضرة. وكانت قمة في محاباة البلشفية، ولكنها غير منتظرة لو علمنا النشاطات التروتسكية السابقة لدافيد روسيّه. بيد أن إيريك رئيس البناء كان شيوعياً وكان ذا حظوة واسعة لدى «النواة» التي تمارس النفوذ الغالب في الإدارة الذاتية في تلك الفترة: فكان ماهراً في لفت نظره وتنبيهه إلى ذلك اليوم الذي سيكون له فيه حظوات يقوم بتوزيعها. ويتابع روسيّه قائلاً:

«بعد ثلاثة أشهر، كان المؤكد أني لا أستطيع العودة إلى هذه التجربة. وقد بلغ الخطر نهايته، ولكننا حينئذٍ كنا ما نزال جاهلين بالأمور، وكان إيريك رئيس بنائنا يتذمر دون أن يقف في وجه هذا الأمر...» (صفحة ٧٧).

طبعاً، وفضلاً عن ذلك، بعد ثلاثة أشهر كان الشرطي إميل كوندر هو صاحب القرار، فقد انتهى عهد المحاضرات، وكانت الكلمة الفاصلة للطرود القادمة من فرنسا. ومن خلال ما فهمته من كتاب «أيام موتنا» فقد لجأ روسيّه إلى هذه الوسيلة، ولست ألومه على ذلك، فأنا لست مديناً بحياتي إلا إلى تلك الطرود التي كنت أتلقاها ولم أكتم ذلك قط.

من الممكن مساندة وربما اعتناق الفكرة القائلة إنه ليس من المهم، سواء أكان ذلك من خلال النصوص المقتبسة التي ترى أن الأمر لا يعتدّ به، أم كان من تلك التي تبرره، أن الإدارة الذاتية سامتنا معاملة أشد عذاباً من تلك التي كانت تترصد لنا في الأوساط الموجهة للنازية ولم يكن هناك ما يرغمها على ذلك. ولكن علي أن أبدي ملاحظة في أنه بدا لي أن لا غنى عن تحديد أسباب العذاب بدقة وفي كل مظاهره، وذلك لإعادة الحق إلى نصابه في المبرر الشخصي الذي أسرفوا في

استخدامه، ولتوجيه أفكار القارئ بشكل أكثر نحو طبيعة الأمور في إطار التفكير في أن هذه المسألة لم يتم التطرق إليها إلا بطريقة ناقصة.

الموضوعية

«بيركناو، كبرى مدن الموت، الاختيار لدى الوصول: مظاهر المدينة الزائفة كأنها رسوم هزلية للخداع والاستعباد، الاختيارات الدورية في المعسكر، كل يوم أحد. الانتظار البطيء للإبادات المحتومة في البناء ٧. المجموعة الخاصة بمحرقة الجثث والمعزولة كلياً عن العالم، والمحكوم عليها بالعيش خلال كل لحظات وجودها مع الأجساد المعذبة والمحروقة. ويحطم الإرهاب الأعصاب بشكل حتمي كما تشهد سكرات الموت كل صنوف الإهانة والخـيـانة. وحين تغلق، بالضـرورة، الأبواب الجبارة لغرفة الغاز، ينهار كل شيء متحطماً أمام جنون استمرار الحياة، وما أن يفتح المصراعان حتى تنهار الجثث المختلطة بشكل مبهم متسلسلة على الخطوط الحديدية.» (صفحة ٥١).

في إطار النظرة الشاملة التي اتبعها كتاب «أيام موتنا» الذي اتخذ طابع الرواية وتم إنشاؤه، فضلاً عن ذلك، استناداً إلى وسائل، اعترف الكاتب بنفسه، ولو دون علمه، بسذاجتها (انظر مطلع هذا الفصل)، فإن هذه الفقرة من الكتاب لا تثير الأذى. ولكن ورودها في كتاب «عالم المعتقلات» الذي اتخذ من مختلف جوانبه طابع السرد المعاش، يبدو في غير محله: إذ أن دافيد روسيّه لم يحضر قط هذا التعذيب الذي يضفي عليه وصفاً يجمع في آن واحد بين الدقة والإثارة.

ما زال من السابق لأوانه النطق بالحكم النهائي حول موضوع غرف الغاز: فالوثائق نادرة، وما وُجد منها فهو مبهم أو ناقص، أو مبتور فكان غير جدير بالثقة. وأنا على ثقة، من جهتي، أنه إذا تم تحقيق جادّ في القضية بوساطة الوثائق، التي سيتم اكتشافها بالتأكيد إذا سادت هذه البحوثَ النيةُ الحسنةُ، فإن ذلك سيفتح آفاقاً جديدة تتعلق بها. حينئذٍ ستأخذنا الدهشة بسبب عدد الناس الذين تحدثوا

عنها، والصيغ المستخدمة في الحديث عنها.

ومن بين جميع الشهود الذين تناولوا الموضوع، كان أوجين كوغون أكثرهم جديّة وأضْفَتْ شهادته على الموضوع في نظري الحيِّز الأكبر من الاهتمام: ففي كتابه «الجحيم المنظم» (الذي مر ذكره) كتب ما يلي:

«كان لعدد قليل جداً من المعسكرات غرف الغاز الخاصة بها.» (صفحة ١٥٤).

ويتابع مستعرضاً آلية العملية:

«عام ١٩٤١، أرسلت برلين إلى المعسكرات الأوامر(١) الأولى لإنشاء وسائط نقل خاصة بالإبادة بواسطة الغاز. ووقع الاختيار أولاً على سجناء الحق العام وعلى سجناء أدينوا بالإخلال بالآداب العامة وبعض السياسيين الذين تنظر إليهم الشرطة العسكرية نظرة سيئة. كانت وسائط النقل هذه تنطلق إلى جهة مجهولة. وفي الحال التي كان عليها معسكر بوشنفالد، كانت في اليوم التالي تتم رؤية، الثياب بما فيها محتويات الجيوب، وطقوم الأسنان، إلخ.. وقد عُلم من أحد ضباط الصف الذين كانوا في المرافقة أن وسائط النقل هذه وصلت إلى بيرنا وهوهنشتاين وأنه تم إخضاع الرجال الذين كانوا فيها إلى تجارب لنوع جديد من الغاز وقضى الرجال نحبهم...

«وخلال شتاء ١٩٤٢-١٩٤٣، تم فحص كل اليهود من ناحية قدرتهم على العمل. وبدلاً من النقليات المشار إليها أعلاه، فقد تم إرسال اليهود العاجزين في أربع مجموعات تضم كل منها تسعين رجلاً، في الطريق نفسه، ولكنهم انتهوا إلى برنبورغ، قرب كوتن. وكان رئيس أطباء مشفى ذلك المكان ويدعى الدكتور إيبرل

١- هل تم الحصول على هذه الأوامر؟ إذا كان الجواب بالإيجاب فلماذا لا يتم نشرها؟ وإذا كان سلباً فلن يقبل أي مؤرخ قط أن يعتدّ بها.

أداة طيّعة بين أيدي رجال الشرطة العسكرية. وقد حملت هذه العملية في ملفات الشرطة العسكرية رقم المرجع «١٤ ف ١٣»(١). ويبدو أنها تمت في آن واحد مع إبادة كل مرضى المشافي التي كانت تعمم على ألمانيا تدريجياً في ظل النازية.» (صفحة ٢٢٥-٢٢٦).

وبعد أن أكد الحدث على هذا النحو الذي يدعو إلى الشك فيما يخص استخدام غرف الغاز، وخاصة في هذا الاتجاه الذي لا يستند إلى أي مرجع سوى وثائق يمكن التساؤل عما إذا كانت موجودة حقاً، يستشهد أوجين كوغون بوثيقتين أخريين بدتا له أنهما مقنعتان، بلا ريب:

«لقد تمكنا من الاحتفاظ بنسخة عن الرسالتين المتبادلتين بين الدكتور هوفن (من بوشنفالد) وهذا المشفى العجيب:

بوشنفالد	فايمار-بوشنفالد، ٢-٢-١٩٤٢
طبيب المعسكر	المرجع: محادثة شخصية
الموضوع	المرفقات: ٢
يهود عاجزون عن العمل في	إلى مشفى برنبورغ ١.د.سال
معسكر اعتقال بوشنفالد	صندوق البريد ٢٦٣

«بالإشارة إلى حديثنا الشخصي، أودعكم طياً، على نسختين ولإجراء ما يلزم، قائمة اليهود المرضى والعاجزين عن العمل، الموجودين في معسكر بوشنفالد.

طبيب بوشنفالد

التوقيع: هوفن

١- مشار إليها ولكن غير منشورة..

ويلاحظ أن النسختين المعلن أنهما جزء من الإرسالية غير منشورتين.

وإليكم الوثيقة الثانية:

مشفى برنبورغ | برنبورغ في ٥ من آذار ١٩٤٢

كتابكم رقم... | السيد قائد معسكر الاعتقال

كتابنا بتاريخ ٣ من آذار ١٩٤٢ | في بوشنفالد

الموضوع: ٣٦ سجيناً القائمة ١٢ | عن طريق فايمار

المرسلة في ٢ من شباط ١٩٤٢

«كنا طلبنا إليكم في كتابنا بتاريخ ٣ من الشهر الجاري أن تضعوا تحت تصرفنا السجناء الستة والثلاثين الأخيرين بمناسبة النقلة الأخيرة، في ١٨ من آذار ١٩٤٢.

ونظراً لغياب رئيس أطبائنا الذي سيقوم بالفحص الطبي لهؤلاء السجناء، نطلب إليكم عدم إرسالهم في ١٨ من آذار ١٩٤٢، بل ضمّهم إلى نقلة ١١ من آذار ١٩٤٢، مع ملفاتهم التي ستعاد إليكم في ١١ من آذار ١٩٤٢.

«هايل هتلر».

التوقيع: غودنشفايغ

من المتفق عليه أنه يجب الاعتماد بشكل خاص على النصوص للاستنتاج، من تبادل هذه المراسلة، أنها متعلقة بعملية إبادة بواسطة غرف الغاز، حتى ولو أضفنا إليها تقريراً كان الدكتور هوفن قد أرسله في الوقت نفسه إلى أحد رؤسائه الإداريين يقول فيه، وفق ما ذكره أوجين كوغون:

«غالباً ما أدّت التزامات الأطباء المتعاقدين والمفاوضات مع مصالح الدفن إلى إشكالات يصعب تذليلها... وهذا ما دعاني إلى الاتصال فوراً بالدكتور إنفريد إيبرل رئيس أطباء مشفى برنبورغ-سور-سال، صندوق بريد ٢٥٢، وهو الطبيب

نفسه الذي نفذ العملية «١٤ف١٣٠» وقد برهن الدكتور إيبرل عن إدراك عميق ومودّة عظيمة. وستنقل كل جثث السجناء المتوفين في شونبرغ-ڤيرنيفيرود إلى الدكتور إيبرل في برنبورغ، وستحرق، ولو بدون شهادة وفاة.» (صفحة ٢٢٧).

ويصف أوجين كوغون أيضاً غرف الغاز في بيركناو (أوشفيتز)، ويروي كيف كانوا يقومون بالإبادة عن هذه الطريق من خلال شهادة:

«... شاب يهودي من برنو يدعى ياندا ڤايس كان ينتمي عام ١٩٤٤ إلى مجموعة حرق الجثث وغرف الغاز، ومنه جاءت التفصيلات التالية التي أكدها أشخاص آخرون.» (صفحة ١٥٥).

على حدّ علمي، إن ياندا ڤايس هذا هو الشخصية الوحيدة في كل ما كتب عن المعتقلات، والتي قيل إنه حضر العذاب وله عنوان دقيق، ولا يوجد سوى أوجين كوغون ممن استفاد من بياناته. ونظراً للشأن التاريخي والأخلاقي لاستخدام غرف الغاز وسيلة للقمع، كان من الأجدى لو اتُّخذت تدابير تتيح للجمهور أن يعرف شهادته، من أن تتم عن طريق أشخاص وسطاء، وذلك بنشرها على أبعاد أوسع من فقرة جاءت عَرَضاً ضمن مجموعة من الشهادات.

إن العملية التي كانت تتم ممارستها دورياً في المعسكرات كافة تحت اسم «انتخاب» ساهمت إلى حد ما لدى الجمهور في نشر الرأي الذي انتهى لصالح تصديق هذا الموضوع، سواء من حيث عدد غرف الغاز أم من حيث ضحاياها.

في بعض الأيام، كانت الدوائر الصحية في المعسكر تتلقى أمراً بإقامة لوائح تضم كل المرضى الذين يعدّون عاجزين عن العمل لفترة طويلة نسبياً، أو نهائياً، وتجميعهم في بناء خاص، ثم كانت تأتي شاحنات -أو مجموعة مقطورات- فيقومون بشحنهم وينطلقون إلى جهة مجهولة. وكانت الشائعة في المعتقل تقضي أنهم متوجهون مباشرة إلى غرف الغاز، وكانوا يطلقون على هذه التجمعات في مثل هذه المناسبات، بسخرية لاذعة: «المجموعات المنطلقة نحو السماء» وبطبيعة الحال

كان جميع المرضى يسعون إلى الهروب منها.

وشاهدت عمليتين أو ثلاث عمليات «انتخاب» في *دورا*. وقد تمكنت من النجاة من إحداها بعد أن كدت أن أكون في عدادها. ودورا كان معسكراً صغيراً، وإذا كان عدد المرضى العاجزين عن العمل أكثر من الوسائل المتوفرة من أجل العناية بهم، فإنه لم يبلغ، إلا في مناسبات نادرة جداً، النسب الكفيلة بإرباك العمل أو عرقلة الإدارة.

أما في بيركناو التي يتحدث عنها دافيد روسيّه في *المقطع الذي* يستهدف هذا التركيز، فالأمر كان مختلفاً. كان المعسكر كبيراً جداً. حشد من البشر. وعدد العاجزين لا يستهان به. وكانت «الانتخابات» بدلاً من أن تتم بالأسلوب الإداري عن طريق الدوائر الصحية، كما في دورا، فإنها كانت تقرر على الفور، حينما تصل الشاحنات أو المقطورات. وكانت عديدة إلى درجة أنها كانت تتكرر على وتيرة تقارب المرة في الأسبوع، وكانت تتم ممارستها وفقاً للمظهر. وكان من الممكن حضور مشاهد حقيقية لمطاردة البشر بين الشرطة العسكرية وإدارة المعتقلات من جهة، وبين كتلة السجناء الذين يحاولون الفرار منهم من جهة أخرى، وفي جو من الذعر السائد. وبعد كل «انتخاب» كان الذين يبقون ينتابهم شعور بأنهم نجوا مؤقتاً من غرف الغاز.

بيد أنه ليس هناك ما يثبت بشكل غير قابل للجدل أن كل العاجزين أو المعتبرين كذلك، والذين تم اختيارهم على هذا النحو سواء أكان ذلك على طريقة دورا أم على طريقة بيركناو، كان مصيرهم إلى غرف الغاز. وفي هذا الصدد أود رواية حادث شخصي: ففي عملية «الانتخاب» *التي* نجوت منها في دورا، كان لي صاحب لم ينل الحظ الذي أصابني، رأيته ينطلق، ورثيت لحاله. وفي سنة ١٩٤٦، كنت لا أزال أعتقد أنه مات مختنقاً مع كل الدفعة التي كان واحداً منها. وفي أيلول

من العام نفسه، فوجئت به يتقدم في بيتي ليدعوني إلى مناسبة رسمية. وما إن حدثته عن شعوري الذي عشته من أجله، حتى روى لي أن تلك القافلة لم تتوجه نحو غرفة الغاز، بل إلى بيرغن-بيلسن التي كانت مهمتها، وبشكل خاص حينئذ، أن تستقبل بغرض النقاهة سجناء جميع المعسكرات. ويمكن التحقق من ذلك: والمقصود هو السيد مولان الموظف في محطة بيزانسون. ومن جهة أخرى فقد كنت التقيت في بوشنفالد، في البناء ٤٨ بتشيكي عائد من بيركناو وفي الظروف نفسها.

والآن ما هو رأيي في موضوع غرف الغاز؟ كان يوجد: ولكن ليس إلى الحد الذي كانوا يعتقدون. والإبادة بهذه الطريقة: كانت توجد أيضاً، ولكن ليس إلى الحد الذي تحدثوا عنه. ومن المؤكد أن العدد لا يغيّر من طبيعة العمل الرهيب. ولكن أن يكون ذلك تدبيراً رسمته الدولة باسم فلسفة أو عقيدة فذلك إضافة فيها شيء من الغرابة. هل يمكن القبول أنها كانت فعلاً كذلك؟ إنه ممكن ولكنه ليس أكيداً. إن علاقة السبب بالنتيجة بين وجود غرف الغاز وعمليات الإبادة ليست قائمة بشكل حتمي من خلال النصوص التي نشرها أوجين كوغون(١)، وأخشى من أن النصوص التي استند إليها دون أن يوردها أن تكون إقامتها لتلك العلاقة أقل من ذلك أيضاً.

أكرر: إن الحجة التي تلعب الدور الأكبر في هذه القضية كما يبدو، هي عملية «الانتخاب» التي ما من مرحّل إلا ويستطيع أن يتحدث فيها شاهداً بشكل أو بآخر ويقوم بذلك أساساً وفقاً لما كان يخشاه آنذاك.

حتى الآن لم تتم المراجعة الكاملة لوثائق النازية؛ ولذا فلا يمكن التأكد مسبقاً من أنه ستكتشف وثائق من شأنها أن تطعن بالمقولة القائمة، إذ أن ذلك يوقع في المبالغة المضادة؛ ولكنها إذا أظهرت ذات يوم نصاً أو أكثر يأمر بإنشاء

١- كما أنها لم تكن قائمة من خلال الشهادات أمام محكمة نورمبرغ.

غرف الغاز لهدف آخر غير الإبادة -ولا أحد يعلم الأمر مع هذه العبقرية العلمية الفذّة للألمان- فيجب القناعة أن الاستخدام الذي تم في بعض الحالات كان بسبب مجنون أو اثنين من الشرطة العسكرية وواحد أو اثنين من مسؤولي الإدارة الذاتية لإرضائهما، أو بالعكس بالتواطؤ، المدفوع ثمنه أو غير المدفوع، من واحد أو اثنين من الشرطة العسكرية المصابين بالساديّة.

في إطار الواقع الحالي لآثار المعسكرات(١)، ليس هناك ما يتيح التوقع أو التأمل باكتشاف مماثل، كما أنه ليس هناك ما يتيح استبعاده. وعلى أية حال لم يسجل إلا القليل جداً من الحوادث العرضية: ففي المعسكرات النادرة التي وُجدت فيها غرف الغاز، كانت ملحقة في الأبنية الصحية للتعقيم والحمامات المجهزة بتمديدات مياه أكثر مما كانت عليه في أفران حرق الجثث، والغاز المستخدم كان ناجماً عن انتشار أملاح السيانيد، وهي مواد كانت تدخل في تركيب المواد الملونة، ولا سيما الأزرق منها، والتي استخدمتها ألمانيا بوفرة إبّان الحرب.

طبعاً، ليس هذا سوى فرضية. ولكن في التاريخ كما هو الأمر عليه في العلم، ألم تنطلق أغلب الاكتشافات من الفرضية أو على الأقل من إثارة الشك؟

وإذا اعترض أحدهم بأنه لا فائدة من التصرف على هذا النحو مع النازية التي قامت الأدلة الراسخة على آثامها، فليُسمح لي أن أدّعي أنه لا فائدة أكثر في دعم عقيدة أو تفسير، ربما كان صحيحاً، لأحداث غير مؤكدة أو لم تحدث أصلاً.

٢- هناك نصّان استشهد بهما دافيد روسيّه في كتابه «المهرج لا يضحك». الأول هو شهادة لشخص يدعى ارتور غروش في نورمبرغ، وهي متعلقة بإنشاء غرف الغاز وليس باستخدامها. والثاني متعلق بسيارات مزوّدة بجهاز مسبب للاختناق، من الممكن أن يكون تم استخدامه في روسيا، وهو يحمل توقيع ملازم وموجّه إلى ملازم أول. وأي من النصيّن الأول أو الثاني لا يتيح اتهام المسؤولين في النظام النازي بأنهم أوعزوا بالإبادة بواسطة الغاز. والنصان موجودان في ملحق لهذا الفصل.

إن جميع المبادئ العظمى للديمقراطية لا تتلاشى من خلال محتواها، بل من تعرضها بالنقد من خلال تفصيلات يُعتقد أنها ليست ذات دلالة لا في مرماها ولا في مادتها، والديكتاتوريات لا تنتصر بوجه عام إلا في الحال التي تقام فيها ضدها حجج غير مدروسة. وفي هذا الصدد يروي داڤيد روسيّه حادثاً يصوّر بمهارة وجهة النظر هذه:

«كنت أتحدث مع طبيب ألماني... ولم يكن على ما يبدو نازياً. وكان مشبعاً من الحرب ولا يعرف أين توجد زوجته وأولاده الأربعة، إذ أن درسدن، لتي كانت مدينته، كانت قد تمت الإغارة عليها بقسوة. قال لي: «تُرى هل قامت الحرب بسبب دانزيغ؟» وأجبته بالنفي فقال:«وهكذا ترى أن سياسة هتلر في معسكرات الاعتقال كانت بشعة (ورحبت بذلك)؛ ولكن كان لديه الحق في كل ما بقي.» (صفحة ١٧٦).

وهكذا إذن، ومن خلال هذا التفصيل البسيط، إذ تم الاعتقاد أن من الخبث الإعلان عن أن الانطلاق إلى الحرب كان من أجل دانزيغ وقد تبين خطأ ذلك، فقد برر هذا الطبيب كل سياسة هتلر وأيّدها. وأنا الآن أتساءل بهلع عما يمكن أن يعتقده إذا قرأ داڤيد روسيّه.

ترجمة وتفسير:

هذا الأمر لا يعلق عليه الكثير من الأهمية:

«إن اصطلاح «كابو» يبدو أنه من أصل إيطالي ومعناه الرأس: وهناك تفسيران ممكنان: كابو هي اختصار كابورال (عريف) أو هي آتية من تحت مصطلح كامراد پوليتساي (الرفيق الشرطي) والتي كانت تستخدم في الأشهر الأولى في بوشنڤالد.» (صفحة ١٣١).

أما أوجين كوغون فهو أشد حزماً:

«كابو: من الإيطالية، إيل كابو، الرأس، الرئيس...» (الجحيم المنظم، صفحة ٥٩).

وقد اقترحت تفسيراً آخر يشتق الكلمة من تعبير (شرطي مراقبة العمل) الذي يعتمد على الحروف الأوائل من تلك الكلمات بالألمانية مثل كلمتي شوپو وغستاپو المكونة من الأحرف الأولى لكلمات الدلالة ذاتها. وإن حرص داڤيد روسيّه وأوجين كوغون على التفسير أكثر من التحليل في العمق لم يتح لهما التفكير في ذلك.

ملحق الفصل الرابع

إقرار خاضع للقَسَم

أنا الموقع أدناه ڤولفغانغ غروش أشهد وأقرّ بما يلي:

«فيما يتعلق بإنشاء غرف الغاز وأفران حرق الجثث، فقد تمت في إطار مسؤولية الزمرة المكلفة بالمهمة C بعد أن أوعزت لها بذلك الزمرة المكلفة D، وطريق التسلسل كان كما يلي: تتصل الزمرة المكلفة بالمهمة D بالزمرة المكلفة بالمهمة C. يقوم المكتب C.I بالخطط من أجل هذه التجهيزات في الحال التي يقصد بها الإنشاءات في حد ذاتها، وتنقلها بعد ذلك إلى المكتب .C.III الذي يهتم بالجانب الآلي لهذه الإنشاءات مثل حجب التهوية عن غرف الغاز، أو عملية إقلاع انتشار الغاز. حينئذٍ يعهد المكتب .CIII بهذه الخطط إلى مؤسسة خاصة عليها أن تسلم الآلات الخاصة وأفران حرق الجثث. ثم يخطر المكتب. CIII عن طريق التسلسل أيضاً المكتب .C.IV الذي ينقل الطلب بواسطة إدارة مراقبة الإنشاءات الغربية والشمالية والجنوبية والشرقية إلى الإدارات المركزية للإنشاءات. حينئذٍ تنقل الإدارة المركزية للإنشاءات أمر الإنشاء إلى الإدارات المختصة بالإنشاءات في معسكرات الاعتقال، التي تتولى تنفيذ الإنشاءات المنصوص عنها بواسطة السجناء الذين تضعهم الزمرة. D.III تحت تصرفها. وتعطي الزمرة المكلفة بالمهمة .D إلى الزمرة المكلفة بالمهمة .C الأوامر والتعليمات المتعلقة بأبعاد الإنشاءات وهدفها. وفي الحقيقة، كانت الزمرة المكلفة بالمهمة .D هي التي توعز في الأمور المتعلقة بغرف الغاز وأفران حرق الجث

التوقيع: ڤولفغانغ غروش

(عن كتاب المهرج لا يضحك لداڤيد روسيّه)

هذه الشهادات تمت في محكمة نورنبرغ. وإذا لم يكن الأسلوب المبهم الذي كتبت به الشهادة من صنع المترجم حصراً، فإنه قد تمت مراعاته بدقة متناهية للحفاظ على الغموض كما يبدو.

ومع ذلك فقد لايخفى على القارئ ما يلي:

١- إن الأمر ينحصر في إنشاء غرف الغاز وليس في هدفها ولا استخدامها.

٢- إن الشاهد يستند إلى أحداث من اليسير الوصول إلى حقيقة أمرها وإلى «تعليمات» يمكن نشرها مع ما يبدو من تجنب القيام بها، وخاصة ما يتعلق بهدف غرف الغاز، الذي نوه عنه.

٣- إنه من بين مجموع الإنشاءات من أجل المعسكرات التي كان يُعهد بدراستها وتنفيذها إلى الزمرة المكلفة بالمهمة. D (أبنية السكن، المستوصفات، المطابخ، المشاغل، المعامل، إلخ...) تم عزل غرف الغاز وأفران حرق الجثث ومقارنتها على نحو غريب بهدف الإغراق في إذهال الرأي العام الذي يقتنع بسهولة أن أفران حرق الجثث هي أدوات تعذيب اكتشفت بشكل خاص من أجل معسكرات الاعتقال، إذ أنه لا يعلم أن ممارسة حرق الجثث عادة منتشرة -مثلها مثل الدفن- في كل ألمانيا.

تقرير من ملازم إلى ملازم أول

قطاع بريدي رقم ٣٢٧٠٤ ٥٠١ ب.س

بناء رقم ٤٠/٤٢ كييف، ١٦ من نيسان ١٩٤٢

(قضية سرية من الرايخ)

إلى قائد الشرطة العسكرية راوف

برلين، برنتس البرشت، ٨

«انتهى تماماً الكشف على سيارات الزمرة .D والزمرة .C وإذا كان من الممكن استخدام الفئة الأولى، حتى في الأحوال الجوية السيئة (مع ذلك يجب ألا يتم ذلك بكثرة)، فإن سيارات الفئة الثانية (ساورر) تغوص في الوحل إبان المطر، وعلى سبيل المثال إذا أمطرت فترة نصف ساعة فإن السيارة تتعطل، ولا تفعل شيئاً سوى أن تتزحلق، لا يمكن استخدامها إلا خلال الطقس الجاف تماماً. والمسألة الوحيدة المطروحة تكمن في معرفة إمكانية استخدام السيارة في مكان التنفيذ حين تتوقف، إذ يجب قبل كل شيء قيادة السيارة حتى المكان اللازم، وهذا غير ممكن إلاّ إذا كان الطقس جيداً.» «إن مكان التنفيذ يبعد عادة مسافة من ١٠ إلى ١٥كم عن الطرق الرئيسة، وقد تم اختياره في موضع قلّما يرتاده بشر. ويكون مقفراً تماماً حين يكون الطقس رطباً وممطراً. وإذا تمت قيادة الأشخاص سيراً على الأقدام أو في السيارة إلى مكان التنفيذ، فسيدركون على الفور ما يحدث ويقلقون، وهو ما ينبغي تجنبه قدر الإمكان. ولا يبقى سوى الحل الوحيد الذي يكمن في نقلهم في الشاحنات إلى مكان التجمع ثم قيادتهم إلى مكان التنفيذ.»

«لقد عملت على تمويه السيارات من الزمرة. D بحيث تبدو وكأنها مقطورات، ولهذه الغاية قمت بفتح نافذة على كل جانب من السيارات الصغيرة كتلك التي تشاهد في بيوت القرويين في ريفنا، كما فتحت اثنتين من تلك النوافذ على كل جانب من السيارات الكبيرة. وسرعان ما لفتت هذه السيارة الأنظار وتم إطلاق لقب «سيارات الموت عليها»، ولم يتم ذلك من قبل السلطات فحسب، بل من الجمهور المدني أيضاً، والذي كان يطلق عليها هذا اللقب لدى ظهورها. وفي رأيي فإن هذا التمويه لن يحميها من التعرف إليها».

«إن مكابح السيارة (ساورر) التي قدتها من سمفروبول إلى تاغانروغ تكشفت عن خلل بها في الطريق. وقد رأوا في ماريوبول أن مقبض الكابح منظم على أساس الزيت والضغط، وقد نجح الإقناع والرشوة معاً بتصنيع قالب يُصب من

خلاله مقبضان. ولكن لدى وصولي بعد بضعة أيام إلى ستالينو وجرلوفكا، كان السائقون يشكون من الخلل ذاته. وبعد مداولة مع قادة المجموعات عدت مجدداً إلى ماريوبول لصنع مقبضين آخرين لكل من هذه السيارات، ونجم عن اتفاقنا صبّ مقبضين لكل سيارة، وستة أخرى احتياطية تبقى في ماريوبول من أجل الزمرة D، وستة أخرى أيضاً ترسل إلى الشرطة العسكرية من أجل السيارات من الزمرة C. أما ما يتعلق بالزمرتين B و A فإن المقابض يمكن أن تأتينا من برلين، لأن نقلها من ماريوبول نحو الشمال كثير التعقيد ويقتضي زمناً طويلاً: أما الأعطال البسيطة في السيارات فيتم إصلاحها من قبل الفنيين لدى المجموعات أو الزمر، في مشاغلهم الخاصة بهم.

«إن الأرض المرتجّة والشروط التي لا تكاد تكون معقولة للسكك والطرق، تستهلك شيئاً فشيئاً المفاصل والأماكن الكتيمة. وقد طلبوا إليّ إجراء الإصلاحات في برلين إذا ما كان ذلك من المناسب . بيد أن هذه العملية تكلف ثمناً باهظاً وتتطلب الكثير من الوقود. وحرصاً على تجنب هذه المصروفات، أوعزت بإجراء اللحامات البسيطة هنا، وفي الحال الذي يبدو فيه ذلك مستحيلاً يتم الإبراق فوراً إلى برلين للقول إن العربة كذا ذات الرقم... أصبحت خارج الخدمة. كذلك أوعزت بإبعاد جميع الرجال إبان نشر الغاز لئلا تتعرض صحتهم للخطر بسبب الانتشار المحتمل لهذه الغازات. وأود، في هذه المناسبة، أن أبدي الملاحظة التالية: لقد قام العديد من المجموعات بتفريغ سياراتهم بواسطة رجالهم بعد نشر الغاز، وقد لفتّ نظر المجموعات ذات الصلة حول الأضرار المعنوية والمادية التي يتعرض لها هؤلاء الرجال، فيما بعد إن لم يكن فوراً. وكان الرجال يشكون إلي من آلام في الرأس بعد كل تفريغ. مع ذلك لا يمكن تعديل الأمر(١) إذ كان يُخشى أن ينتهز

١- من الغريب أن تقرير الملازم هذا قد تم العثور عليه، دون الأمر الذي يستند إليه. أو على الأقل أن ينشر الأول دون الآخر.

السجناء(٢) المستخدمون لهذا العمل اللحظة المناسبة للفرار. ومن أجل حماية الرجال من هذا العائق أرجوكم إصدار الأمر الملائم.

«لم يكن نشر الغاز يتم كما كان يجب، إذ كان السائقون حرصاً منهم على أن يتم الأمر بأسرع ما يمكن، يضغطون دواسة الوقود(٣) حتى نهايتها. وكان هذا الإجراء يخنق الأشخاص المراد إعدامهم بدل قتلهم بواسطة التنويم. إن تعليماتي تكمن في أن تفتح المقابض بشكل يكون الموت أسرع وأهدأ لأصحاب العلاقة. إذ لا تعود لهم هذه الوجوه المشوهة، ولا يخلفون الإفرازات التي تمت ملاحظتها حتى الآن.»

«في هذا اليوم، أنا ذاهب إلى أماكن توقّف الزمرة B وهناك احتمال لأخبار تصلني من هناك.

التوقيع: الدكتور بيكر

من الشرطة العسكرية

(عن كتاب داڤيد روسيه: المهرج لا يضحك)

هذا التقرير جاء دعماً لتأكيد أوجين كوغون الذي كتب في كتابه «الجحيم المنظم»:

«.. كانت الشرطة العسكرية تستخدم أيضاً غرف الغاز الجوّالة: وكانت عبارة عن سيارات، تشبه من الخارج سيارات سجناء، وقد جرى داخلها الترتيب الملائم، ويبدو أن الاختناق بواسطة الغاز لا يتم سريعاً جداً، إذ أنها كانت تسير

٢- أي سجناء؟

٣- إذاً، فانتشار الغاز كان يتم بواسطة أبخرة الوقود: والكلام هو للفنيين.

عادة طويلاً قبل أن تتوقف وتفرغ الجثث.» (صفحة ١٥٤).

إن أوجين كوغون الذي لم يقل ما إذا قد تم العثور على سيارات الموت هذه، لا يذكر أيضاً هذا التقرير.

ومهما يكن فيجب تهنئة المترجم الذي إن لم ينجح في سدّ بعض الثغرات ويُرضي شيئاً من الفضول، فقد أعطى الأسلوب سمة لاتينية في التعبير عن الفكرة.

ويجب ملاحظة :

١- أنه من الأسهل على الباحثين الحاليين عن الوثائق، العثور على ما كان منها حول ما كان يحدث في (ماريوبول)، من التي كانت حول ما يحدث في (داشو).

٢- أنه بإهمال أمر صادر عن وزير يوضح مجرد رسالة متعلقة بالمسألة، من ملازم إلى رئيسه المباشر الملازم أول.

٣- أنه إن تم العثور على نصّ ما، فلا يبدو أنه تم العثور على السيارات، وفي حال العثور عليها فإن الحدث لم يُحدث إلا القليل من الضجّة.

الفصل الخامس

علماء الاجتماع

أوجين كوغون والجحيم المنظم

أنا لا أعرف أوجين كوغون، وكل ما أعرفه عنه، علمته من انتشار كتابه، ومما قاله هو عن نفسه، ومن تقارير الصحافة. وهو -مع التحفظ- صحفي نمساوي من النموذج المسيحي الاجتماعي أو المسيحي التقدمي، تم اعتقاله لدى احتلال النمسا، وترحيله إلى بوشنفالد. وتم تقديمه إلى الجمهور على أنه عالم اجتماع.

إن «الجحيم المنظم» أكثر الشهادات رواجاً، وهو مكتوب حسب الأصول. وهو يعتمد على مقدار كبير من الأحداث، أغلبها معاشة. وإذا كان لا يخلو من بعض السذاجة أو المبالغة، فهو كاذب لا سيما في الشرح والتفسير. وهذا عائد من جهة إلى طريقة رواية الكاتب المنبثقة عن «فكر سياسي» (المقدمة صفحة ١٤)؛ ومن جهة أخرى إلى رغبته في تبرير سلوك إدارة المعتقلات، بطريقة أكثر صراحة وأكثر وضوحاً أيضاً من دافيد روسيه.

فضلاً عن ذلك، يعرض أوجين كوغون الأحداث، كما يقول «دون مجاملة... كرجل وكمسيحي» (المقدمة صفحة ١٤)، دون أي قصد في الكتابة عن «قصة معسكرات الاعتقال الألمانية» ولا «المزيد عن مجموع الأهوال المرتكبة، ولكن المطلوب هو دراسة اجتماعية في الأساس، ذات محتوى إنساني وسياسي وأخلاقي، ذات أصالة، تمتلك قيماً مثالية». (المقدمة صفحة ٢٠).

كانت النية صالحة.

كان يعتقد أنه أهل لهذه المهمة، وربما كان كذلك، وقدم نفسه على النحو التالي:

«... قضى ما لا يقل عن خمسة أعوام في الأسر، وعانى من الظروف الأكثر مشقة، وتوصل بالتدريج إلى موقع سمح له بالرؤية الواضحة وممارسة النفوذ، دون أن ينتمي قط إلى الطبقة ذات الحظوة في المعسكر، ولا أن يتلوث بأية وصمة عار في سلوكه وهو سجين.» (صفحة ٢٠).

من الناحية العملية بعد أن عُيّن خلال عام في مجموعة مشغل الخياطة، وهي وظيفة متميزة، أصبح سكرتيراً لرئيس أطباء الشرطة العسكرية في المعسكر الدكتور دينغ شولر وهي وظيفة أكثر تميّزاً أيضاً. وبحصوله على هذا المنصب كان يمكنه التعرّف بالتفصيل على كل مؤامرات المعسكر خلال السنتين الأخيرتين من سنوات سجنه.

بعد أن قرأت كتابه، أغلقته، ثم فتحته مرة أخرى، وكتبت تحت العنوان على الصفحة الداخلية: (أو دفاع عن قضية شخصية).

السجين أوجين كوغون

كان في بوشنفالد دائرة لدراسة التيفوس والفيروسات، وكانت تشغل البنايين ٤٦ و٥٠ وكان المسؤول عنها رئيس أطباء الشرطة العسكرية في المعسكر الدكتور دينغ شولر. وكانت تجري أمورها كالتالي:

«في البناء ٤٦ من معسكر بوشنفالد -الذي كان حقاً نموذجاً للنظافة الظاهرة ومنظماً أحسن تنظيم- لم تكن تتم ممارسة التجارب على الرجال فحسب، بل كان يتم أيضاً عزل جميع المصابين بالتيفوس الذين أصيبوا بالعدوى في المعسكر بالطرق الطبيعية أو الذين أتوا بهم إلى المعسكر بعد أن أصيبوا بالمرض. كانوا يُشفونهم ضمن قدرتهم على مقاومة هذا المرض الخطير. وكانت

إدارة البناء قد تم تسليمها إلى أحد السجناء وهو أرتور ديتش، الذي كان ملماً ببعض المعلومات الطبية بالممارسة فقط(١). كان ديتش أحد الشيوعيين من السجناء السياسيين منذ عشرين عاماً، كان رجلاً شديد القسوة، وكان من الطبيعي أن يكون من الأشخاص الأشد إثارة للكراهية والأكثر رهبة في معسكر بوشنفالد.

«ولما كانت إدارة الشرطة العسكرية في المعسكر وصف الضباط يخشون كل الخشية من العدوى، ويظنون أنه يمكن إصابتهم بالتيفوس بمجرد لمسة أو من الهواء أو من سعال مريض، إلخ... فلم يكونوا يدخلون قط إلى البناء ٤٦... وكان السجناء يستفيدون من هذا بالتعاون مع شرطي مراقبة العمل ديتش: إذ كانت الإدارة غير الشرعية للمعسكر تنتهز الفرصة للتخلص من الأشخاص الذين كانوا يتعاونون مع الشرطة العسكرية ضد السجناء (أو الذين كان يبدو أنهم يتعاونون، أو وبكل بساطة أولئك الذين لم يكونوا محبوبين من عامة السجناء(٢). ومن جهة أخرى لتواري بعض السجناء السياسيين من ذوي الشأن في البناء، والذين كانت حياتهم مهددة، مما كان صعباً جداً على ديتش إذ لم يكن لديه من الخدم والممرضين سوى الخضر.» (صفحة ١٦٢).

«وفي البناء ٥٠ كانوا يعدّون لقاحاً مضاداً للتيفوس الطفحي، بواسطة رئات الفئران والأرانب، حسب منهج الأستاذ جيرو (من باريس) وقد تأسست هذه الدائرة

١- في تلك الأثناء، لم يسمح للدكتور سيفان بممارسة الطب من قبل الإدارة الذاتية. إن الدكتور سيفان هو الدكتور X الذي ورد ذكره آنفاً، ومات دون أن يُعترَف به طبيباً من قبل الشيوعيين الذين أرسلوه إلى شتاينبروخ.

٢- أو ببساطة أكثر أيضاً أولئك الذين كانوا يقلقونهم، ويهددون باستلام وظائف ذات شأن، إذ أن مبرر التعاون مع الشرطة العسكرية لا قيمة له فهذه «الإدارة غير الشرعية» كانت تتعاون بشكل مكشوف مع الشرطة العسكرية كما سيتبين لاحقاً.

في آب ١٩٤٣، وقد اختير لهذه المهمة أفضل مختصي المعسكر من أطباء وباحثين في الجراثيم والأمصال، والكيميائيين.» (صفحة ١٦٣).

وهكذا تم تعيين أوجين كوغون في وظيفته.

«كانت هناك سياسة حكيمة لدى السجناء، هدفها جلب الرفاق من كل الجنسيات إلى هذه المجموعة، والذين كانت حياتهم مهددة، إذ أن الشرطة العسكرية كانت تشعر بالخشية من هذا البناء كما تشعر تجاه البناء ٤٦؛ وقد تمت تغذية هذه الخشية المطلقة سواء من النقيب في الشرطة العسكرية الدكتور دينغ شولر أم من السجناء، ولأسباب مختلفة (وعلى سبيل المثال بوضع لافتات على سياج الأسلاك الشائكة التي تعزل البناء). وقد وجد بعض المرشحين للموت، مثل الطبيب الهولندي فان لينغن، والمهندس المعماري هاري بيك وبعض الهولنديين، والطبيب البولوني الدكتور ماريان شيبيلوفسكي (رئيس قسم الإنتاج في هذه الدائرة)، والأستاذ الدكتور بالاشوفسكي، من معهد باستور في باريس، ومؤلف هذا الكتاب بصفته رجل إعلام نمساوي، وسبعة من السجناء اليهود، وجدوا جميعاً ملجأ في هذا البناء بموافقة الدكتور دينغ شولر.» (صفحة ١٦٣).

يجب الإقرار بأن أوجين كوغون قد أثبت جدارته بالأدلة الدامغة للنواة «الشيوعية» التي تمارس الغلبة ضمن المعسكر –ضد كتل خضراء أخرى سياسية، بل شيوعية!– للحصول على هذه الوظيفة الموثوقة، كما يجب التمسك فيما ذكره من «موافقة الدكتور دينغ شولر.» ....

وإليكم الآن ما كانت تتيح له هذه الوظيفة:

«وفي أعقاب الالتماسات التي كنت كل مرة أقترحها، أو أحررها وأعدها للتوقيع، فقد كان ذلك يحميهم من الحملات المفاجئة أو النقل من أجل الإبادة، إلخ.» (صفحة ١٦٣). أو أيضاً:

«خلال السنتين الأخيرتين اللتين قضيتهما سكرتيراً للطبيب، قمت، بمساعدة

الطبيب المختص في البناء ٥٠، بتحرير ما لا يقل عن ست مطالعات طبية، موقعة من الدكتور شولر، حول التيفوس الطفحي. ولعلي أمر مرور الكرام على أني كنت مكلفاً بجزء من مراسلاته الخاصة بما فيها رسائل الحب والتعزية وغالباً لا يقرأ حتى الإجابات. كان يلقي إلي بالرسائل بعد أن يفتحها ويقول لي: «سدّد هذه، يا كوغون، لعلك تعرف جيداً ما ينبغي الإجابة عنه، إنها أرملة ما تبحث عن السلوى...» (صفحة ٢٧٠).

واستطاع أن يصرح:

«كان الدكتور دينغ شولر في يدي.» (صفحة ٢٦٨) إلى درجة أن «علاقاته السيئة مع شرطي مراقبة العمل في البناء ٤٦» لم تكن تزعجه.

وينجم عن هذا كله أنه بقدرته على استدرار عطف الفئة المهيمنة في الإدارة الذاتية، فقد استطاع، في الوقت نفسه، أن يستدرّ عطف إحدى أعلى السلطات في الشرطة العسكرية في المعسكر. ويتفق جميع الذين عاشوا في أحد معسكرات الاعتقال أن هذه الفائدة لا يمكن الحصول عليها دون بعض التنازلات عن قواعد الأخلاق المعتادة خارج المعسكرات.

المنهج:

«من أجل إزالة بعض المخاوف والبرهان أن هذا التقرير (هكذا كان يلقب كتابه الجحيم المنظم) لا يخاطر في أن يتحول إلى قرار اتهام ضد بعض السجناء الذين شغلوا موقعاً مسيطراً، فقد تلوته، في مطلع شهر أيار ١٩٤٥ بعد أن تم تسجيله على الورق، ولم يكن ينقصه سوى الفصلين الأخيرين من أصل الاثني عشر فصلاً، تلوته على مجموعة من خمسة عشر شخصاً كانوا ينتمون إلى الإدارة السرية(١) للمعسكر، أو يمثلون بعض التجمعات السياسية للسجناء، وقد وافق

١- يستخدم أوجين كوغون تارة «اللاشرعية» وتارة «السرية» ليعبر عن الإدارة الذاتية، والواقع أنه لم يكن هناك إدارة، لا شرعية ولا سرية.

هؤلاء الأشخاص على دقة وموضوعية هذا التقرير.

وقد حضر هذه التلاوة كل من:

١- والتر بارتل، شيوعي من برلين، رئيس اللجنة الدولية في المعسكر.

٢- هاينز باومايشتر، اجتماعي ديمقراطي من دورتموند، الذي بقي سنوات في أمانة بوشنڤالد؛ السكرتير الثاني للبناء رقم ٥٠.

٣- ارنست بوس، شيوعي من سولينغن، شرطي مراقبة العمل في مستوصف السجناء.

٤- بوريس بونيلنكو، قائد الشبيبة الشيوعية في أوكرانيا، عضو اللجنة الروسية.

٥- هانس آيدن؛ شيوعي من تريف، العميد الأول للمعسكر.

٦- بابتيست فيلن، شيوعي من آخن، شرطي مراقبة العمل في مغسل الثياب.

٧- فرانز هاكل، مستقل يساري من براغ، أحد أصدقائنا دون وظيفة في المعسكر.

٨- ستيفان هيمان، شيوعي من مانهايم، عضو مكتب الاستعلامات في المعسكر.

٩- ڤيرنر هيلپرت، من وسط لايبزيغ. عضو اللجنة الدولية للمعسكر.

١٠- أوتوهارن، شيوعي من ڤيينا، عضو اللجنة النمساوية.

١١- أ. كالتشين، أسير حرب روسي، عضو اللجنة الروسية.

١٢- أوتوكيپ، شيوعي من درسدن، شرطي مراقبة عمل متمم في مستوصف السجناء.

١٣- فرديناند رومهيلد، شيوعي من فرانكفورت -سورليمان. أمين السر الأول لمستوصف السجناء.

١٤- أرنست تاب، اجتماعي ديمقراطي، رئيس اللجنة الألمانية.

١٥- والتر وولف، شيوعي، رئيس مكتب الاستعلامات في المعسكر. (صفحة ٢٠-٢١).

إن هذا البيان وحده، والذي يعد تمهيداً إلى حدّ ما كافٍ ليجعل الشهادة كلها موضع شك: «من أجل إزالة بعض المخاوف والبرهان أن هذا التقرير لا يخاطر في أن يتحول إلى قرار اتهام ضد بعض السجناء الذين شغلوا موقعاً مسيطراً في المعسكر..»

إذن فأوجين كوغون قد تفادى ذكر كل ما يمكن أن يتهّم الإدارة الذاتية، دون أن يحتفظ بالمآخذ إلا ضد الشرطة العسكرية: وإن أي مؤرخ لن يقبل هذا، بل على العكس، إن ذلك مبني على الاعتقاد أنه بمثل هذا التصرف، يسدد دين الاعتراف بالجميل لأولئك الذين منحوه وظيفة فيها كل الراحة في المعسكر، كما تربطه معهم مصالح مشتركة يدافع عنها أمام الرأي العام. أضف إلى ذلك أن الأشخاص الخمسة عشر المذكورين الذين قرروا «دقته وموضوعيته» هم موضع شك؛ فهم جميعاً شيوعيون أو من أنصار الشيوعية (حتى الذين يعدون من فئة الاجتماعيين الديمقراطيين أو المستقلين أو الوسط) وإذا كان هناك استثناء مصادفة فلا يمكن أن يكون ذلك ناجماً إلا عن معترف بالجميل. وأخيراً فهم يشكلون قائمة من أعلى شخصيات إدارة المعتقل في بوشنڤالد: عميد المعسكر، شرطة مراقبة العمل، إلخ... كما أني أعدّ ألقاب رؤساء وأعضاء اللجان لهذا أو لذاك التي تراكمت لا معنى لها أو من قبيل النزوات: فهي ذاتها كانوا يتبادلون منحها لأنفسهم إبّان تحرير المعسكر من قبل الأميركيين، بل وحتى بعد ذلك. وأنا لن أقف على مفهوم «اللجنة» التي سبق أن أنصفتها في المناقشة من قبل. لقد قالوا هذا ونجحوا في أن يقبل الناس هذا الأمر بإثارتهم مبررات على غاية من النبل(١).

١- انظر نهاية الفصل الثاني من الجزء الأول.

وفي رأيي، أن هؤلاء الأشخاص الخمسة عشر كانوا في غاية السعادة بأن يجدوا في أوجين كوغون قلماً ماهراً لتبرئتهم من كل مسؤولية في نظر الأجيال الصاعدة.

الإدارة الذاتية

«كانت مهماتها كما يلي: المحافظة على النظام في المعسكر، مراعاة التأديب لتفادي تدخل الشرطة العسكرية، إلخ... وخلال الليل، -وهذا ما كان يتيح إلغاء دوريات الشرطة العسكرية في المعسكر- كانت مهمتها استقبال الوافدين الجدد، وهذا ما كان يجنّبهم المماحكات الفظّة للشرطة العسكرية. وكانت مهمة صعبة قاسية. كان حرس معسكر بوشنڤالد نادراً ما يضربون، على الرغم من حدوث مشادات عنيفة غالباً. كان القادمون الجدد الآتون من معسكرات أخرى يرتاعون، في بادئ الأمر، حين يتلقاهم حرس معسكر بوشنڤالد، ولكنهم بعد ذلك كانوا يقدّرون هذا الاستقبال الألطف من أي مكان آخر... صحيح أنه دائماً ما يبدو أحد أفراد حرس المعسكر، ومن خلال أسلوبه بالتعبير، وكأنه شرطي عسكري خائب، ولكن ذلك ليس بذي أهمية. والمهم فقط هو الهدف: وهو المحافظة على نواة من السجناء ضد الشرطة العسكرية. فلو لم تعمل حراسة المعسكر على أن يسود مظهر كامل للنظام، تجاه الشرطة العسكرية، فما الذي كان سيحدث للمعسكر بأكمله، ولآلاف السجناء إبّان العمليات التأديبية، وأخيراً وليس آخراً في الأيام الأخيرة قبل التحرير؟ (صفحة ٦٢).

لو عدت لتجربتي الشخصية فيما يتعلق بالاستقبال الذي لقيته قافلتي في معسكرين مختلفين، فلا يمكنني أن أوافق أنه كان في بوشنڤالد أحسن مما كان عليه في دورا، بل على العكس. ولكن عليّ أن أعترف بأن الشروط العامة للحياة في بوشنڤالد ودورا لا مجال فيها للمقارنة، فالأول كان مصحاً بالمقارنة مع الثاني. والاستنتاج أن ذلك سببه الاختلاف في التركيب والروح والقناعات السياسية أو

الفلسفية لدى الإدارة الذاتية هو استنتاج خاطئ. ولو حصل تغيير كلي فيهم لكانت النتيجة هي هي. ففي المعسكر الأول كما الثاني كان سلوكهم متأثراً بالشروط العامة للحياة ولم يكن لهم تأثير عليها.

في العهد الذي يتحدث عنه أوجين كوغون كان معسكر بوشنفالد قد بلغ حده من التطور. فقد تم إنجاز كل شيء أو كاد: فالدوائر قد أخذت دورها، والنظام قد استتب، كما أن الشرطة العسكرية أقل تعرّضاً للإرباكات التي تخلفها الفوضى وراءها، وبارتباط أفرادها ببرنامج منتظم وبدون مخاطر تقريباً، كانت أعصابهم أقل توتراً. أما في دورا، فقد كان الأمر عكس ذلك، كان المعسكر في غمرة بنائه، كان يجب ابتكار كل شيء ووضع كل شيء في مكانه بالوسائط المحدودة لبلد يخوض غمار الحرب، كانت الفوضى في موضعها الطبيعي، والجميع يصطدمون بها. كان أفراد الشرطة العسكرية صعاب المواجهة، والإدارة الذاتية لا تعرف ماذا تخترع لإرضائهم مما يتجاوز دائماً رغباتهم. وفي بوشنفالد فقط كانت ابتزازات شرطة مراقبة العمل أو عميد المعسكر المماثلة في بواعثها وأهدافها أقل حساسية في قيمتها إذ أن حال الأماكن الأحسن من جميع النواحي لا تخلف نتائج خطيرة جداً على كتلة السجناء.

من المناسب إضافة دليل إضافي بل فائض، أنه في خريف ١٩٤٤ كان معسكر دورا قد تم إنجازه تقريباً، وبقي سلوك الإدارة الذاتية على حاله دون تعديل، وكانت الشروط المادية والمعنوية للحياة يمكن مقارنتها مع معسكر بوشنفالد. في تلك الآونة كانت نهاية الحرب تتسارع، والغارات تحدّ من إمكانات التموين، وتقدم الحلفاء على الجبهتين يزيد من أعداد السكان بسبب إخلاء المعسكرات شرقاً وغرباً. وأعيد النظر في كل شيء.

بقيت تلك الحجة التي تدّعي أنه من الأهمية بمكان من أجل الحفاظ على نواة ضد الشرطة العسكرية، أن تحل محلها: إن كل المعسكر كان بطبيعة الحال ضد

الشرطة العسكرية، وأنا لا أفهم هذه الحجة. كان من الممكن دعم الرأي القائل إنه من الأفضل الحفاظ على حياة الجميع ضد الشرطة العسكرية، وليس فقط نواة تعمل بإمرتها؛ إذ لم يكن هذا إلا ليسبب للجميع المزيد من الصعوبات. ولكنهم عوضاً عن هذا فقد لجأوا إلى وسيلة تنقذ هذه النواة ولكنها تقضي على سائر المساجين، فالكياسة وحدها، كما يعترف أوجين كوغون ومن قبله داڤيد روسيّه، ليست كافية للتدخل في النزاع.

«في الواقع، لم يحصل السجناء قط على الجرايات الضئيلة المخصصة لهم من حيث المبدأ. كانت الشرطة العسكرية في بادئ الأمر تأخذ ما يحلو لها؛ ثم السجناء الذين يعملون في مستودع المؤونة وفي المطابخ، إذ يتدبرون أمورهم ليقتطعوا نصيبهم بوفرة؛ ثم رؤساء الغرف الذين يختلسون كمية وافرة لهم ولأصحابهم؛ أما الباقي فكان يذهب إلى السجناء البؤساء العاديين.» (صفحة ١٠٧).

من الجدير بالذكر أن كل من كان له نصيب من السلطة في المعسكر كان في موضع يسمح له «بالاختلاس»: عميد المعسكر الذي يحضر جملة الجرايات، شرطي مراقبة العمل ورئيس البناء الذين كانوا يتناولون نصيبهم بوفرة، ورؤساء الزمر أو رجال القاعات الذين يقطعون الخبز أو يصبون الحساء في القصعات، الشرطي، السكرتير، إلخ... ومن الغريب أن كوغون لم يشر إلى ذلك.

كل هؤلاء، كانوا يتنعمون بمحاصيل سرقاتهم، ويتنزهون في المعسكر بوجوه نضرة، دون أي ضمير يردعهم:

«لدى مستوصف السجناء، كان في المعسكر غذاء خاص من أجل المرضى، يطلق عليه غذاء الحمية، وكان مرغوباً كثيراً كغذاء إضافي. وكان النصيب الأكبر منه يُختلس لصالح شخصيات المعسكر: عمداء الأبنية، شرطة مراقبة العمل، إلخ. وفي كل معسكر، يمكن وجود شيوعيين أو مجرمين ظلوا خلال سنوات يتلقون الغذاء

الإضافي للمرضى بالإضافة إلى الميزات التي كانوا يتمتعون بها. والقضية هي على الأخص في إقامة العلاقة مع مطبخ المرضى المؤلف حصراً من أناس ينتمون إلى الفئة التي تسيطر على المعسكر، أو هي قضية تبادل الخدمات: فشرطة مراقبة العمل في مشغل الخياطة، أو مشغل الأحذية، أو مستودع اللباس، أو مخزن الأدوات، إلخ... يبادلون بهذا الغذاء ما كان يطلبه منهم الآخرون. وبهذا الأسلوب تم اختلاس أربعين ألف بيضة داخل معسكر بوشنفالد من عام ١٩٣٩ حتى ١٩٤١ (صفحات ١١٠-١١١-١١٢). خلال تلك الآونة، كان مرضى المستوصف يموتون حرماناً من هذه التغذية الخاصة التي ترسلها لهم الشرطة العسكرية، وبشرحه لآلية السرقة، اكتفى كوغون بنظرة عامة بتعداده السجناء العاملين في مجال التغذية. وفي هذا عدم دقة ومحاباة للإدارة الذاتية.

إن العامل في مجموعة ما لا يستطيع السرقة: إذ أن شرطي مراقبة العمل ورئيس الزمرة على استعداد للوشاية به ومراقبته بدقة. وأكثر ما يمكنه المخاطرة به هو أن يأخذ بعد انتهاء توزيع الجرايات شيئاً ما لأحد شركائه في الشقاء. بيد أن شرطي مراقبة العمل ورئيس الزمرة يمكنهما أن يقتطعا معاً من مجمل الجرايات قبل التوزيع. وكانا يقومان بذلك بوقاحة دون أن ينتظرا عقوبة إذ لا يمكن الوشاية بهما إلا عن طريق التسلسل، أي عن طريقهما. كانوا يسرقون من أجل أنفسهم وأصدقائهم وموظفي السلطة التي تمنحهم وظائفهم ولأصحاب المراتب العليا ولجماعة الشرطة العسكرية الذين يحرصون على ثقتهم أو يحتفظون بحمايتهم.

أما ما يتعلق بغذاء الحمية للمرضى، فإن شرطي مراقبة العمل في المستوصف -ذلك الذي وافق على دقة وموضوعية كوغون!- كان يقتطع منه كمية كبيرة لصالح زملائه من الشيوعيين المعتمدين(١). وخلال إقامتي في بوشنفالد،

١- كان هناك الكثير من الشيوعيين غير المعتمدين -أولئك الذين كانوا قبل كل شيء أناساً شرفاء. فقد ضاعوا بين الجمهور وعانوا المصير المشترك

كان، كل صباح، يأخذ كمية من الحليب تقارب الليتر وبعض الحلوى -كيفما اتفق- إلى إيريك رئيس البناء ٤٨. وإذا طبّقنا هذه العملية على مستوى المعسكر لأمكننا تقدير كمية الحليب التي كان مرضى المستوصف يحرمون منها. ولدى المقارنة، فإن الاختلاسات الصغيرة على المدى كانت تبدو تافهة.

وهكذا، سواء أكان المقصود الغذاء العادي أم غذاء المرضى، أكان الأمر متعلقاً بمريض أم غير مريض، فقد كان هناك سببان إضافيان ليموت السجناء من الجوع: ما يقتطعه جماعة الشرطة العسكرية(١) وما تقتطعه الإدارة الذاتية. كما كان هناك سببان لتلقيهم الرفسات والذلّ بوجه عام. وفي ظل هذه الظروف، لم يكن سوى القليل من السجناء ممن لا يفضلون التعامل مباشرة مع الشرطة العسكرية: إن شرطي مراقبة العمل الذي يتجاوز الحد في السرقة، كان يضرب على نحو أعنف ليدخل السرور إلى نفوس الشرطة العسكرية. ونادراً ما كان أي تأنيب بسيط من أحد أفراد الشرطة العسكرية لا يخلف وراءه، فضلاً عن ذلك ضربات متواترة من أحد شرطة مراقبة العمل.

الحجج

إن الحجج التي تبرر القيام بإنقاذ النخبة، قبل كل شيء وبأي ثمن كان، لم تكن أكثر نزاهة من الوقائع.

«ماذا كان سيحدث للمعسكر بأكمله إبّان التحرير؟» (صفحة ٢٧٣).

كذلك بدأ كوغون يتساءل بهلع. ومن خلال ما تقدم، ينجم أن المعسكر بأكمله لم يكن ينقصه إلا سبب ليموت جوعاً على هذا المنوال. ولا يكفي إضافة:

«وهكذا وجدت الدبابات الأميركية الأولى الآتية من الشمال الشرقي

١- من الجدير بالذكر أن جماعة الشرطة العسكرية لم يكونوا يقتطعون بأنفسهم، أو يقتطعون بكثير من الخوف. بل كانوا يدعون الآخرين يقتطعون لهم، وهكذا كانوا يحصلون على نصيب وافر.

بوشنفالد وقد تحرر.» (صفحة ٣٠٤).

ولإعادة الفضل إلى الإدارة الذاتية تصديقاً لهذا القول. وبناء على هذا، يمكن القول أيضاً أن الأميركيين دخلوا فرنسا وهي محررة، وهذا مثير للسخرية. والحقيقة أن الشرطة العسكرية قد هربت أمام التقدم الأميركي، وخلال محاولتها أن تأخذ معها أكبر عدد ممكن من السجناء فقد سلطت جماعة الإدارة الذاتية وفي أيديهم العصي المطاطية لمطاردة الرجال في المعسكر.

وبفضل هذا فقد تمت العملية بالحد الأدنى من الفوضى. ولو أن مصادفة عجيبة حدثت وتوقف الهجوم الأميركي أمام المعسكر، إلى درجة أن هجوماً معاكساً ألمانياً استطاع أن يقرر نهاية الحرب باتجاه آخر، لكان ذلك المنطق يمنح ميزة ما تبدو من خلال هذه الأسطر:

«لم تكن إدارات الشرطة في المعسكرات قادرة على الهيمنة على عشرات الألوف من السجناء إلا من الخارج وبشكل مشتت.» (صفة ٢٧٥).

وبكلمة أخرى، لو أن ألمانيا انتصرت، لاستطاع كلٌ من موظفي السلطة في المعسكر أن يثير مساهمته الشخصية في الحفاظ على النظام، وإخلاصه، الخ، ليحصل على حريته.

وهذا النص الأخير ظهر دون أن تتغير فيه ولا فاصلة.

«من خلال معركة متواصلة، كان يجب تحطيم وإبطال جدوى أسلوب الشرطة العسكرية الذي كان يجمع الفئات المختلفة للسجناء، ويرعى الخلافات العادية، ويثير خلافات مصطنعة. وأسباب ذلك كانت واضحة لدى الحمر. أما لدى الخضر فلم تكن في نظرهم قط أسباباً سياسية، كانوا يودون أن يطلقوا العنان لممارستهم المعتادة: الرشوة والابتزاز والبحث عن المكاسب المادية. وكل رقابة عليهم لا يحتملونها، ولا سيما الرقابة الآتية من داخل المعسكر نفسه.» (صفحة ٢٧٨).

من الواضح جداً أن أي أسلوب تتبعه الشرطة العسكرية يصبح عديم

الجدوى منذ الوهلة التي يبدأ الآخرون بممارسته للهدف نفسه، ويطبقونه بالفرض نفسه وبالشكل نفسه. وبعبارة أحسن: لا فائدة منه. لم تعد الشرطة العسكرية بحاجة إلى أن تضرب لأن أولئك الذين فوضتهم بسلطاتها يضربون أحسن؛ ولا أن تسرق لأنهم يسرقون أحسن لأن الربح هو هو إذا لم يكن أمراً أساسياً، ولا أن تقتل على نار هادئة لإخضاع السجناء إلى النظام، لأن هناك من يحل مكانها ويجعل النظام أكثر بريقاً.

ومن جهة أخرى فأنا لم ألحظ قط أن تدخل إدارة المعتقل أزالت الخلافات العادية، ولا أن الفئات المختلفة للسجناء كانت أقل اختلاطاً مما قررته الشرطة العسكرية.

إن الأساليب المتبعة، وهذا متفق عليه، لم تكن أهلاً للحصول على هذه النتيجة، والهدف المنشود -وهذا معترف به- لم يكن كذلك؛ إن مبدأ: فرّق تسد، الشعار الذي يصلح لكل سلطة تود الإمساك بزمام الأمور هو الذي كان سائداً لدى الإدارة الذاتية كما هو لدى الشرطة العسكرية. وبينما كانت الشرطة العسكرية تعمل على الخلاف دون تمييز بين كتلة السجناء وبين من كانت قد اختارتهم ليتحكموا بهم، كانت الإدارة الذاتية تلعب لعبة الفروق السياسية، وطبيعة الجريمة وانتقاء نواة من نوعية معينة.

والطريف في هذا الأمر -وأنا على مبعدة منه- هو التمييز الذي كانت تقيمه بين الحمر والخضر في السلطة، متهمة هؤلاء بالرشوة والابتزاز والسعي وراء المكاسب الماديّة: وماذا كان يفعل الحمر خلاف هذا؟ وبالنسبة للسجين العادي فما هو الفرق لديه إذ لم يكن يمكنه أن يقيسه بنتيجة ما؟

في عالم معتاد على النقاش البيزنطي بسبب عشرات السنين من نمط التعليم البورجوازي الصغير، يأخذ تجميع الأفكار المجردة أهمية أكثر من تسلسل الأحداث القاسية. إن علم الأخلاق الذي، من أجل أن يقيم تبايناً بين جريمة الحق

العام والجريمة السياسية، يحتاج إلى الافتراض بأن هناك فارقاً في الماهية بين المذنبين، لا يأخذ بعين النظر تطابق بواعث السلوك لدى كل من الطرفين في ظرف ما مهما كان. وهذا يؤدي إلى إهمال تأثير البيئة، وفي وسط يعرّض الحياة يومياً للخطر، وردود فعل أكثر الأفراد ترفعاً ونزاهة إذا تم غرسهم في هذا الوسط.

وهذا ما حصل في معسكرات الاعتقال: إن ضرورات الصراع من أجل الحياة، والشهوات المعترف بها تقريباً، تقدمت على كل المبادئ الخلقية. في الأصل كانت هناك الرغبة في الحياة أو البقاء؛ ولدى الأقل تردداً ترافقت هذه الرغبة بالحاجة إلى سرقة الغذاء، ثم بالمشاركة من أجل السرقة على نحو أفضل. وكان أمهرهم في المشاركة للحصول على غذاء أفضل -وهم السياسيون بما أن العملية تتطلب المهارة أكثر مما تتطلب القوة الجسدية- هم الأقوى من أجل الاستيلاء على السلطة، إذ أنهم أحسن تغذية. وكانوا هم الأقوى أيضاً على الاحتفاظ بها إذ أنهم الأمهر ذهنياً، ولكن أيّ اعتبار خلقي بالمعنى الذي نتفق عليه خارج نطاق عالم المعتقلات، لم يكن يتدخل في تسلسل هذه الوقائع، إلا بغيابه.

وبعد ذلك استطاع أن يكتب:

«كان المعتقلون السياسيون يبذلون ما في وسعهم، في كل معسكر للاستيلاء على الجهاز الإداري الداخلي، أو عند اللزوم، يناضلون من أجل الاحتفاظ به. وهذا من أجل الدفاع عن أنفسهم بشتى الوسائل ضد الشرطة العسكرية، ليس من أجل الإمساك بزمام معركة الحياة القاسية فحسب، بل من أجل المساعدة، في النطاق الممكن، على انحلال وتحطيم النظام. وفي أكثر من معسكر، أنجز زعماء المعتقلين السياسيين، خلال سنوات، عملاً من هذا النوع بصلابة مثيرة للإعجاب واحتقار كلّي للموت.» (صفحة ٢٧٥).

بيد أن هذا ليس سوى براءة ذمة لم ينجح شكلها -مهما كان المديح الذي رافقه- في أن يحجب أنه يضم كل المعتقلين السياسيين- حتى أولئك الذين لم

يسعوا قط إلى ممارسة أية سلطة على رفاقهم في الشقاء- إلى من كان أقل تردداً بينهم. ولا الاعتراف بأنهم: «من أجل الدفاع عن أنفسهم بشتى الوسائل...»

بشتى الوسائل: إليكم ما يمكن أن يعنيه هذا:

«حينما كانت تطلب الشرطة العسكرية إلى السياسيين بأن يعمدوا إلى انتقاء السجناء «غير القادرين على الحياة» من أجل قتلهم، وكان أي رفض لذلك الطلب يعني نهاية سلطة الحمر وعودة الخضر، حينئذ كان يجب الاستعداد لتحمل هذه الخطيئة. لم يكن هنا سوى الاختيار بين المساهمة الفعّالة في هذا الانتقاء أو الانسحاب المحتمل من المسؤوليات في المعسكر مما يمكن، بعد كل التجارب التي مرّت، أن يجلب نتائج أسوأ أيضاً. وكلما كان الضمير لين الجانب، كان هذا القرار صعباً اتخاذه. وبما أنه كان من الواجب اتخاذه دون تردد، فقد كان من الأنسب أن يعهد به إلى ذوي الأمزجة الصلبة، لئلا نتحول جميعاً إلى شهداء.» (صفحة ٣٢٧).

كنت قد ذكرت من قبل أن الأمر لم يكن يتعلق باختيار غير القادرين على الحياة، بل غير القادرين على العمل، والفارق حسّاس. وإذا كانت هناك إرادة في إهماله مهما كان الثمن، فأنا أعلن أنه كان من الأجدى «المخاطرة بانسحاب محتمل(١) من المسؤوليات داخل المعسكر» من إثقال الضمير بهذه «المساهمة الفعالة» والتي دائماً ما يعتورها الحماس خلال الممارسة. كان الخضر سيعودون إلى السلطة؟ وبعد ذلك؟ أولاً، لم يكونوا في مستوى يتيح لهم الاحتفاظ بها. ثم، وفي هذه الحالة بالذات، ما كانوا ليقوموا بذلك بحماس أكثر، في نظر كتلة السجناء. وما كانوا ليختاروا عدداً أكبر من غير القادرين، وما كانوا ليقيموا وزناً أقل

١- أؤكد على كلمة «محتمل»

للنوعية، إذ أنه في هذه الانتقاءات لم يكن الحمر يهتمون أكثر من الخضر بالاتجاه السياسي، لو لم تكن الإدارة الذاتية مهتمة ببعض جماعتها.

وهكذا، إذا كان الأمر متعلقاً بتحمل الخطأ نفسه من وجهة النظر الخلقية، فلماذا يتم أخذ السلطة من الخضر، أو الرغبة في الاحتفاظ بها ضدهم؟ من الممكن، لو أن الخضر كانوا في السلطة ألا يكون المختارون من غير القادرين، في بعض الحالات الفردية هم أنفسهم. ولكن لم يكن ليتغير شيء في العدد المحدد في الإحصاء العام للعمل من خلال الإمكانات المادية للمعسكر في أن يتحمل عدداً أكبر إلى حد ما من غير العاملين؛ حينئذٍ لن يكون لأوجين كوغون الخيار في أن يصبح ويستمر السكرتير المقرّب من الطبيب النقيب في الشرطة العسكرية الدكتور دينغ شولر، ولأُلقي في خضم السجناء عرضة للضرب والجوع، وربما كان أيضاً في عداد هؤلاء من غير القادرين. ولكان من المحتمل أن يكون هذا هو مصير الخمسة عشر الآخرين الذين صادقوا على شهادته. حينئذٍ كانت تحل أفدح الكوارث. ولا يمكن أن ينجم عن ذلك سوى:

«ألا نتحول جميعاً إلى شهداء، بل أن نستطيع الاستمرار في الحياة شاهدين.» (مر ذكر هذه العبارة).

كما لو أنه في نظر التاريخ، كان من المهم أن يكون كوغون وزمرته شاهدين أكثر من الآخرين -مثل ميشلان دي كليمون- فيران، وفرانسوا دي تيسّان، والدكتور سيغان، وكريميو، وديسنو، إلخ... إذ أن هذا التكلم بصيغة الجمع وكلمة «جميعاً» لا تنطبق، بطبيعة الحال، إلا على ذوي الحظوة من جماعة الإدارة الذاتية، وليس على كل السياسيين الذين يشكلون، على الرغم مما لديهم، الغالبية العظمى من السجناء. ولم يخطر ببال الكاتب لوهلة أنهم بالاكتفاء بطعام أقل وضرب للآخرين أقل كانت تستطيع إدارة المعتقل أن تنقذ سائر السجناء تقريباً وأن يحظوا، اليوم، في أن يكونوا أيضاً شاهدين.

إذا كان رجل على هذا القدر من العلم ويتباهى بثقافة ما، استطاع الوصول إلى هذه النتائج البائسة، لوجب البحث عن السبب في أنه أراد الحكم على الأشخاص والأحداث لدى عالم المعتقلات بمقاييس خارج نطاقها. ونحن نرتكب الخطأ نفسه إذا أردنا تقدير كل ما يحصل في روسيا أو الصين بواسطة قواعد خلقية خاصة بالعالم الغربي، ويردّها إلينا الروس والصينيون؛ فهنا وهناك قام نظام، وقد أدّت ممارسته إلى قيام نموذج من الناس، كانت مفاهيمهم للحياة الاجتماعية والسلوك الفردي مختلفة، بل معارضة.

وهذا ما حدث في معسكرات الاعتقال: فعشر سنوات من الممارسة كانت كافية لخلق نظام، يتم الحكم على كل شيء، من خلاله. وخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذا النظام خلق نموذجاً جديداً من الناس، هم وسط بين سجين الحق العام والسجين السياسي. ومواصفات هذا النمط الجديد من الناس ناجمة عن أن الأول ضلل الآخر فجعله مشابهاً له دون أن يخدش وجدانه كثيراً، إلى المستوى الذي تكيّف فيه المعسكر بسبب أولئك الذين صمّموه. إن المعسكر هو الذي أوحى باتجاه لردود الفعل لدى جميع السجناء، الخضر والحمر، وليس العكس.

وفقاً لهذه الملاحظة وضمن الحدود التي يراد من خلالها القناعة بأنها ليست من بنات الأفكار، فإن القواعد الخلقية المتعارف عليها خارج عالم المعتقلات، يمكنها التدخل لتصفح لا لتبرر بأية حال من الأحوال.

سلوك الشرطة العسكرية

أود المقارنة بين إثباتين:

«إن السجناء الذين كانوا يسيئون معاملة رفاقهم أو حتى الذين يضربونهم حتى الموت، لم يتلقوا أي عقاب، بطبيعة الحال، قط من الشرطة العسكرية. وكان على عدالة السجناء أن تقتصّ منهم.» (صفحة ٩٨).

و:

«ذات صباح، تم العثور على سجين مشنوق في أحد الأبنية، ولدى التحقيق تبين أن «المشنوق» مات بعد أن تم ضربه بشراسة، ووطؤه بالأقدام، وأن رجل الصالة وبأمر من عميد البناء (أوسترلو) شنقه بعد ذلك ليبدو أن الأمر كان انتحاراً. وكان الرجل الضحية قد احتجّ على اختلاس الخبز من قبل رجل الصالة. وقد توصلت إدارة الشرطة العسكرية إلى إغلاق القضية، وأعادت القاتل إلى وظيفته كي لا يتبدل أي شيء.» (صفحة ٥٠).

حقاً إن قيادة الشرطة العسكرية للمعسكر لم تكن تتدخل بوجه عام في المشادات التي تقع بين السجناء. وأن من العبث انتظار أي حكم عدالة منها. ولا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك:

«كانت تجهل ما كان يحدث فعلاً خلف الأسلاك الشائكة.» (صفحة ٢٧٥).

في الواقع كانت الإدارة الذاتية تبذل جهوداً مضاعفة لتجهل الشرطة العسكرية ذلك. أما وقد نصبت نفسها سلطة قضائية على السجناء مستفيدة من أن أي استئناف لن يُتّخذ ضد قراراتها لتتخذ ما لا يصدق منها، فهي لا تلجأ إلى الشرطة العسكرية إلا لتدعم سلطتها إذا أحست بضعفها. أما فيما تبقى فهي لا ترغب في تدخلها، خشية أن تكون أقل قسوة، مما يجعل سلطتها عرضة للنقاش بين كتلة السجناء، وخشية زعزعة تقدير الشرطة العسكرية لكفاءتها في الإدارة، مما يطرح مسألة إعادتها إلى القاعدة وإحلال آخرين بدلاً عنها. ومن الناحية العملية كل ذلك كان يتم حلّه ضمن إطار تسوية. فالإدارة الذاتية كانت تتجنب المتاعب في أن تمنع اجتيازها الستار الذي أقامته، والشرطة العسكرية لا تسعى إلى المعرفة بشرط أن يكون النظام سائداً وفي حرز منيع،

وفي الحالة المحددة التي مر ذكرها، لو كان رئيس البناء أوسترلو أحمر، لما كان وصل أي شيء إلى أسماع الشرطة العسكرية، إلا رواية انتحار الضحية، مما

لا يسبب الصعوبات. ولكنه كان أخضر ويمثل أحد الأجزاء الأخيرة من السلطة التي تمارسها فئته في المعسكر. وقد وشى به الحمر أملاً في إبعاده. ولكن الشرطة العسكرية لم تبتّ بالأمر لصالح رغباتها. هكذا كان النظام يريد: لا يمكن أن يكون رئيس البناء، حتى لو كان مذنباً، موضع شك أو يعاقب إلا من قبل السلطة العليا؛ في أية حال من الأحوال سواء أكان ذلك من شكوى أم من ردة فعل الأغلبية. أكان أخضر أم أحمر فهو يبقى رئيس البناء.

ولو تم قلب طرفي المعادلة، وجعل المتهم ضحية والضحية مجرماً، لاتبعت الإدارة الذاتية نفسها هذا المنطق. وبدون الاهتمام بلون أوسترلو، كانت تعتبر أنها قد أصيبت أو هدّدت في امتيازاتها، ولأشارت إلى الشرطة العسكرية طالبة منها العقوبة الرادعة -هذا إذا لم تلجأ، وهو الاحتمال الأكثر، إلى تطبيق العقوبة، وبعد ذلك فقط، تطلب من الشرطة العسكرية المصادقة عليها. في الاحتمال الأول، كانت الشرطة العسكرية تحيل الأمر إلى السلطة الأعلى وتنتظر القرار... وفي الاحتمال الثاني كانت تصادق على موقف الإدارة الذاتية كي تتجنب طلبات الشرح والتبرير، إلخ... والمتاعب المختلفة من قبل هذه السلطة العليا. وفي كلتا الحالتين ليس هناك ما يتلاءم مع النظام، حتى لو فسّر الأمر أنه من قبيل تسهيل الأمور.

في قضية أوسترلو التي أعطاها الحمر طابع أزمة الضمير التي تتغلب فيها النزاهة على النظام، كان من الممكن لبرلين أن تتدخل وتتسبب بكثير من المتاعب التي -كما يعترف الشاهد- لم تتمكن إدارة الشرطة العسكرية حيالها إلا إلى التوصل إلى خنق القضية في مهدها. وهكذا فإن إدارات الشرطة العسكرية لم تكن ترغب، بوجه عام، اللجوء إليها. كانوا يخشون من البطء والتدخل والتدقيق الذي يأخذ طابع الإزعاج مما قد يسبب النقل إلى تشكيل آخر وهذا ما كان إبّان الحرب ذا نتائج وخيمة. وهكذا كانوا يدعون برلين في جهل تام تقريباً دون أن يخبروها إلا

ما لا يستطيعون إخفاءه(١) عنها، ويسوّوا بأقصى ما يمكنهم أمورهم بأنفسهم. وإذا كان هناك شك فإليكم نصاً آخر:

«غالباً ما كانت تتم الزيارات إلى المعسكرات، وفي هذه المناسبة كانت إدارة الشرطة العسكرية تعمد إلى أسلوب عجيب. فمن جهة كانت تخفي كل الأمور الجانبية، ومن جهة أخرى كانت تنظم معارض حقيقية. كل الأجهزة التي كانت توحي بتعذيب السجناء كانت تمر تحت صمت الأدلاء وكانوا يخبئونها. كما كانت منصة التعذيب الشهيرة الموجودة في ساحة التفقد يتم إخفاؤها في أحد المساكن حتى رحيل الزوار. وفي إحدى المرات، على ما يبدو، نسوا اتخاذ هذا التدبير الاحتياطي، فسأل أحد الزوار عن هذه الأداة، فأجاب أحد قادة المعسكر أنها قالب في النجارة يستخدم في صنع أشكال خاصة. وكل مرة كانت تتم تنحية المشانق والأوتاد التي يشنق بها الموقوفون. كانوا يقودون الزوار نحو الاستثمارات المثالية؛ مثل المشفى، ودار «السينما»، والمكتبة، والمخازن، ومغسلة الثياب، وشعبة الزراعة. وإذا دخلوا حقاً إلى بناء سكني، هذا البناء يكون هو أحد الأبنية التي يقيم فيها بمعزل عن الآخرين حلاّقو وخدم الشرطة العسكرية وبعض المعتقلين المتمتعين بامتيازات خاصة، وهذه الأبنية، لا تكون لهذا السبب، محتشدة، وهي دائماً نظيفة.

١- إلى القارئ الذي يرى هذه النقطة مبالغاً فيها فإني أسمح لنفسي بتذكيره بحاشيتي في منتصف الفصل الرابع من هذا الجزء. في فرنسا كانت تجهل كل من وزارتي العدل والتربية الوطنية تقريباً كل ما كان يحدث في السجون والمؤسسات التي يطلق عليها إصلاحيات. كانت القواعد المتبعة للتأديب فيها، بصورة عامة، في حال تلبّس دائم بخرق التعليمات الرسمية ولا أحد يعرف بهذا إلا بمناسبة الفضائح المتزامنة. وهذا ما جرى عليه الأمر في جميع أنحاء العالم: هناك عالم من الجانحين يعيشون على هامش الآخرين، في المرتبة الأدنى، ويكون فيها الشاويش ملكاً. وفي تخوم هذا العالم تقوم شعوب المستعمرات التي تجهل وزارتا المستعمرات والحربية المشرفتان عليها كل ما يرتكبه هناك صف ضباطها الذين تزودانهم مع ذلك بتعليمات إنسانية.

وفي البستان كما في مشغل النحت، كان زوار الشرطة العسكرية يتلقون الهدايا التذكارية.» (ص ٢٥٨).

هذا بالنسبة لمعسكر بوشنفالد، وإذا أردنا معرفة أي صنف من الزوار كان هؤلاء، فإليكم ما كتب:

«كانت هناك زيارات جماعية وزيارات خاصة. وكانت الزيارات الخاصة غالباً ما تتواتر في فترات العطل الرسمية، حين كان ضباط الشرطة العسكرية يطلعون أصدقاءهم أو أقرباءهم على المعسكر. وغالباً ما كان هؤلاء أو أغلبهم أيضاً من الشرطة العسكرية، وأحياناً من قادة الجيش والشرطة. أما الزيارات الجماعية فكانت من أصناف مختلفة.

كانت غالباً ما تأتي دورات من الشرطة أو الدرك من مركز تدريب مجاور، أو دورات من مرشحي الشرطة العسكرية. وبعد بداية الحرب، لم تكن زيارات ضباط الجيش نادرة، ولا سيما الضباط الطيارون. ومن حين إلى آخر كانت تتم مشاهدة بعض المدنيين. وفي إحدى المرات وصلت إلى بوشنفالد وفود من شبيبة البلدان الفاشية، وكانوا قد جاؤوا إلى فايمار إلى ما يدعى «مؤتمراً ثقافياً». وكانت مجموعة من الشبيبة الهتلرية تأتي أيضاً إلى المعسكر. وكان بعض الزائرين من ذوي الشأن مثل حاكم المقاطعة ساوكل، وقائدا شرطة فايمار هنيك، وأمير فالديك، بيرمونت، والكونت شيانو وزير خارجية إيطاليا، والدكتور كونتي، وزائرون آخرون من هذا المستوى، غالباً ما يبقون حتى يأتي تفقد المساء.» (ص ٢٥٧).

وهكذا إذن، كانوا يخفون بعناية آثار وأدلة التعذيب، ليس عن عامة الزوار، سواء أكانوا أجانب أم غير ذلك فحسب، بل عن أعظم شخصيات الشرطة العسكرية، والرايخ الثالث؛ وأعتقد لو أن هذه الشخصيات ذهبت إلى معسكري (داشو) و(بيركناو) لزودوهم بمعلومات عن غرف الغاز، ملائمة مثل التي زودوهم بها عن منصة التعذيب في بوشنفالد. وأنا أطرح السؤال التالي: كيف يمكن التأكيد

بعد هذا أن كل الأهوال التي كانت المعسكرات مسرحاً لها هي جزء من خطة مدبرة من «المستويات العليا»؟...

ففي الحال التي، على الرغم من كل ما يخفى عليها، كانت برلين تكشف عن أمـور شـاذة في إدارة المعـسكرات، كـانت تخـاطب إدارات الشـرطة العـسكرية مسترعية انتباههم إلى التقيد بالنظام. وأحد هذه الخطابات صادر عن قائد الشعبة (د) بتاريخ ٤ من نيسان ١٩٤٢: ينص على التوضيح التالي:

«إن قـائد الشـرطـة العسكرية والشـرطة الألمانيـة أوعز بأنه في حـال أوامـره بالجَلْد (سواء أكان ذلك لدى الرجال أم لدى النساء في الحبس الاحتياطي)، فهو يوافق، في حـال إضـافـة كلمـة «مشـدّد» أن يتم الجَلْد على المؤخرة وهي عـارية. وفي سـائر الحـالات الأخـرى فـتـبقى الأمـور على مـا هـي مـتـبـعـة عليـه حـتى الآن، وفـقـاً للتعليمات السابقة من قائد الشرطة العسكرية.»

ويضيف أوجين كوغون الذي ذكر هذا التعميم قائلاً:

«من حـيث المبدأ، قـبل القـيام بالجَلْد، على إدارة المعـسكر أن تطلب مـوافـقـة برلين، وعلى طبيب المعسكر أن يصادق على طلب الشرطة العسكرية، بأن السجين في صـحـة جيـدة. ولكن جـرت العـادة خـلال فـتـرة طويلة في كل المعـسكرات، وحـتى النهاية في عدد كبير منها، في البدء بإرسال السجين إلى منصة التعذيب والانهيال عليـه بقدر من الضـربات التي يرونهـا كـافـيـة، وثم، بـعـد أن يتلقـوا مـوافـقـة برلين، يستأنفون، ولكن هذه المرة يكون التعذيب رسمياً.» (صفحة ٩٩).

من المعروف أن الجَلْد كان دائماً تقريباً يجري على المؤخرة وهي عارية، وهذا التعميم لم يتم إلا للحد من هذا التعسف وليس من أجل تشديد العقوبة.

يمكن الاسـتـغـراب حـقـاً من أن يكون الجَلْد في عـداد العـقـوبات المطبـقـة والإيمان بـأنه نوع من الوحشـيـة. ولكن هذا الأمـر له قـصـة أخـرى: فـفي بلد مـثل ألمانيـا حـيث كـانت هذه العـقـوبة تطبق حـتى نهـاية حـرب ١٩١٤-١٩١٨ على أنهـا

العقوبة الأشد رأفة، ليس من المستغرب أن يحتفظ بها النازيون من أجل الجانحين من الراشدين، ولا سيما إذا عرفنا أن جمهورية ڤايمار لم تحرك ساكناً من أجل ذلك. فضلاً عن هذا، أنه في بلد مثل فرنسا، حيث أكدت أكداس التعميمات على إلغاء هذه العقوبة منذ قرن من الزمان، لا يزال الملايين من الزنوج يتعرضون لها ويُقاسون منها نفسها (الجلد على المؤخرة وهي عارية) لأنهم ومن سوء حظهم لا يحتاجون إلى اللباس إلا لهذا السبب.

هناك تعميم آخر مؤرخ في ٢٨ من كانون الأول ١٩٤٢، صادر عن المكتب المركزي للشرطة العسكرية للشؤون الاقتصادية (مسجل في كتاب الملفات السرية برقم ٤٢/٦٦ ويحمل توقيع الجنرال كلود، من الشرطة العسكرية، يقول:

«... إن أطباء المعسكرات عليهم أن يزيدوا من مراقبة ما لم يفعلوه حتى الآن، بشأن تغذية السجناء، كما عليهم بالاتفاق مع الإدارة أن يقدموا إلى قائد المعسكر مقترحاتهم بشأن تحسينها. وعلى كل حال، يجب أن لا يبقى هذا حبراً على ورق، بل يجب أن تتم مراقبته بانتظام، على يد أطباء المعسكر.»

«... يجب أن تتناقص أرقام الوفيات بشكل ملحوظ في كل معسكر، لأن عدد السجناء يجب أن يعود إلى المستوى الذي فرضته إدارة الشرطة العسكرية. وعلى الأطباء الأوائل في المعسكر أن يبذلوا ما في وسعهم لتحقيق هذا. إن خير طبيب في معسكر اعتقال ليس هو من يعتقد بأنه من المجدي أن يلفت الأنظار إليه بقسوته التي في غير مكانها، بل هو من يحافظ على أقصى درجة ممكنة من الطاقة على العمل في أية ورشة، وذلك بمراقبة صحة العمال، واللجوء إلى التحسينات.» (صفحتا ١١١، ١٤١. تم ذكره مرتين).

ربما كانت هناك وثائق أخرى تدعم الفكرة التي أدافع عنها: إنها ما زالت ترقد في المحفوظات الألمانية، أو أنها، في حال الإفراج عنها، لم يعلنها على الملأ من كان له حظ في الاطلاع عليها. والطريقة المستخدمة للقيام بهذا العمل عجيبة.

والمثال على ذلك: أن دافيد روسيّه نشر تحت عنوان «المهرج لا يضحك» مختارات من الوثائق ذات الصلة بصنوف الوحشية الألمانية في جميع المجالات؛ ولم يتعرض للتعميم الثاني المذكور آنفاً لأنه يهدم حجّته بشكل واضح؛ وحينما ذكر التعميم الأول فقد غيّر تماماً طبيعة معناه(١). وفي هذا الصدد، إذا كان هناك مجال للحذر من شروح وتفسيرات أوجين كوغون، فيجب الاغتباط بأنه كان على درجة كافية من الموضوعية، ولو كان ذلك دون علمه -للكشف عن الحجاب.

الموظفون الصحيون

«في السنين الأولى، لم تكن للموظفين الصحيّين أية كفاءة. ولكنهم اكتسبوا تدريجياً خبرة عملية. كانت مهنة أول شرطي لمراقبة العمل في مستوصف بوشنفالد، عامل مطبعة؛ وكان لخلفه والتر كرامر شخصية قوية شجاعة، وكان يعمل كثيراً ويملك حساً في التنظيم. ومع مرور الزمن أصبح اختصاصياً متميزاً بالجروح والعمليات. كان شرطي مراقبة العمل الخاص بالمستوصف بحكم موقعه يمارس في كل المعسكرات نفوذاً هاماً على الشروط العامة للحياة، وهكذا لم يكن السجناء(٢) يدفعون أيّ اختصاصي إلى هذا الموقع. على الرغم من إمكانية ذلك في العديد من المعسكرات، بل شخصاً مخلصاً إخلاصاً تاماً للفئة المسيطرة في المعسكر، وعلى سبيل المثال، حينما أعدمت الشرطة العسكرية رمياً بالرصاص الشرطي (كرامر)

١- تعرّض دافيد روسيّه لذكر أمر من الرايخ الثالث حول حماية الضفادع، وقارن النص بالنظام اللامعقول المفروض على سجناء معسكرات الاعتقال. فهل هناك حاجة لذكر أن فرنسا الجمهورية لديها مختارات كاملة من النصوص القانونية حول حماية الضفادع، والأسماك، إلخ... كل سنة يتردد صداها على جميع المحافظات؟ وهل يمكن استخلاص فوائد منها، في حال مقارنتها بالطفولة المعذبة، أو مصير الشعوب المستعمرة، بل بأنظمة السجون؟

٢- إن هذا التعميم مجحف، إنهم فقط أولئك الذين أصبحوا قادة عليهم، بسبب السلطة التي خولتهم إياها الشرطة العسكرية.

وأقرب مساعديه (بيكس) في تشرين الثاني ١٩٤١، لم يتم تسليم إدارة المستوصف إلى طبيب، بل على العكس تم تسليمها إلى النائب الشيوعي السابق في الرايخشتاغ، إرنست بوسيه، الذي تمسك هو ومساعده أوتوكيب، من درسدن، بالجانب الإداري البحت(١) في هذه المصلحة التي ما انفكت تتطور، وساهم مساهمة فعالة في الاستقرار المتنامي لشروط الحياة. ولو كان هناك اختصاصي على رأس هذه المصلحة، لكان قاد المعسكر، ولا ريب، إلى كارثة، إذ لن يكون قط قادراً على السيطرة على المناورات المعقدة، والتي غالباً ما تنتهي نهاية مميتة.» (صفحة ١٣٥).

إن الارتعاش ليعروني لدى التفكير بأن مثل هذا المنطق قد صدر عن الكاتب دون أن يرفّ له جفن، وانتشر لدى الجمهور دون أن يثير حركات احتجاج واستنكار شديدة. ولإدراك هول ما يتضمنه هذا الكلام، يجب أخذ العلم بأن شرطي مراقبة العمل يختار بنفسه وفقاً للضرورات مساعديه الذين لا علاقة لهم بالكفاءة. كما يجب التحقق من أن قادة السجناء المزعومين هؤلاء يعرضون آلاف البائسين للمرض، بضربهم وسرقة غذائهم وتركهم تحت رحمة أناس لا يفقهون شيئاً في نهاية المطاف دون أن ترغمهم الشرطة العسكرية على ذلك.

وتبدأ المأساة على باب المستوصف:

«حين يصل المريض أخيراً، عليه في بادئ الأمر أن يقف في الصف خارجاً مهما كان الطقس وبحذاء نظيف. ولما كان من الصعب فحص كل المرضى، ولما كان بينهم دائماً سجناء لا يرغبون إلا بالتهرب من العمل، فقد كان يقف بواب قوي الجسد من السجناء ويقوم بالاختيار الأول للمرضى.» (صفحة ١٣٠).

إن شرطي مراقبة العمل الذي تم اختياره لأنه شيوعي، كان هو الذي يختار

١- يمكن لجميع سجناء معسكر بوشنڤالد أن يشهدوا أن وجهة نظره كانت مهيمنة في المجال الصحي والطبي.

البواب، وهذا الاختيار لا يتم لأن البواب قادر على تمييز المرضى عن غيرهم، أو أن يختار من كان مرضهم أشد أو أخف؛ بل لأنه قوي البنية ويمكنه أن يوجه إليهم ضربات عنيفة.

ولا حاجة لذكر أنه كان يعتني به بإعطائه المزيد من الحساء ليحافظ على قوته. والأسباب الرئيسة لاختيار الممرضين، إن لم تكن من الطبيعة نفسها، فهي من الإلهام نفسه. وإن جاء بعض الأطباء في وقت متأخر إلى مستوصفات المعسكرات، فذلك لم يتم إلا بفرضهم من الشرطة العسكرية، التي كان عليها أن تأتي لتفريقهم عن الجمهور حين تصل المواكب؛ ناهيك عن الإهانات، بل التدابير الانتقامية التي يتكبدها هؤلاء الأطباء في كل مرة يقفون فيها مع متطلبات الوجدان المسلكي ضد ضرورات السياسة والمناورة.

وأوجين كوغون يرى ميزة في القول: إن الشرطي كرامر أصبح «اختصاصياً متميزاً في الجروح والعمليات» ويضيف قائلاً:

«كان لي صديق، اسمه ويلي جيلينيك، وكان حلوانياً في ڤيينا ... في بوشنڤالد كان يدفن الموتى، أي لم تكن له قيمة بين العاملين في المعسكر، وبما أنه كان يهودياً، شاباً، طويل القامة، وذا قوة غير طبيعية، فقد نال شيئاً من الحظ في أن يحافظ على حياته في عهد كوخ. ومع ذلك فماذا أصبح؟ لقد أصبح خير خبير في السلّ، وطبيباً ممارساً أنقذ العديد من الرفاق، كما أصبح مختصاً بعلم الجراثيم في البناء ٥٠.» (صفحة ٣٢٤).

أودّ أن أغضّ الطرف عن استخدام ومصير الأطباء المختصين، الذين كانت الإدارة الذاتية ترى أنهم من الناحية الفردية والجماعية، أقل أهمية من أمثال السيدين كرامر وجيلينيك، كما أود أن أغضّ الطرف عن عدد الموتى الذين دفعوا ثمن الأداء المتميز لهذين الرجلين. ولكن إذا كان من المقبول أن هذه الاعتبارات لا يعتدّ بها، فليس هناك مانع من توسيع هذه التجربة لتشمل العالم خارج معسكرات

الاعتقال، وتعميمها. يمكن حينئذٍ بكل بساطة اتخاذ قرارين فوراً: الأول يلغي كل كليات الطب ويستعيض عنها بمراكز تدريب مهني للحلوانيين والخرّاطين المعدنيين؛ والثاني، يحيل إلى مؤسسات الأشغال العامة، كل الأطباء الذين يزدحمون في المستشفيات ويفتحون العيادات من أجل الاستعاضة عنهم بالحلوانيين وخرّاطي المعادن الشيوعيين وأنصار الشيوعية.

أنا لا أشك أن هؤلاء لديهم القدرة على التخلص من الأمر بشرف: فبدلاً من أن يتحملوا مسؤولية الموتى المتعددين الذين تسببوا بوفاتهم، هناك من يسند إليهم المهارة التي ينتصرون بها في كل المناورات والحياة السياسية. إنه أسلوب في النظر إلى الأمور.

الإخلاص

«منذ البداية، سعى السجناء الذين ينتمون إلى الشعبة السنية إلى مساعدة رفاقهم قدر الإمكان. ففي كل مراكز معالجة الأسنان، كانوا يعملون سراً معرضين أنفسهم لأشد المخاطر، وعلى نحو لا يمكن تصوره إلا بصعوبة. كانوا يصنعون طقوم الأسنان، وأجهزة التعويضات السنية، والجسور، من أجل السجناء الذين حطمت الشرطة العسكرية أسنانهم، أو الذين فقدوها بسبب الشروط العامة للحياة.» (صفحة ١٣١).

هذا صحيح. ولكن «الرفاق» الذين كانت المساعدة تقدم إليهم كانوا دائماً هم أنفسهم: شرطي مراقبة العمل، رئيس البناء، عميد المعسكر، أحد أمناء السر، الخ... أما أولئك الذين فقدوا أسنانهم من الجمهور للأسباب المذكورة، فقد ماتوا قبل أن يحصلوا على أسنان صناعية، أو كان عليهم أن ينتظروا إطلاق سراحهم من أجل العناية بهم.

ومن جهة أخرى، فإن سرية هذا العمل كانت خاصة وتتضمن الموافقة

المسبقة للشرطة العسكرية:

«خلال شتاء ١٩٣٩-١٩٤٠، تم التوصل إلى إنشاء قاعة عمليات سرية، بفضل التعاون الوثيق لعدد من المجموعات، والموافقة الضمنية للدكتور بلايز من الشرطة العسكرية...» (ص ١٣٢).

وقد تم تقدير مداها ونتائجها كما لو أن التجهيزات السنية والجراحية كانت من أجل جميع السجناء لدى كل المعسكرات. ولكن على أثر تواطؤ بعض رجال الشرطة العسكرية، من ذوي المواقع الجيدة، استطاعوا تحويلها عن هدفها لمصالح الإدارة الذاتية وحدها. وفي رأيي أن هؤلاء الذين قاموا بهذا التحويل لو «كانوا يتعرضون لمخاطر جسيمة» لكان هذا الكلام أبعد ما يكون عن المنطق.

وقد شعر أوجين كوغون نفسه بهشاشة هذا المنطق:

«في السنة الأخيرة، كانت الإدارة الداخلية منظمة تنظيماً محكماً حتى أنه لم يعد للشرطة العسكرية حقّ الرقابة على بعض القضايا الداخلية الشديدة الأهمية. أصبحت الشرطة العسكرية بعد أن تعبت، معتادة أن «تدع الأمور تجري في أعنتّها» وإجمالاً كانت تتغاضى عن سياسات المعسكر.»

«ومن المؤكد أن الفئة المسيطرة، وهي تقريباً القوى المعادية للفاشية والتي تعمل بنشاط، كانت تستفيد من هذه الظروف: ولم تكن جموع المساجين تستفيد إلا في المناسبات، وبشكل غير مباشر، من الامتيازات العامة، والتي غالباً ما تكون عدم الخوف من تدخل الشرطة العسكرية، حينما تتخذ إدارة السجناء، في إطار سلطتها الخاصة، تدابير لمصلحة الجميع.» (صفحة ٢٨٤).

بطبيعة الحال يمكن تفسير أن «الشرطة العسكرية كانت إجمالاً تدع الأمور تجري في أعنتّها وتتغاضى عن سياسات المعسكر» لأنها «تعبت» أو «معتادة»: إنها وجهة نظر... أما أنا فمقتنع أن الأمر كذلك لأن السياسات منحتها أدلة عديدة وملموسة عن إخلاص الإدارة الذاتية في الحفاظ على النظام، مما جعلها تستنتج

أنها يمكن أن تثق بالإدارة في العديد من الحالات.

أما ما يتعلق «بالتدابير المتخذة لمصلحة الجميع» فقد تتفادى تدخل الشرطة العسكرية، ولكن بهذا بالضبط، وبهذه (الميزة) تكمن أسباب كل الكوارث التي تنهال على جموع السجناء: فالتعامل مع الله أفضل من التعامل مع أوليائه. فضلاً عن ذلك، إذا كانت السلطة تتوطّد في الحال التي تنجح فيها بتقسيم المعارضة المحتملة، فبالمقابل هي تضعف لدى وجود الخلافات بين من يتقاسمونها. ومن هذه الزاوية فإن الشرطة العسكرية التي تمارس الرقابة الدائمة والدقيقة على كل ما يحدث في المعسكر، ينقلب حذرها إلى تواطؤ في كل علاقاتها التي تتعامل بها مع الإدارة الذاتية. وهذا مما لا ترغب فيه، ويمكن إدراك ذلك بسهولة. كما أن الإدارة الذاتية لا ترغب بأكثر من ذلك، وقد اتخذت قرارها عن عمد، فآثرت التملق الذي يمنحها المكاسب الرخيصة التي تنقذ حياتها على الوضع الذي يضعها في مصاف عامة المعتقلين في المعسكر مهما كان الثمن الذي سيدفعه هؤلاء، وهكذا تآلف بعضهم مع بعض.

(السينما) والرياضة

كانت (السينما) تعرض (أفلاماً) مسلية ووثائقية مرة أو مرتين أسبوعياً مع انقطاع طويل الأمد أحياناً. ونظراً لظروف الحياة البشعة التي كانت تسود المعسكرات، كان الكثير من الرفاق لا يرغبون في الذهاب إلى (السينما). (صفحة ١٢٨).

«ومن غريب الأمر، أنه كان في المعسكرات شيء ما يشبه الرياضة، بيد أن ظروف الحياة لم تكن متلائمة معها؛ مع ذلك كان هناك بعض الشباب الذين ما زالوا يعتقدون أن لديهم بعض القوة التي يمكن بذلها، وأفلحوا في الحصول من الشرطة العسكرية بالموافقة على أن يلعبوا كرة القدم.»

«أما الضعاف الذين ما زالوا قادرين على السير، هؤلاء الرجال الذين أضناهم الهزال والتعب، وقد أشرفوا على الموت وهم على سيقانهم التي تصطك، فكان المتعطشون منهم يحضرون هذه المباريات وهم مسرورون!... (صفحة ١٢٤-١٢٥)

هؤلاء الضعاف، هؤلاء المتعطشون، هؤلاء المشرفون على الموت الذين يشير إليهم أوجين كوغون بأنهم يحضرون وهم مسرورون المباريات وهم وقوف، هم أنفسهم الذين يعتقد أنهم، نظراً للظروف البشعة للحياة، لم يكونوا يجرؤون على الذهاب إلى السينما حيث كان يمكنهم الجلوس.

والحقيقة أنهم لم يكونوا يذهبون إلى (السينما)، لأنه كلما كان هناك عرض كانت الأمكنة كلها تحجز لجماعة الإدارة الذاتية. أما في لعبة كرة القدم فالأمر مختلف: كانت الأرض في الهواء الطلق، وعلى مرأى من الجميع، وكان المعسكر كبيراً. والجميع كان باستطاعتهم الحضور. ولم يكن الأمر يخلو من شرطي مراقبة عمل يعنّ له أن يقتحم الجمع وسوطه في يده، ليدفع بهؤلاء التعساء نحو الأبنية، بحجة أنه من الأجدى لهم أن يستفيدوا من بعد ظهر الأحد من أجل الراحة!

أما «الشباب الذين كانوا يعتقدون أن لديهم بعض القوى التي يمكن بذلها» والذين كانوا يشكلون فرق كرة القدم، فالمقصود بهم جماعة الإدارة الذاتية أو من كان يلوذ بهم: كانوا متخمين بالأغذية المسروقة من أولئك الذين يشاهدونهم، لم يكونوا يعملون فكانوا على أحسن حال.

بيت الدعارة

«كان الماخور يعرف باسم فيه شيء من الحياء: البيت الخاص... وكانت الزيارة بالنسبة للناس الذين ليس لهم اتصالات عليا محددة بعشرين دقيقة... وكان هدف الشرطة العسكرية من هذه المؤسسة إفساد السياسيين... وأعطت

القيادة غير الشرعية للمعسكر التعليمات بعدم ارتياده، وبوجه عام اتبع السياسيون التعليمات بحيث أحبطوا هدف الشرطة العسكرية.» (صفحة ١٧٠-١٧١).

مثله مثل (السينما) لم يكن يرتاد الماخور سوى جماعة الإدارة الذاتية. وهم وحدهم الذين كانوا يرون فيه بعض الفائدة، ولم يشكُ أحد من ذلك وكل الأحاديث التي أقيمت حول هذا الإنجاز لا فائدة منها. مع ذلك أودّ أن ألاحظ أنه:

«أقام بعض المعتقلين من ذوي الأخلاق الفاسدة، وبينهم عدد كاف من السياسيين علاقات كريهة بعد وصول الأطفال.» (صفحة ٢٣٦)

في رأيي أنه كان من الأجدى لهؤلاء السياسيين أن يذهبوا إلى الماخور طالما أن الإمكانية كانت متوفرة لهم. إن المنطق الذي يمكن في مديحهم لأنهم رفضوا العرض المقدم إليهم بحجة الابتعاد عن الفساد يصبح تضليلاً قبيحاً حين يتضمن إفساد الأطفال. وأضيف أن الشرطة العسكرية أقامت المواخير في المعسكرات كلها للوقوف في وجه أي عذر يبرر هذا الإفساد للأطفال...

الوشاية

«كانت قيادة الشرطة العسكرية تبث الجواسيس في المعسكرات ليخبروها بالأحداث الداخلية... ولم تحصل الشرطة العسكرية على نتائج إلا من الجواسيس الذين تختارهم من المعسكرات نفسها: من مجرمي الحق العام، الخارجين عن الجماعة، وأحياناً من السياسيين. (صفحة ٢٧٦).

«كان من النادر أن يختار الغستابو، في المعسكرات، جواسيس أو وشاة من الموقوفين... ولعل الغستابو عانى أسوأ التجارب في محاولات من هذا النوع، فلم يلجأ، لحسن الحظ، إلى هذه الوسيلة إلا في حالات نادرة جداً» (صفحة ٢٥٥).

من المستغرب جداً أن يفشل إجراء يستخدمه الغستابو وقد أعطى نتائج

إيجابية لدى استخدامه من الشرطة العسكرية. والواقع أنه صحيح مع ذلك أن الغستابو لا يلجأ إلى هذا إلا بصورة استثنائية. فهو ليس بحاجة إليه. إن كل مقيم في المعسكر لديه قسط من السلطة أو وظيفة حصل عليها بالوساطة هو إلى حد ما من الوشاة الذين يخبرون الشرطة العسكرية مباشرة أو عن طريق شخص وسيط: وحينما يرغب الغستابو بمعلومة ما، فما عليه إلا أن يتوجه إلى الشرطة العسكرية....

إن المعسكرات التي تخضع لفحص دقيق كانت عرضة لشبكة واسعة من الوشاة. وبين الجمهور كان هناك الصغار الذين يمتهنون قلة الوجدان فيخبرون جماعة الإدارة الذاتية بدناءة متأصلة من أجل حساء، أو كسرة خبز، أو قطعة زبدة، إلخ...، أو يفعلون ذلك لا شعورياً. ومهما بلغت فداحة إساءاتهم، فإنها لم تدخل بعد بوابة التاريخ نظراً لعدم وجود المؤرخين. وفوق هؤلاء كانت كل الإدارة الذاتية التي كانت تشي بالجمهور للشرطة العسكرية حينما تدعو الحاجة إلى ذلك، وأخيراً فإن الإدارة الذاتية كانت مؤلفة من أناس يشي بعضهم ببعض.

وضمن هذه الظروف كانت الوشاية غالباً ما تأخذ مظاهر غريبة:

كان وولف (وهو ضابط شرطة عسكرية سابق، وعميد المعسكر عام ١٩٤٢، ومعروف بشذوذه الجنسي) يقوم بالوشاية لحساب أصدقائه البولونيين (كان عشيقاً لأحد البولونيين) ضد رفاق آخرين. وكان وهو على هذه الحال على درجة من الحماقة بحيث أنه كان يوجّه التهديدات. وعلم أن شيوعياً ألمانياً من ماجدبورغ كان على أهبة إطلاق سراحه، وحينما قال له أنه يمكنه إيقاف خروجه من المعتقل بأن يذكر أنه ذو نشاط سياسي في المعسكر، أُجيب أن الشرطة العسكرية ستأخذ علماً بممارسته اللوطية، وتفاقم النزاع إلى درجة أن الإدارة غير الشرعية للمعسكر سبقت ما كان الفاشيون البولونيون يريدون عمله فسلمتهم إلى الشرطة العسكرية.» (صفحة ٢٨٠).

وبتعبير آخر، إن الوشاية وهي دناءة حينما يمارسها الخضر، تصبح فضيلة، وحتى لو كانت على سبيل الاحتياط، حينما يمارسها الحمر. ما أسعد الحمر إذ يمكنهم التخلص وهم يضعون شارة «الفاشية» على جبين ضحاياهم! وإليك ما هو أدهى وأمرّ:

«في بوشنفالد، عام ١٩٤١، كانت أشهر حالات الوشاية وأشدها ضرراً، حالة المهاجر الروسي الأبيض غريغوري كوشنير-كوشناريف، الذي كان يزعم أنه أحد جنرالات القيصر سابقاً، والذي حاز، خلال أشهر، على ثقة أوساط عديدة، ثم شرع يسلّم إلى الشرطة العسكرية كل أنواع الرفاق، وعلى الأخص الأسرى الروس. إن عميل الغستابو هذا، المسؤول عن موت مئات الموقوفين، كان يجرؤ أيضاً على الوشاية بأحط الوسائل، بكل من كان يدخل في نزاع معه، وحتى لأسباب تافهة... ولفترة طويلة لم يكن بالإمكان مفاجأته وحيداً من أجل قتله، إذ أن الشرطة العسكرية كانت ترعاه على نحو خاص. وأخيراً جعلت منه مديراً لأمانة الموقوفين. ولدى تسلمه هذا العمل، لم يكتف بإسقاط كل من لا يروقه، بل عرقل الانتفاع الذي كان لصالح الموقوفين بخدمات منظمة الإدارة الذاتية للسجناء. وأخيراً، في الأيام الأولى من عام ١٩٤٢، شعر بالمرض وكان على درجة من الحماقة إذ ذهب إلى المستوصف، وهكذا سلم نفسه إلى خصومه. وبناء على تصريح من طبيب الشرطة العسكرية الدكتور هوفن، الذي عمل طويلاً في هذه القضية، وكان إلى جانب جماعة السياسيين، تم الإعلان عن أن كوشنير مصاب بمرض معدٍ، فتم عزله، وبعد بضع ساعات تم قتله بحقنة سامة. (صفحة ٢٧٦).

لعل المدعو غريغوري كوشنير-كوشناريف كان مداناً بكل ما اتُّهم به، ولكن كل من كانوا في الإدارة لدى معسكرات الاعتقال، وشغلوا المنصب نفسه، قبله أو بعده، تصرفوا بالأسلوب نفسه، وضميرهم مثقل بالجرائم نفسها. أما هذا فلم يكن يتمتع بموافقة أوجين كوغون... ومهما يكن فمن الصعب الموافقة على أن الشرطة

العسكرية قد قامت مجاناً بدور فعال لتصفيته بشخص طبيب الشرطة العسكرية الدكتور هوفن.

ويضيف أوجين كوغون قائلاً:

«ما زلت أذكر تنهدات الارتياح التي تصاعدت عبر المعسكر، حين انتشر خبر موت كوشنير في المستوصف بسرعة البرق.»

لا شك أن الفئة التي ينتمي إليها الشاهد تنفست الصعداء، لأن هذه الميتة تعني تسلمها السلطة، ولكن تنفس الصعداء هو تعبير عن ارتياح باقي المعسكر عن أن موت أي من الأعضاء المتسلطين من الإدرة الذاتية عن طريق الإعدام يثير الأمل في تحسين المصير المشترك. وبعد برهة وجيزة، يتم الإدراك أن شيئاً لم يتبدل. وحتى الإعدام التالي يبقى الجميع غير مبالين بكون الضحية على مذبح الحقيقة أو على مذبح الافتراء، فالرعب قد تشابه لديهم.

الورديات

«من المعلوم أنه في المعسكرات، يقوم مكتب إحصاء العمل، المؤلف من بعض السجناء، بتنظيم استخدام اليد العاملة، وذلك تحت مراقبة وتعليمات رئيس اليد العاملة ومصلحة العمل. ومع مضي السنين، أرهقت الشرطة العسكرية بالمطالب الكثيرة. وفي بوشنفالد لم يحاول النقيب شفارتس لدى الشرطة العسكرية سوى مرة واحدة أن يشكل بنفسه وردية من مائة سجين. وبعد أن أبقى كل المعسكر تقريباً نصف يوم في ساحة التفقد ليستعرض الرجال، توصّل إلى تجميع ٦٠٠ رجل. ولكن الرجال الذين تم اختيارهم –وكان عليهم الخروج من الصف– تسللوا في اتجاهات أخرى. ولم يبق أحد بين يدي شفارنس... » (صفحة ٢٨٦).

في رأيي لم يكن هناك أي مانع في أن تعاد تجربة شفارنس في كل مرة يُراد بها تنظيم وردية إلى أي مكان عمل: وإذا لم تستطع الشرطة العسكرية التوصل

إلى ذلك، فالأمر كان في صالحها، ولكن: «ومنذ تلك اللحظة، تخلّى رئيس اليد العاملة لموقوفي إحصاء العمل عن كل القضايا المتعلقة بتوزيع العمل.» (المصدر نفسه)

بعد الانتقاء الذي يتم في ساحة التفقد لم يعد بالإمكان «التسلل في كل الاتجاهات» كما حدث مع شڤارتس: فإن شرطة مراقبة العمل ورؤساء الأبنية والشرطة المنتقين من بين السجناء، إلخ، يقيمون، وأسواطهم بأيديهم، حاجزاً يهدد كل محاولة بالهرب على نحو يبدو أمامه النقيب شڤارتس متسامحاً. كانوا جميعاً، شيوعيين، معادين للفاشية، معادين لهتلر، إلخ... ولكنهم لا يمكنهم أن يتسامحوا مع أحد يزعج النظام الهتلري للعمليات أو يحاول أن ينقص المجهود الحربي للرايخ الثالث بمحاولته الهروب منه. وبالمقابل كان لديهم الحق في اختيار السجناء الذين عليهم أن يكونوا جزءاً من الورديات فيقدمون اللوائح بتملق أعلى من أي مديح: انظر آنفاً.

لوحة

«هناك إمكانية ناجمة عن «السلطة التي تأتي عن طريق الرشوة» وهي إثراء فرد أو عدة أفراد على حساب الآخرين. وكان هذا يأخذ أبعاداً مخجلة بعض الأحيان في المعسكرات، حتى في تلك التي يتسلم فيها السياسيون السلطة. وهناك أكثر من واحد ممن كانوا يستغلون وضعهم فيعيشون حياة الأمراء، بينما كان رفاقهم يموتون بالمئات. فحينما كان يتم تهريب صناديق المؤونة الآتية إلى المعسكر، وهي حافلة بالمواد الدسمة، والسجق، والمعلبات، والطحين والسكر، خارج المعسكر بواسطة رجال الشرطة العسكرية المتواطئين، ليتم إرسالها إلى أسر أولئك الموقوفين، طبعاً لم يكن ذلك مبرراً. ولكن أشد ما يثير الغيظ، في زمن لم يعد فيه أفراد الشرطة العسكرية الإقليمية ينتعلون الجزمات العالية، بل أحذية الجيش العادية، كان أعضاء طبقة «الزعماء» الرفيعة يتنزهون بخيلاء بألبستهم التي كانت

من أحدث الأزياء ومفصلة على قياساتهم، وحتى أن بعضهم يجرّ كلباً صغيراً من طرف زمامه! وكان ذلك يتم في فوضى من البؤس والقذارة، والمرض والمجاعة والموت! في هذه الحال كانت «غريزة حب البقاء» تتجاوز كل حدود المعقول وتنتهي إلى رياء، سخيف حقاً، ولكنه صلب مثل الحجر، ولا يتفق مع المثل العلياالاجتماعية والسياسية التي يعلنها هؤلاء الأشخاص في الوقت نفسه.» (صفحة ٢٨٧).

هذا ما كان عليه الأمر في المعسكرات. ومع التسامح وبعض التحفظات لا يمكن التوصل إلى عرض أحسن، وبكلمات أقل، لكل أسباب الرعب: إنها غريزة حب البقاء. وكل وسائلها: الفساد.

وإذا كان من الممكن إيقاف التعليق على هذه اللوحة إلى هذا الحد، فبإمكاننا أن نأخذ منها شاهداً لذكر أن غريزة حب البقاء، وهي مقولة قديمة جداً، هي أمر آخر مختلف عما درسناه في علم الأخلاق الطفولي. فمن غيتون الشرس، الذي كان يحاصره ريشيلو في لاروشيل، الذي كان يفصد دمه ليغذي طفله، إلى زحل الذي كان يفترس أطفاله لدى ولادتهم ليتفادى الموت الذي كان يهدده به تيتان، هناك احتمالات شتّى لردود الأفعال البشرية؛ ويمكن الاعتقاد أن هناك من أمثال غيتون أكثر ممن هم من أمثال زحل. إن السلوك الفردي لا يتيح على أية حال، إلا في الحالات الاستثنائية التأكيد على عكس ذلك. ولكن هذا السلوك ليس سوى طلاء لا يخدشه أحد ويكفي أن يحكّ امرؤ قليلاً حتى تتغير الشروط الاجتماعية بقسوة فتظهر الطبيعة البشرية بكل تعلقها بالحياة.

إن الضمير الشعبي الفرنسي يهتف من خلال أصوات كل أطفال فرنسا بأغنية: «كانت هناك سفينة صغيرة..(١)» ويعزّي نفسه ضمن الحدود التي يعتقد

١- تروي الأغنية قصة شعبية تتلخص في أن سفينة ضاعت في عرض البحر ونفد الطعام منها، فاتفق البحارة أن يأكلوا أحدهم وهو الذي يسحب القشة الصغيرة من بين القشّات الخمس.(المترجم).

فيها أنه يخفف من هول الموقف بتأكيده على لعبة «سحب القشة الصغيرة» لمعرفة من سيتم التهامه من الآخرين، بدلاً من أن يترك القرار لاتفاق أو اتخاذه «ديمقراطياً»، في الجمعية العامة. ولكن هذا الضمير كان شديد السخط حين علم أن السفينة الصغيرة تحولت إلى طائرة، سقطت فوق الجليد القطبي للجنرال الإيطالي نوبيل، وتم اتهام هذا الجنرال بأنه لم يبق على قيد الحياة حتى وصول بعثة الإنقاذ التي كشفت عن حطام الطائرة، إلا لأنه كان قد التهم واحداً أو أكثر من رفاقه. وهو إذ لم يظهر ردود فعل شديدة ضد روايات معسكرات الاعتقال، ذلك لأنه لم يظهر خلالها بوضوح أن الإدارة الذاتية للمعتقلات كانت تستخدم كل وسائل الفساد وباحتفاظها لنفسها بالقشات الصغيرة التي تمكنها الشرطة العسكرية من سحبها، فالتهمت مجموعة المعتقلين.

قبل هذه الحرب، عرفت شخصياً الكثير من الناس الذين «يفضلون الموت واقفين على أن يعيشوا راكعين». كانوا مخلصين، ولا شك في ذلك، ولكنهم في المعسكرات، عاشوا منبطحين، وارتكب بعضهم أقبح الجرائم. ولدى عودتهم إلى الحياة المدنية أو إلى الحياة باختصار، نسوا الهزيمة التي تعرضوا لها، من خلال المثل الذي ضربوه بأنفسهم. فهم ما زالوا متصلبين من حيث المبدأ، ويلقون الخطب نفسها.... وهم على استعداد ليعاودوا مع البلاشفة ما صنعوه مع النازيين.

والواقع، أنه خارج نطاق غريزة حب البقاء التي لعبت دورها على المستويات كافة. من المعتقل العادي أمام الإدارة الذاتية، ومن الإدارة الذاتية أمام الشرطة العسكرية، ومن الشرطة العسكرية أمام قادتها، لا يوجد ما يستحق الذكر في أحداث عالم معسكرات الاعتقال. كان يتم الشعور به تماماً، دون أن يتم الاعتراف به، وهكذا يتم اللجوء إلى التحليل النفسي: إن أطباء موليير الذين كانوا يتحدثون باللاتينية التي لا يتقنونها أكثر مما يتقنون مهنتهم، مع ذلك كانوا يحوزون على رضا الرأي العام.

وجهات نظر

«إن الأحداث في معسكرات الاعتقال كانت مشحونة بالغرائب النفسية، لدى الشرطة العسكرية ولدى المعتقلين. وبوجه عام، كانت ردود فعل السجناء أقرب إلى الفهم من ردود فعل الذين يتولون قمعهم. والواقع أن السجناء كانوا يبقون ضمن المجال الإنساني، بينما يتصف رجال الشرطة العسكرية باللاإنسانية.» (صفحة ٣٠٥).

في رأيي، أنه من الأصح القول: إن ردود فعل هؤلاء وأولئك كانت جميعها ضمن المجال الإنساني بالمعنى البيولوجي للكلمة، أما ما يتعلق بالإدارة الذاتية والشرطة العسكرية فكانت ضمن المجال اللاإنساني بالمعنى الأخلاقي للكلمة.

وبعد ذلك يقول أوجين كوغون محدداً:

«إن أولئك الذين كانوا أقل تحوّلاً في المعسكرات هم المنعزلون اجتماعياً والمجرمون المحترفون. والسبب يكمن في الاتجاهات المتماثلة بين بنيتهم النفسية والاجتماعية وبين بنية الشرطة العسكرية.» (صفحة ٣٢٠).

ربما، ولكن يجب أيضاً الإقرار أنه في وسط معسكرات الاعتقال، إذا لم يكن من شأنها خلق عقلية السياسي لدى المنعزلين اجتماعياً أو المجرم المحترف، فإنها تزوّد بالمقابل السياسيّ بالأسباب المتعددة كي يتحول إلى شرير. وليست هذه الظاهرة خاصة بمعسكر الاعتقال: فهي طالما لوحظت في كل الإصلاحيات وكل السجون حيث يتم الفساد بحجة التجديد.

إن نظرية الأستاذ فرويد في الكبت تجيد شرح كل هذا ومن العبث الإلحاح. ونظرية قيمة المثل لا تتنافى معها: ففي كل هذه المؤسسات تتجه العقلية الجماعية الناجمة عن الممارسة المنظمة للقمع إلى التأقلم مع المستوى الأدنى، والذي يمثله، عادة الحراس، وهم صلة الوصل بين كل الموقوفين. ولا غرابة في ذلك: إذ أن الوسط الاجتماعي الذي نعيش فيه والذي يرفض مفهوم معسكر الاعتقال بكثير من

الاستنكار الأخلاقي وهو يمارسه في الوقت نفسه، بدرجات مختلفة، أتاح للسياسيين الذين أصبحوا أشراراً التظاهر بالبطولة، ولو كان ذلك مؤقتاً كما آمل!

ولا شك أن أوجين كوغون قد أحس مسبقاً بالملامة في هذا النسق من الأفكار فسارع إلى الكتابة في مقدمة كتابه:

«كان عالماً قائماً بذاته، دولة قائمة بذاتها، نظاماً بلا قانون يلقى فيه الكائن البشري الذي، منذ هذه اللحظة، يستخدم كل ما لديه من فضائل ورذائل -الرذائل أكثر من الفضائل!- فلا يناضل إلا للحفاظ على وجوده البائس. هل كان يناضل ضد الشرطة العسكرية؟ كلا بالطبع! كان عليه أن يناضل أكثر ضد رفاقه في الأسر...»

«إن عشرات الألوف ممن بقوا على قيد الحياة والذين مارس عليهم نظام الإرهاب، من خلال رفاق لهم في الأسر متعجرفين، ممارسات أشد عذاباً من دناءات الشرطة العسكرية، سيكونون ممتنين لي لأني سلطت الأضواء على مظهر آخر من مظاهر المعسكرات، ولأني لم أخش من كشف الدور الذي لعبه في معسكرات مختلفة بعض النماذج السياسية، والذين يثيرون اليوم الضجة حول معاداتهم الصلبة للفاشية. أنا أعلم أن بعض رفاقي تملكهم اليأس وهم يرون الظلم والقسوة تزدانان، رغم ذلك، بهالة من البطولة، من أناس طيبين لا يرتابون في شيء. لن يخرج انتهازيو المعسكرات هؤلاء مرفوعي الرأس من خلال دراستي: إذ أنها ستمنح الوسائل لبهتان هذه الأمجاد المغتصبة... في أي معسكر كنت؟ في أية مجموعة؟ ما هي المهمة التي كنت تمارسها؟ إلى أي حزب كنت تنتمي؟ إلخ.» (صفحة ١٧).

إن أقل ما يقال، هو أن الشاهد لم يحافظ على عهده: ويمكن البحث عبثاً، في كل كتابه، عن نموذج سياسي محدد مقصود بذلك. وعلى العكس كان بين الفينة والفينة يترافع عن الحزب الشيوعي بشكل مباشر أو غير مباشر:

«وهذا الجدار المرن الذي أقيم ضد الشرطة العسكرية... إنهم الشيوعيون الألمان الذين لديهم خير الوسائل لتنفيذ هذه المهمة.

«إن العناصر المعادية للفاشية، أي، الشيوعيين في المقام الأول...» (صفحة ٢٨٦)،

إلخ.، ومن أجل الإدارة الذاتية للمعتقل، لأن أولئك الذين يدّعون أنهم شيوعيون، هم وحدهم يمكنهم الدخول إليها والبقاء فيها. وهو بشكل ما يترافع عنها، وأنا أشك كثيراً في أن القارئ غير المطلع، بعد أن يغلق الكتاب، ستتملكه الرغبة الشديدة في تطبيق الأسلوب الذي ينصح به: ما هي المهمة التي كنت تمارسها؟ وها هي نتيجة ذلك كله:

«إن أقصى ما تحدثه حكايات معسكرات الاعتقال، بوجه عام، الاستغراب أو هز الرؤوس؛ ولا تكاد تمس الإدراك ولكنها لا تمس القلب على أية حال.» (صفحة ٣٤٧).

هذا بديهي، ولكن على من يقع الخطأ؟ إن الرأي العام، في غمرة التحرير، وقد أطلق لحقده المتجمع خلال سني الاحتلال الطويلة العنان، كان على استعداد لقبول كل شيء وبعد أن عادت العلاقات الاجتماعية إلى طبيعتها، وأصبح الجو نقياً، أصبح من الصعب أكثر فأكثر الاستيلاء عليه. وأصبحت الآن حكايات معسكرات الاعتقال تبدو لها وكأنها مبررات أكثر من كونها شهادات. وهو يتساءل كيف وقع في الشرك المنصوب له، وكاد أن يضع الجميع في قفص الاتهام.؟

حاشية

لقد ضربت صفحاً عن عدد من القصص المستبعدة الوقوع وعن كل زخرفة في الأسلوب.

فيما يتعلق بالأمر الأول يجب تصوير القسم الأكبر المتعلق بالإصغاء إلى الإذاعات الخارجية: أنا لم أعتقد قط أنه من الممكن تركيب أو استخدام جهاز سري داخل معسكر الاعتقال؛ وإذا تم الاستماع أحياناً إلى صوت أميركا أو انكلترا، أو فرنسا الحرة، فإن ذلك قد تم بموافقة من الشرطة العسكرية، وقد استفاد من ذلك فقط عدد قليل من الموقوفين المتمتعين بالامتيازات في ظروف تمت بمحض المصادفة. وهذا ما حدث معي شخصياً في دورا خلال الفترة الوجيزة التي عملت فيها مراسلاً لدى المساعد المسؤول عن مفرزة الكلاب.

كان عملي يتضمن المحافظة على نظافة بناء الشرطة العسكرية المخصص للرتباء، ومسح أحذيتهم، وترتيب أسرّتهم وجلاء قصعاتهم، إلخ. وكل هذه الأشياء كنت أقوم بها بتواضع جم وبضمير يقظ. وفي كل غرفة في هذا البناء كان يوجد جهاز استقبال: ولم يكن كل ذهب العالم يكفيني لأسمح لنفسي بأن أدير مفتاح أي جهاز، حتى في الوقت الذي كنت واثقاً فيه ثقة مطلقة أني وحيد تماماً. وبالمقابل، وحوالي الساعة الثامنة صباحاً، حدث مرتين أو ثلاثاً للمساعد المسؤول عني أن ناداني إلى غرفته بعد أن انصرف كل أتباعه إلى العمل، وأدار الجهاز ليلتقط محطة الإرسال البريطانية الناطقة باللغة الفرنسية وسألني أن أترجم له خفية ما كنت أسمعه.

وفي المساء، لدى عودتي إلى المعسكر، كنت أنقل بصوت منخفض إلى اثنين من أصدقائي وهما ديلابر (من بيلفور) وبورغيه من (كريزو) ما سمعته موصياً إياهما بإلحاح أن يحفظا السر لنفسيهما، بشكل مدروس جداً لئلا يلفتوا الانتباه ولا يتيحوا معرفة مصدر الخبر.

ولم يحدث لنا شيء(١). ولكن في الوقت نفسه، جرت في المعسكر قضية إصغاء إلى الإذاعات الخارجية، والتي اتُّهم فيها، على ما أعتقد، ديبومارشيه، ولم أعرف بالضبط كنه هذه القضية: فقد اقترب مني أحد أعضاء هذه المجموعة في أحد الأيام وروى لي أن هناك جهاز استقبال سرياً في المعسكر، وأن هناك حركة سياسية تستقبل بواسطته أوامر من الإنكليز، إلخ. وأيّد أقواله بإعطائي أخباراً كنت قد سمعتها في صباح ذلك اليوم نفسه أو بالأمس لدى المساعد المسؤول عني. وأبديت حذري بتعبير جعله يعتقد أني رجل يجب الحذر منه. وبعد أيام حدثت اعتقالات جماعية في المعسكر كان من جملتها ذلك الشخص وديبومارشيه نفسه. وانتهى ذلك كله بشنق عدد منهم. والحقيقة أن ذلك يعود إلى أحدهم كان في مثل حالي وتحدث أكثر مما يجب ووصلت أحاديثه إلى دائرة مخابرات الشرطة العسكرية بواسطة أحد وشاة الإدارة الذاتية. وحين كتب أوجين كوغون:

«قضيت كثيراً من الليالي مع بعض المطلعين أمام جهاز ذي خمسة صمامات كنت قد أخذته من الدكتور دينغ شولر «للعمل على إصلاحه في المعسكر». استمعت إلى صوت أميركا في أوروبا وكذلك إلى المحطة الأميركية باللغة الألمانية، وكنت أختزل الأخبار ذات الأهمية.» (صفحة ٢٨٣).

فأنا أصدقه بملء إرادتي. وأنا أميل أكثر إلى الاعتقاد بأنه أصغى إلى الإذاعات المشار إليها بصحبة الدكتور دينغ-شولر (٢) ولكن كل الباقي لم يكن

١- لم نشكل لجنة، ولم يقل أيٌ منا للرائح والغادي أننا على علاقة مع الحلفاء.

٢- في أطروحته بعنوان «الصليب المعقوف ضد الصولجان» ذكر الدكتور فرنسوا بايل هذه الشهادة المثيرة لكوغون في نورمبورغ: طلب إليه دينغ-شولر رئيس أطباء معسكر بوشنفالد أن يهتم بزوجته وأولاده، في حال انهزام ألمانيا (!..) فإذا كان هذا الطلب يتضمن طلباً مقابلاً متشابهاً- وهذا لم يقله أوجين كوغون طبعاً!- فإن الوضع المتميز لهذا السجين الفريد، يمكن تفسيره بعقد تعاون، موجباته وأهدافه أقل نبلاً مما مر علينا حتى الآن. إن الاعتماد على هذه الفرضية قد يكون

سوى أسلوب لتعقيد الصورة، من جهة ليعتقد الآخرون أنه سلوك ثوري من أولئك الذين يستولون على السلطة، ومن جهة أخرى لتبرير ابتزازاتهم الوحشية.

أما ما يتعلق بزخرفة الأسلوب فقد أهملت تأكيدات مثل: منتصف الليل، في كاتدرائية برونشفيغ، هناك، أمام عظام هنري الأول، وهو الإمبراطور الألماني الوحيد الذي كان هملر يقدره فيرغب في تطوير صوفية «جماعة المتآمرين». ثم كان يمضي بعد ذلك، تحت الشمس الساطعة، إلى أحد معسكرات الاعتقال ليشهد(١) جَلْد السجناء السياسيين بالجملة.» (صفحة ٢٤). أو مثل:

«كانت السيدة كوخ التي كانت من قبل عاملة اختزال في مصنع للتبغ، تغتسل في حوض ممتلئ بخمر جزيرة مادير » (صفحة ٢٦٦).

هذه الأمثلة التي تحشد ما يتعلق بكل الشخصيات البارزة في النظام النازي فتحدث تأثيرات مرضية للسادية، إنها آتية من الروح ذاتها التي دفعت صحيفة (رير) إلى أن تنشر في أيلول ١٩١٤ صورة طفل مقطوع اليدين، وصحيفة (لو ماتان) أن تقدم الإمبراطور غليوم الثاني وكأنه مجنون مصاب بالسرطان، ليس أمامه من الحياة سوى بضعة أشهر، وهو لم يمت إلا بعد عشرين سنة في خلوة قرب هامرونغن، وهنري ديغرانج في مجلة (أوتو) في أيلول ١٩٣٩ أن يسخر بغورنغ الذي يحتاج إلى الصابون كي يغتسل. إن ابتذال الأسلوب لا يعادله سوى سرعة التصديق لدى الشعب والمثابرة من أولئك الذين يستخدمونه على التكرار فيما يتعلق بأعدائهم، في الحروب كلها.

تابع – مغامرة ولذا فنحن أميل إلى التسجيل أن التعاون بين كوغون والشرطة العسكرية، كان، من خلال اعترافه بنفسه، فعّالا، ودياً وغالباً ما كان ودوداً. وبطبيعة الحال، فإن الثمن الذي دفعته كتلة السجناء فله قصة أخرى. لأنه كان هناك قصة تعاون كوغون.

١– إذا كانوا يخبئون منصة تعذيب بوشنفالد عن قائد شرطةفايمار، فمن غير المحتمل أن يظهروها للوزير المسؤول عن الشرطة.

الخاتمة

سينكب آخرون من بعدي على الكتابة في أدب معسكرات الاعتقال: وهذا مما لا شك فيه، ربما التزموا بالخط نفسه، وتعمقوا في التحقيق، ومالوا إلى إغناء نصوصهم بالحجج. وربما تبنوا تصنيفاً خر وأسلوباً آخر، وربما أعطوا شأناً أكثر إلى الجانب الأدبي البحت، وربما جاء أمثال نورتون (صاحب كتاب الشهود) واستوحوا مما كتبه عن أدب الحرب، غداة حرب ١٩١٤-١٩١٨، فقدموا جملة نقدية من كل صوب وتحت كل مظهر، لكل ما كُتب عن معسكرات الاعتقال. ربما...

لم يكن طموحي يذهب إلى أبعد من فتح الطريق لاختبار نقدي، لم يستطع جهدي إلا أن يقف عند بعض الملاحظات الأساسية ويلتزم في المقام الأول بالاعتماد على نقطة الانطلاق في المناقشة، أي على الوقائع المادية. ولو لم يتمسك هذا الجهد ببعض الحالات النموذجية، التي أعتقد بتواضع أنها اختيرت بمهارة، لما استطاعت أن تمس كل حياة المعتقلات بنقاطها الحساسة، ولن تتيح بالتالي للقارئ أن يكوّن رأياً عن كل ما استطاع أو سيستطيع قراءته حول الموضوع، وفي هذا المجال سيصل إلى هدفه.

وبطريقة غير مباشرة، قد يصل إلى أهداف أخرى من خلالها.

صدر حديثاً كتاب لا يدخل مباشرة بما يشغل الناس وبالتالي لم يقف النقد عنده أكثر مما يجب: وهو كتاب غيتو في الشرق. ومؤلفه مارك دفورجتسكي، أحد الذين بقوا على قيد الحياة بعد عدد من المجازر، يسوق خلفه ماضياً يشعر بمدى خطورته على نحو يسأله ضميره باستمرار: «هيا، تكلم، كيف بقيت على قيد الحياة بينما مات الملايين؟» لا يبدو أن لضمير شهود معسكرات الاعتقال هذه المتطلبات، ولا يطرح عليهم أسئلة بمثل هذه الصراحة. بيد أنه لا يمكن التهرب بسهولة من

سؤال هو من طبيعة الأمور، وإذا لم يدعه الضمير يتصاعد من نفسه إلى شفاه المعنيين بالأمر على شكل ملامة، فهناك الناس الموجودون الذين لا يمتلكون سوى لحظات نادرة من التسامح والذين يطرحونه من خلال تحقيق مباشر: «هيا، تكلم، كيف بقيت على قيد الحياة؟» وستعذرونني إذا شعرت أن الجواب هو لديّ.

الأمور جميعها متسلسلة: والسؤال يستدعي سؤالاً آخر، وحين يبدأ الجمهور بطرحه: فإن كلمة (كيف؟) دائماً تستدعي كلمة (لماذا؟) حينما لا تتبعها، وبالمناسبة فهذه تتقدم بشكل طبيعي جداً: لماذا قام بعض المرحلين بصياغة تعبيرات قابلة للاعتراض في شهاداتهم؟ والجواب هنا شديد الحساسية: من أجل التمييز بين هؤلاء الذين تم استعبادهم وسحقهم من خلال التجربة التي عاشوها، وأولئك الذين أطاعوا المتغيرات السياسية والشخصية يجب التحليل النفسي -إذ أن هذا التعبير قد ذكر- للجميع، كما يجب ألا يعهد بهذا العمل إلا إلى مختصين من ذوي الخبرة.

وهنا يمكن التأكيد أن للشيوعيين في ذلك مصلحة لا تنكر للحزب: إذ أن كارثة اجتماعية ستنقض على الإنسانية، إذا كان الشيوعيون هم الأرفع شأناً والأكثر ذكاء والأشد فعالية ممن يتفاعل؛ إن اكتساب القدوة سيعود بالخير على المنظمة وعلى العقيدة التي تعلن عنها. ولهم في هذا مصلحة سياسية على الصعيد العالمي: فمن خلال لفت نظر الرأي العام إلى المعسكرات الهتلرية، يجعلونه ينسى المعسكرات الروسية. وأخيراً فإن لهم مصلحة شخصية: فبهجومهم على مقاعد الشهود، وبصياحهم بأعلى أصواتهم، يتفادون مقاعد المتهمين.

وهنا، كما في كل مكان، ضربوا المثل في تضامن لا تنفصم عراه واستطاع العالم المتمدن أن يبني سياسته تجاه ألمانيا بناء على معلومات زوده بها خفراء أفظاظ سوقة. وهو لم ينشد أكثر من ذلك، وآنذاك كان باستطاعة العالم المتمدن إظهار خفرائه الخاصين به كنماذج إنسانية...

أما غير الشيوعيين، فأمرهم مختلف، وأنا لا أود أن أذكر الأمور بلا تروٍّ.

فإلى جانب أولئك الذين نفذوا مغامرتهم، يوجد هؤلاء الذين اعتقدوا حقاً بأخلاقية الشيوعيين، الذين حلموا بتفاهم ممكن مع روسيا السوفييتية في سبيل إقامة سلام عالمي، أخوي عادل في ظل الحرية، هؤلاء الذين دفعوا ثمن الاعتراف بالجميل، هؤلاء الذين انقادوا خلف الرياح الموسمية، وذكروا أموراً لأن هذا ما درج عليه العصر، إلخ... إلخ... وهناك أيضاً الذين اعتقدوا أن الشيوعية ستجتاح أوروبا، وبعد أن رأوا أعمالهم في معسكرات الاعتقال، وجدوا أنه من الفطنة أخذ بعض الضمانات من أجل المستقبل.

ومرة أخرى، سخِر التاريخ من المظاهر الصغيرة للدجل على صعيد الخيال البشري، واتبع مجراه والآن يجب التكيف مع ذلك، والتحول في الرأي ليس سهلاً ولن يكون أسهل الأعمال.

بقي تحديد أهمية الأحداث من حيث حقيقتها، وتصوّر مناسبة هذا الكتاب. ففي مقال ترك أثراً عميقاً كتب جان پول سارتر وميرلو بونتي.

«... لدى قراءة شهادات المعتقلين القدامى، لا نجد في المعسكرات السوفييتية، السادية ومذهب الموت والعدمية التي -وهي تنضم إلى مصالح محددة، تارة تتفق معها وتارة تصارعها- انتهت إلى خلق معسكرات الإبادة النازية.»

إذا رضينا بالرواية الرسمية والتي أصبحت رسمية بإجماع متآمر في الشهادات حول المعسكرات الألمانية، فيجب الموافقة أن سارتر وميرلو على حق بخلاف داڤيد روسيّه. وحينئذ نرى إلى أي حد يقود هذا، سواء أكان من حيث تقدير النظام الروسي أم من حيث النظر في مسألة المعتقلات في حد ذاتها. وهذا لا يعني في حال عدم رضانا عن تلك الرواية، أن نقول: إن داڤيد روسيّه على حق للسبب نفسه: إن سمة الأحداث القابلة للاعتراض من حيث محتواها، وبالتحديد، أنها غير قابلة للتفسيرات المعقولة.

إن خير خاتمة يمكنني أن أضعها لهذا الكتاب هو النظرة الشاملة التي

أوحى بها إلي حينئذ تضارب وجهات النظر بين داڤيد روسيّه وجان پول سارتر وميرلو-بونتي مع تجربتي الخاصة وهي كما يلي:

يمكن مواجهة داڤيد روسيّه بالحجج الملموسة الناجمة عن الفكر العملي. وهي سهلة المنال إلى حد بعيد إذ أنها تنتهي إلى التأكيد أن ليس لندائه قيمة خاصة لا في أصالته، ولا في محتواه، ولا في المسالك التي يسلكها، ولا في الناس الذين يخاطبهم، ولا في الهدف الذي يجري وراءه ولا فيما يمكن أن يأمله الناس أو يخشوه من وجهة النظر المحددة. والواقع أنه لم يخدع به أي قطاع من قطاعات الرأي: كانت المغامرة قصيرة الأمد فبعد شهرين من القيام بها لم تحظ بعطف إلا من مجلة «الفيغارو الأدبية»، أي من جمهور ١٠٠٠٠٠ من القراء الذين أتصور أن بعضاً منهم كان مشمئزاً إلى حد ما.

وإذا لجأنا إلى الفكر النظري، وآثرنا الاعتراض الفلسفي أو العقائدي، فإننا نقع في شرك الخطابة وهذا شديد الخطر. فسرعان ما تتجه الخطابة إلى السفسطة والمماحكة، بل إلى الهذيان. إن ألاعيبه مهما كانت أخاذة فهي قابلة دائماً للاعتراض، ونادراً ما تكون مقنعة. وأوهامه النظرية البحتة تنحدر إلى أقل من المعنى الذي أراد أن يعبر عنه بسبب أساليبه القاسية.

أما أفكار الحس المشترك فلديها أعباء غير تلك التي تحملها الفلسفة التقليدية، مع أن القيمة الأدنى لما هو مطلق أو مجرد.

إن للهجمة الصارخة التي قام بها داڤيد روسيّه على الملأ من خلال مقاله «أنقذوا المرحلين السوڤييت» المنشور في مجلة الفيغارو الأدبية على ثمانية أعمدة، أصداء غريبة. إن شكلها يشبه شكل كل نداءات التجمع الحربية: أنقذوا بولونيا الشهيدة، أنقذوا شعب السوديت، أنقذوا الشعب الألماني المضطهد (١٩٣٩) أنقذوا صربيا البائسة (١٩١٤)، إلخ... ويمكن الرجوع إلى الحملة الصليبية الأولى حين وعظ بطرس الناسك مستخدماً التعابير نفسها متخذاً قبر المسيح موضوعاً رئيسياً.

وبما أن عدد المعتقلين في المعسكرات في العالم، في اليونان، وفي إسبانيا، وفي فرنسا -إذا استثنينا الولايات المتحدة- كما هو في روسيا. فإن الطابع الحصري له واضح. إن الجريمة المزدوجة فاضحة والعقول ذات الخبرة لن تمتنع عن ملاحظة ذلك، ويكفي الإشارة إليها من أجل الآخرين.

إن انتهاز الفرصة لطرح قضية الأشغال الشاقة في كل مكان ولا سيما في المستعمرات، هو في حد ذاته توسع في المناقشة، مما لا ضرر منه بطبيعة الحال، بل على العكس. ومناقشة كل النظام الروسي وكل النظام الأميركي هو خروج عن الموضوع. والذهاب حتى الاختلافات التي تواجههما والعلاقات التي يحافظان عليها، والظلم الاجتماعي بصورة عامة هو تغيير لموضع المناقشة. ولن يمنع ذلك منذ الآن أن تضيع كما يتسرب الماء في الرمل، في المقالات التي لا نهاية لها حول الحرب العالمية الثالثة وحول درجات الركاب في السكك الحديدية. وهكذا بدا أنه من الثابت أن الموضوع إذا كان لا يمسّ أية منطقة جغرافية فهناك منطقة على الأقل تفرض نفسها: تلك التي كان فيها قضية المرحّلين، ومعسكرات الاعتقال والأشغال الشاقة. ضمن إطار هذه الاعتبارات التي تحدد حدود الخلاف في طرفيه، يجب الوقوف قبل كل شيء على مظاهر الرد الذي يدعم موقف داڤيد روسيّه بدلاً من أن يضعفه.

* * *

لا شك أن الهوس الذي نشأ في فرنسا منذ التحرير، من خلال بعض الروايات المشكوك في أمرها، طالما أنها، في أغلبها تفسيرات أكثر منها شهادات، أتاح للبعض الكتابة دون حرج: «.. لدى قراءة شهادة المعتقلين القدامى، لا نجد في المعسكرات السوڤييتية السادية، الخ...، الخ...؟» تلك العبارة التي مر ذكرها آنفاً.

ولكن هذا الهوس لم يؤمن راحة الضمير إلا لأولئك الذين كان لهم اتجاه سابق بوجه عام لأية ردة فعل، وبالإضافة إلى ذلك لم يعيشوا أية واحدة من

التجربتين. فمن جهة، لا يغيب عن البال أنه في فرنسا والعالم الغربي، كان الناجون من المعسكرات السوفييتية أقل بكثير من الناجين من المعسكرات النازية وأنه إذا لم يمكن القول عن شهاداتهم إنها من حيث المبدأ منبثقة عن إخلاص أو إحساس أقرب إلى الموضوعية، فلا شك مع ذلك أنها ستتضح في الزمن المناسب. ومن جهة أخرى فإن كل من عاشوا مختلطين مع الروس في معسكرات الاعتقال في ألمانيا، حملوا معهم القناعة أن هؤلاء الناس لديهم باع طويل الأمد في حياة المعسكرات.

ومن جهتي، فقد عشت ستة عشر شهراً وسط آلاف الأوكرانيين، في معسكر اعتقال دورا: وكان سلوكهم يؤكد أنهم في غالبيتهم لم يقوموا إلا بتغيير المعسكر، ولم يخفوا أن المعاملة كانت هي نفسها في كلا المعسكرين. ولا حاجة بي إلى القول إن كتاب مارغريت-بوبر-نيومان، المنشور مؤخراً لا يطعن هذه الملاحظة الشخصية بالتزوير. أما ما يتعلق بالباقي، فيجب أن نترك للتاريخ كي يقول كيف كانت المعسكرات الألمانية المصممة، هي أيضاً وفقاً لصيغة «جنات عدن الاشتراكية» أصبحت في الواقع، وفي الواقع فحسب، معسكرات إبادة.

والحقيقة حول هذه النقطة، أن معسكرات الاعتقال هي أداة للدولة لدى كل النظم التي يضمن فيها نظام القمع نظام السلطة. وبين المعسكرات المختلفة، ليس هناك بين دولة وأخرى، إلا اختلافات بسيطة تفسرها الظروف -ولكن ليس هناك اختلافات من حيث الجوهر. وفي روسيا كانت تشابه بدقة ما كانت عليها في ألمانيا الهتلرية، وكذلك ما كانت عليه في اليونان، لأنه، وبغض النظر عن التشابه الممكن أو غير الممكن في الأنظمة، وفي الحالات الثلاث، فإن الدولة في صراع مع صعوبات متساوية في شدتها: وهي الحرب في ألمانيا، واستثمار سدس الكرة الأرضية بوسائل الثروة بالنسبة لروسيا، والحرب الأهلية في اليونان.

ولو أن فرنسا وصلت، من الناحية الاقتصادية، إلى ما وصلت إليه ألمانيا

عام ١٩٣٩، أو ما وصلت إليه اليوم روسيا واليونان -وهذا ليس مستبعداً- فإن معسكرات كارير ولانوي ولاڤيرج، إلخ... الفرنسية ستشابه بدقة معسكرات بوشنڤالد وكارا غندا، وماكروميسوس. ومع ذلك ليس هناك دليل أن هناك فارقاً محسوساً بين هذه وتلك اليوم.

* * *

إن الخطأ يستتبع الخطأ ويتكاثر بالتنميق في منطق خاطئ أساساً بإثبات غير مبرر. ومن الخاص يتم الانطلاق نحو العام، ومن النظر في النتيجة إلى النظر في السبب. وهكذا كان من الطبيعي أن تتم الكتابة عن النظام الروسي كما يلي:

«مهما كانت طبيعة المجتمع السوڤييتي الحالي، فإن الاتحاد السوڤييتي قائم إجمالاً على توازن القوى، إلى جانب أولئك الذين يكافحون ضد أشكال الاستثمار المعروفة لدينا.» أو أيضاً:

«إن الفاشية تقلق البلشفية إذ أنها تأخذ شكلها الخارجي لتدمير محتواها بالتأكيد: وهو الحافز الأممي والبروليتاري. وإذا تم الاستنتاج من هذا أن الشيوعية هي الفاشية، فذلك يغطي أمنية الفاشية التي كانت على الدوام تمويه الأزمة الرأسمالية والإلهام الإنساني للماركسية.» أو أخيراً:

«وهذا يعني أنه ليس هناك أمر مشترك بيننا وبين أي نازي، وأن لنا القيم نفسها مع أي شيوعي.»

إن الاعتراض الأول لا قيمة له. إن قسماً كبيراً من الرأي العام كان يعتقد وهو يقلب معناه أن: «مهما كانت طبيعة المجتمع الأميركي، فإن الولايات المتحدة قائمة إجمالاً على توازن القوى إلى جانب أولئك الذين يكافحون أشكال الاستثمار التي نجهلها.» من أجل تبرير رأيه كان يضيف:

«وذلك بتصرفها على نحو يتضاءل فيه شعور الآخرين.»

وهكذا يتم إدراك الخطر: فإذا كان من المقبول أن أشكال الاستثمار التي

نجعلها أشد إيلاماً وأكثر عدداً من تلك التي تتمتع بميزة أنها معروفة لدينا، وإذا كان من الممكن البرهان أن الأولى هي في تقدم مستمر والثانية في تراجع أو على الأقل في مستوى ثابت، فيجب الموافقة على أن هذا القطاع الهام من الرأي العام ذو موهبة فذّة في مجال التبرير الأخلاقي. ولا سيما أنه لم يقم إلا باستعارة وسائله من أحد موقّعي الاعتراض، السيد ميرلو-بونتي، الذي كتب في أطروحته حول «النزعة الإنسانية والإرهاب» ما يلي أو ما يشابهه والذي أورده من ذاكرتي:

«إن ما يمكن أن يصلح معياراً في تقدير نظام ما، على صعيد النزعة الإنسانية، ليس الارهاب أو مظهره، وهو العنف، بل حقيقة ما إذا كان هذا النظام أو غيره في تقدم ومدعواً إلى الاستمرار أمداً طويلاً، أم على العكس، في تراجع ومدعو ألإلى الزوال بنفسه.» لماذا ما ينطبق على الإرهاب والعنف لا ينطبق على المعسكرات التي ليست سوى نتائج ناجمة عنه، والتي تشكل بعددها الدليل على الكثير أو القليل من الإرهاب وعلى الكثير والقليل من العنف؟ وبالتالي، فلماذا هذا التمييز لصالح روسيا؟ وهذا بدلاً من إتاحة تقدير كم كان من الحكمة والالتزام بالتقاليد الاشتراكية أن تتم الغلبة على داڤيد روسيّه، بالوقوف ضد كل أشكال الاستثمار، سواء أكانت معروفة منا أم مجهولة.

الاعتراض الثاني داخل بصورة الجدل الشكلي الكامل أو ما يطلق عليه القياس في المنطق، وهذا ناشئ عن الغموض في المصطلحات: «إن الفاشية تقلق البلشفية» الحد الأكبر للقياس، «وإذا تم الاستنتاج من هذا أن الشيوعية هي الفاشية» المتابعة في الحد الأصغر للقياس... ولو جاء هذا على لسان أحد المتفاصحين من الدرجة الثانية، فلن يجلب هذا التلاعب بالمصطلحات سوى هز الأكتاف والإهمال، ولكنه حينما يأتي من ميرلو-بونتي وجان بول سارتر، لا يمكن الامتناع عن التفكير بقواعد الالتزام بالنزاهة وبتشويه الحقائق التي قاما بها.

إن الذين يزدرون البلشفية هم الذين يشبهونها بالفاشية ولكنهم لا يتعرضون

الشيوعية. وهم لا يفعلون ذلك إلا من حيث نتائجها، وهم يحتاطون في تحديد الفاشية بسماتها والموضوع ليس أكثر من قلق أمام البلشفية.

وهذا يعني أنه إذا أردنا إعادة ترتيب الجملتين لتتم استقامة المصطلحات، فإن النتيجة تختلف من تلقاء ذاتها، فلا يبقى مجال للجدل الشكلي أو القياس إلا اكتمال شكله. وإذا أردنا إقامة قياس حول الموضوع فلن يصلح إلا التالي:

١- إن الفاشية والبلشفية مثار قلق للشيوعية (أو الاشتراكية) التي تأخذ طابعها الخارجي -ألم يكن هتلر يتحدث عن القومية الاشتراكية، وألا يستمر ستالين في الحديث عن الاشتراكية في بلد وحيد؟- من أجل التدمير الأكيد لمحتواها: وهو الحافز الأممي والبروليتاري.

٢- وإذا تم الاستنتاج أن الفاشية والبلشفية هما الشيوعية (أو الاشتراكية)،

٣- فإن هذا يغطي أمنية الفاشية والبلشفية وهي تمويه الأزمة الرأسمالية والإلهام الإنساني للماركسية.

ومن خلال ذلك، إذا أردنا دحض مطابقة الفاشية للبلشفية المطروحة ظاهرياً من حيث المبدأ، فإن ذلك يستتبع أموراً أكثر جوهرية ذكرها جيمس بورنهام، متخذاً وحدات قياس أخرى، في كتابه «زمن المنشئين» (سلسلة حرية الفكر صفحة ١٨٩ وما بعدها).

ولن أقول شيئاً عن الاعتراض الثالث الذي يصيد على ما يبدو، في المياه العكرة نفسها لغموض المصطلحات، إلا إذا كان كاتباه يودان القول: «إن لنا القيم نفسها مع أي بلشفي» وهذا ما أرادا قوله. ولن أقول شيئاً أيضاً عن هذا التأكيد المزوج بشكل عجيب في المناقشة والتي نجم عنها أن الشيوعية الصينية «وحدها قادرة على إخراج الصين من الفوضى والبؤس المتأصل اللذين تركتها بهما الرأسمالية الأجنبية». ولا عن الاشتراك المفتوح من صحيفة «لو موند» لئلا يقال

أنها غير شاعرة ببؤس العامل الشيوعي، ولا عن كهرية الاتحاد السوفييتي، ولا عن المناقشات المثمرة مع العمال المارتينيكيين، ولا... ولم لا أقول عن أهرامات مصر، أو الجاذبية الأرضية؟ وإذا أكثرنا من الإلحاح، فربما انتهينا إلى الوقوع في البحث عن أحسن تحوّل والخضوع لإغراء إعادة كتابة «بؤس الفلسفة» وفقاً للظروف المستجدة.

* * *

بقيت مأساة الرأي العام الراديكالي الذي لا يجد إمكانية للاهتمام بقضية المعتقلين في المعسكرات من خلال هذه المناظرة، إلا بالمشاركة في الإعداد الفكري للحرب العالمية الثالثة، إذا اتبع الجانب الأول، أو العودة إلى البلشفية عن طريق الانحياز إلى السفسطة إذا اتبع الآخرين.

وبما أن صحيفة «الفيغارو الأدبية» وداڤيد روسيّه وضعا نفسيهما موضع الدونية بالبدء بتوجيه سهامهما، فقد كانا يوفران أفضل الفرص لضمه تحت لوائهما. بيد أنه لم يكن هناك فرص كافية للنجاح بالبقاء على الأرض التي اختاراها إلا بمعرفة: الوسيلة والبواعث.

الوسيلة هي حماقة في حد ذاتها. فمن جهة، لن يقبل الكرملين مطلقاً أن تتجول لجنة تحقيق حول الأشغال الشاقة بحرية على الأراضي السوفييتية. ومن جهة أخرى، لا يمكن لأية مساعدة جدية أن تذهب إلى معتقلي المعسكرات الروسية طالما بقي النظام الستاليني على قيد الحياة. وأنا لا أمل لي في رؤية زوال هذا النظام إلا من خلال ثلاثة احتمالات: إما أن ينهار من نفسه (وهذا ما حدث من قبل في التاريخ: انهارت اليونان القديمة قبل أن يفتحها الرومان)، أو أن يغرق في ثورة داخلية، أو، وأخيراً، أن يتلاشى في حرب. وبما أن روسيا في قمة ازدهارها الصناعي، وتبدو أنها تتحكم بطموحاتها وفقاً لمواردها، فإن الأمرين الأولين مستبعدان تماماً ولفترة طويلة، ولم يبق سوى الأمر الثالث: وهو ضعيف بالنسبة

لي، والتجربة التي يتباهون بها بالانتصار على هتلر، تكفيني.

إن توسع داڤيد روسيّه منذ أمد قصير -ولا سيما منذ الغداء الذي أقامته له الصحافة الأنغلو-أميركية- في بعثة التحقيق لتشمل كل البلدان التي يمكن أن يوجد فيها معسكرات اعتقال، لا يبدّل شيئاً لا في طابع القضية ولا في معناها؛ هناك العنوان الذي يبقى قائماً في مكان الجريمة: «أنقذوا المرحلين السوڤييت». ومن جهة أخرى، لا اليونان، ولا إسبانيا، ولا حتى فرنسا! لن تقبل في أن يأتي من «يتجسس» لديها تحت غطاء التحقيق حول الأشغال الشاقة؛ يجب أن تنطلق المبادرة من منظمة الأمم المتحدة، ويجب أن تكون مدعومة بالتهديدات بالإبعاد لأولئك الذين لا يريدون الخضوع، وهذا ما لا يمكن إدراكه، إذ لن يبقى فيها أحد، إلا سويسرا التي ليست عضواً فيها.

ومن جهة أخرى، فكل ذلك مؤسف كل الأسف، إذ لن يعلم أحد قط إلى أي موضع وعلى أية مساحة ستقدم «الفيغارو الأدبية» تقريرها عن أعمال لجنة التحقيق الذي يستهدف بلداناً أخرى غير روسيا.

لا يمكن رؤية البواعث بوضوح إذا لم نعلم أن «الفيغارو الأدبية» هي الصحيفة التي كتب فيها كلود مورياك مشيراً إلى مسرحية، منذ أمد قصير:

«إن التعذيب، والاحتلال، والترحيل، ما تزال أقرب إلينا من أن نستطيع أن نتحدث بلهجة موضوعية.» (تشرين الأول ١٩٤٩).

وتفسير هذا واضح: يمكن أن نقول ما نشاء إذا كانوا روساً، وأقل بقليل (الآن) إذا كانوا ألماناً، ولا شيء إذا كانوا يونانيين أو إسبانيين أو فرنسيين.

كما لا يمكن رؤيتها أحسن إذا لم تكن لدينا فكرة مجملة عن أعمال داڤيد روسيّه. ففي كتابه «عالم المعتقلات» قدم معسكرات الاعتقال وكأنها ناجمة عن مشكلة النظام، ولقي هذا الأمر نجاحاً. وبعد ذلك في كتابه «أيام موتنا» وفي كتابات عديدة متفرقة، التزم، على نحو خاص، بتوضيح ومديح سلوك الموقوفين

الشيوعيين مفصلاً وقائع غير مسؤولة، لم تتمكن من أن تجد لدى الجمهور تلك الثقة العمياء التي ولدت من الحرب بسبب الاضطراب والغموض. وخاطر في إحدى المرات، وبوثيقة واضحة من خلال مختاراته «المهرج لا يضحك» بأن يتهم ألمانيا وحدها. ومع ذلك لم يكن يستطيع أن يتجاهل المعسكرات الروسية وقد قيل إن وثائق مترجمة عن الروسية كانت تباع في المكتبات في العامين ١٩٣٥-١٩٣٦، والتي لم يأل وجودها جهداً في أن يصل إليه في زمن سابق لذلك حيث كان يناضل في صفوف التروتسكية. وهكذا فهو، قصداً، ساهم بفاعلية في خلق هذا الجو على الصعيد الداخلي. إن كتاب «قبّلنا يا ڤولڤيل» أتاح للبلشفية التي يتم تمويه إساءاتها في روسيا أو السكوت عنها، أن تتسلق إلى السلطة في فرنسا. وعلى الصعيد الخارجي، ساهم في تعميق الهوّة أكثر بين فرنسا وألمانيا.

ولدى اكتشافه المعسكرات الروسية من خلال كشف حسابها المعروف، لم يتأخر عن اتباع حركة الانتقال الجانبية التي تُعدّ الطابع المميز الأساسي للسياسة الحكومية منذ رحيل فريق توريز. إن اتجاهه اليوم هو متابعة منطقية لاتجاهه بالأمس، ومن الطبيعي أنه بعد أن زوّد الثلاثي البلشفي بالمبرر، قام بتزويد الأنغلو أمريكان بالقاعدة الإيديولوجية التي لا غنى عنها من أجل الإعداد المناسب للحرب. ولم يأل كلٌ من «*الفيغارو الأدبية*» وداڤيد روسيّه جهداً بالانتهاء إلى اللقاء؛ ويكفي أن نلاحظ، وكلاهما يساند الآخر، أن مداخلتهما المتفق عليها والتي أتت بعد الشهادات الأصلية لڤيكتور سيرج، ومارغريت نيومان، وغي ڤيناتريل وكتاب صديقي ڤاسيا، إلخ... لا تزيد شيئاً على المناظرة، ولا تأتي بجديد أكثر سوى بشهادة عن أحداث لم يعشها أصحابها، ولا تفعل سوى تسجيل إفلاس سياسة لمصلحة سياسة أخرى ستفلس حتماً، إذا لم يكن ذلك أمام أعيننا، فأمام التاريخ على الأقل.

يُضاف إلى عناصر عدم الثقة هذه والناجمة أولاً عن ماكياڤيليه -إحدى

الصحف، وثانياً عن قابلية أحد الرجال على تكييف سلوكه وفق رغبات السادة المتحكمين في تلك اللحظة في مختلف الأوساط التي تعده، كل بدورها في عداد رعاياها؛ يضاف إلى تلك العناصر ما ينشأ خلال التجربة. عام ١٩٣٩، وفي الأعوام التي سبقته، تم توضيح الابتزازات، بالأسلوب نفسه عن ألمانيا الهتلرية. وفي الصحافة، لم يكن غيرها هو الشغل الشاغل. وتم نسيان كل ما تبقى من المشاكل: و لم يشك أي فرد أنهم بذلك كانوا يعدون للحرب إعداداً أيديولوجياً، تلك الحرب التي كانوا يعتقدون أنهم مستعدون لها مادياً.

وفعلاً، فقد صنعوا الحرب...

واليوم، في الصحافة كلها، لا شغل إلا في ابتزازات روسيا السوفييتية على صعيد النزعة الإنسانية، وروسيا السوفييتية حصراً. ونسوا كل ما بقي ولا سيما القضايا المطروحة حول الممارسة الممتدة إلى اللا نهاية لمعسكر الاعتقال باعتباره وسيلة حكومية. إن الأسباب نفسها تنتج النتائج نفسها.

والرأي العام الراديكالي، وقد تخلى عن الأوهام التي كانت تقال له عن المعسكرات الألمانية، بسبب الشكل الذي كانت تطرح عليه المعسكرات الروسية من هنا وهناك، والصمت عن المعسكرات الأخرى، أصبح يدفع كل هذه الأمور وبدا كأنه ينتظر أن يلمس بيديه، وأن تتم مخاطبته بلغة موضوعية.

وفي هذا الصدد، ليست اللغة الموضوعية بحاجة إلى الكثير من الاحتياطات، ولا الكثير من الكلمات. إن وضعية معسكرات الاعتقال، والأشغال الشاقة والترحيل لا يمكن دراستها إلا على الصعيد الإنساني وفي إطار تحديد العلاقات بين الدولة والفرد. في كل البلدان، توجد المعسكرات بالقوة، أو هي هناك لتبدل زبائنها وفقاً للظروف وحسب مشيئة الأحداث. وجميع الناس مهددون بها في كل مكان. وبالنسبة لهؤلاء المسجونين بها، لا حظّ لهم بالخروج منها إلا في الحال التي يتهيأ من هو خارجها إلى الدخول إليها.

هذا التهديد هو الذي يجب التمرد عليه، والمعسكر نفسه، وبحدّ ذاته، هو ما يجب استهدافه، بغضّ النظر عن المكان الذي يوجد به، والغايات التي يستخدم من أجلها، والأنظمة التي تستخدمه. وبالصورة نفسها التي تستخدم ضد السجن أو عقوبة الإعدام. إن كل تخصيص، وكل عمل يشير بالعقاب إلى أمة دون أخرى، ويسمح بالمعسكر في حالة ما، سواء أكان ذلك عن قصد، وعن إهمال محسوب أم لا، فإنه يضعف النضال الفردي والجماعي من أجل الحرية، ويحرفه عن اتجاهه، ويبعدنا عن هدفه بدلاً من أن يقرّبنا منه.

ومن هذه الزاوية، سيأتي يوم يُحسب فيه الخطأ الذي تم في قضية حقوق الإنسان حين قبلت الجمهورية الرابعة أن تزرب في المعسكرات المتعاونين مع سلطات الاحتلال أو الذين اعتبروا كذلك، كما حصل مع المنشقّين عام ١٩٣٩، ورجال المقاومة خلال الاحتلال.

وللمحافظة على هذا النهج، يجب بطبيعة الحال الاهتمام بشكل كاف بأن يكون المرء مصنفاً في الفئة المعادية للستالينية أو المعادية لأميركا، وينبغي له السيطرة على نفسه ليفرق في فكره النظام السوفييتي عن مفهوم الاشتراكية، والنظام الأميركي عن مفهوم الديمقراطية: وإذا كان أحد النظامين أقل سوءاً من الآخر فهذا لا يقبل النقاش ولكنه يثبت فقط أن الجهد الذي ينبغي بذله سيكون أكبر في جانب دون الآخر من الستار الحديدي.... وليس من الوفاء بالنسبة للمرحلين القدامى أن لا يتم سوى وضع الرأي العام أمام الاختيار بين موقعين أيهما أسوأ، أو بين موقعين أيهما أحسن، إن أمانة النخبة لتقاليدها هي في تحديد نفسها من خلال رسالتها الخاصة بها، وليس في إتمام رسالة الآخرين.

ماكون، ١٥ أيار ١٩٥٠

مقدمة المؤلف
للطبعتين الثانية والثالثة

«ليست أسلحة العدو قاتلة بمقدار الأكاذيب التي يملأ بها زعماء الضحايا العالم؛ إن النشيد الحاقد للعدو أقل بشاعة لدى الأذن من العبارات التي تنهال وكأنها لعاب مثير للاشمئزاز في كتب النادبين»

مانيس سپيربر

(وأصبح الدغل رماداً)

لقد سبق لجزأي هذا الكتاب أن نُشرا ولكن كلاً منهما كان على حدة.

الجزء الأول، أو التجربة المعاشة (اجتياز الخط) عام ١٩٤٩

والجزء الثاني، أو تجربة الآخرين (ترّهات أوليسيوس، بحصر المعنى) عام ١٩٥٠، على شكل دراسة نقدية لأدب معسكرات الاعتقال: وكنت قد فكرت أنه من المناسب في موضوع في مثل هذه الحساسية، أن أدلي بالحقيقة على دفعات صغيرة. ومن خلال هذا التنظيم الفكري حاول بعضهم انتهاز الفرصة ليطرح الشك حول نواياي: وإذ تم استقبال «اجتياز الخط» بالترحاب، بصورة عامة، ولم يثر سوى صرير الأسنان الصماء ودون عاقبة، من جهة، فإن «افتراءات أوليسيوس» أتاحت، في الواقع، فرصة لحملة عنيفة من الصحافة انطلقت من منبر الجمعية الوطنية نفسها.

وفي الوقت نفسه تمت إحالتنا، ألبير باراز، كاتب المقدمة، والناشر، وأنا شخصياً إلى محكمة الجنح، حيث تم إخلاء سبيلنا ثم إلى محكمة الاستئناف حيث تمت إدانتنا(١)، على الرغم من أن المحامي العام كان إلى جانبنا والتمس التأكيد

١- السجن مع وقف التنفيذ، وغرامة ١٠٠٠٠٠ فرنك و٨٠٠٠٠ فرنك أضرار ومصالح.

المطلق لحكم محكمة الجنح.

وكان الآن على محكمة النقض أن تحسم الخلاف، ولكن الرأي العام كان قد تم تضليله من خلال الإعلام المنحاز إلى جهة واحدة، والذي كان أيضاً لا ينزع إلى الدخول في المهاترات، فأصبح لا بدّ من إيضاح الظروف الغامضة له والتي خلقت مناخ هذه القضية. وبهذا يمكن ضرب عصفورين بحجر واحد، إذ أنه في الوقت نفسه، لا يمكن التقصير في وضع وثائق الإثبات أمام أعين القارئ(١).

ولدى تصاعد النقاش حول العفو بشأن كتاب «ترّهات أوليسيوس» الذي كان يبرره بطريقته، فقد تم استقبال القضية من بعضهم على أنها قضية سياسية، ومن هذه الزاوية تمت محاولة إعطائها هذا الطابع حصراً.

ومن سوء المصادفات أن المقدمة التي كتبها ألبير باراز كانت تحتوي عبارة، يصعب الدفاع عنها أمام القضاء تتعلق بظروف توقيف وترحيل السيد ميشليه الذي كان آنذاك نائباً وزعيماً برلمانياً لتجمع الشعب الفرنسي (وهو الحزب الديغولي(٢): ذلك أن السيد غيران الذي كان نائباً منتمياً للحركة الجمهورية الشعبية عن مدينة ليون تمسك بالأمر، ليس من أجل الاحتجاج على نشر الكتاب،

١- قررت محكمة النقض براءتنا.

٢- سحب السيد ميشليه، بما أوضح كل منا موقفه للآخر، الشكوى ضدنا، وهذه العبارة تم حذفها من هذه الطبعة، ومن أجل قطع الطريق على أية محاولة أخرى في استغلال الموضوع، وبناء على اقتراحه، فقد تم حذف مقدمة باراز برمتها. وذلك فقط من أجل تجنب أي استغلال جديد، إذ أنه طالما أن محكمة النقض فقد نطقت بحكمها، فليس هناك ما يمنع نشر هذه المقدمة التي تحميها حصانة الأمور التي صدر حكم فيها. ولم يعتقد الكاتب أن عليه الخضوع إلى صيحات الاستنكار التي أطلقتها حفنة من المنتفعين وذلك بإدخال تعديلات أخرى على النص.

على الرغم من أنه تظاهر بذلك بكل مهارة، بل ليحاول نزع الثقة بأحد المنتمين الرئيسيين إلى الحركة ممن يشكلون له منافسة انتخابية خطيرة. وهكذا تم استثمار كتاب «ترهات أوليسيوس» من حركة سياسية ضد أخرى، وهذا ما يدخل اليأس إلى نفس المؤرخ...

ومن خلال هذا الحادث المتعلق بتدخل السيد غيران، أضيف العمل خارج المجلس النيابي بهدف الاستيلاء على الرأي العام. وقد صنفني نائب ليون على منبر الجمعية الوطنية بين «المسؤولين عن التعاون مع المحتل والمدافعين عن الخيانة(١)». وهتف بلهجة مؤثرة:

«يبدو، أيها الزملاء الأعزاء، أنه لم توجد قط غرف الغاز في معسكرات الاعتقال... هذا ما يمكن قراءته في هذا الكتاب.» (الجريدة الرسمية، ٢ تشرين الثاني ١٩٥٠- المناقشات البرلمانية).

والواقع أن السيد غيران لم يقرأ الكتاب!

وكذلك لم يقرأه كل أولئك الصحفيين الذي يعيثون فساداً بارتجالهم من خلال إحدى حركات المقاومة للتحرير(٢)، فقد اتخذوا الموضوع وجعلوني أقول أموراً غير

١- في الواقع، كان الكاتب في عداد مؤسسي حركة المقاومة في شمالي فرنسا، ومؤسس الصحيفة السرّية «الجمهورية الرابعة» التي حازت على ثقة إذاعتي لندن والجزائر في ذلك الحين؛ وتم ترحيله مع رجال المقاومة (مدة تسعة عشر شهراً) إلى معسكري بوشنفالد ودورا. عاجز بنسبة ١٠٠٪ +٥ درجات، يحمل بطاقة المقاوم رقم ١٠١٦٠٠٧٠، والميدالية الفضية المذهبة للعرفان الفرنسي، ووسام وردة المقاومة اللذين لم يحملهما قط، وذلك لم يحرمه لا من حب الحقيقة، ولا من الشعور بالموضوعية.

٢- ذلك أن وحدة المقاومة أسطورة، كما كانت أسطورة وحدة الثورة الفرنسية. لم تكن هناك حركتان للمقاومة، بل عدة حركات ولم يعد أحد ينكر ذلك اليوم، إلا إذا كان منتفعاً من وراء ذلك! وهناك أيضاً حكم الرعاع الذي يرتاح إلى الاختفاء خلف هذا اللقب!

معقولة.

وطلبت ثلاث روابط للمرحلين الذين أعيدوا، وهم من ضحايا الاحتلال الألماني، من محكمة الجنح في بورغ-آن-بريس، أن توعز بمصادرة الكتاب وإتلاف النسخ المعروضة للبيع، وأن تحكم علينا متضامنين أن ندفع مبلغاً جسيماً مقداره مليون فرنك مقابل الأضرار والمصالح. وقد استنكفت لجنة عمل المقاومة، بفطنتها، عن أية تظاهرة عدائية، ليس بسبب عدم رغبتها في ذلك، بل خشية أن تتعرض للسخرية. والحزب الشيوعي بعد أن خطط للهجوم، وجد في الوقت المناسب أن ذلك قد يعرض بعض أعضائه مثل مارسيل پول، كازانوڤا، والعقيد مانس، الخ... إلى وضع محرج، فعمل على انسحاب حكيم. ولكن الحزب الاشتراكي الذي مثلته في المجلس النيابي، وبعد أن كنت خلال سنين طويلة قائداً لأحد اتحاداته المحلية، قام بفصلي من صفوفه «على الرغم من الاحترام الذي يفرضه شخصي» كذلك قال الحكم الذي نقلته إلى اللجنة الإدارية(١).

كانت هذه أولى المناوشات لهجوم قليل الشأن غير ناجح. وسوء النية الذي كان يتسم به، لم يكذب نفسه فيما بعد.

* * *

تولّى السيد لويس مارتان-شوفيه، الذي رقص على حبال أكثر الحركات الفكرية خلال نصف قرن، قيادة الموجة الثانية للهجوم.

ذلك أني كنت قد أشرت عرضاً إلى إحدى شطحات قلمه، فوجد نفسه مضطراً إلى تصحيحها بشطحة أخرى (انظر الفصل الثالث من الجزء الثاني)،

١- تقدم اتحادان محليان ومارسوپيڤير بطلب إعادتي إلى الحزب في المؤتمر المنعقد في تشرين الثاني ١٩٥١، وتم رفضه بعد مداخلة من دانييل ماير وغي موليه.

وأن يعود إلى موضوع السيد غيران ويبرهن مرة أخرى أنه لا يتقن القراءة.

«يؤكد پول راسينيه، أن كل المرحلين كاذبون، كما ينكر وجود غرف الغاز.»
كذلك كتب في مقدمة مقال بعنوان «مزيّف ونمّام يتم القبض عليه بالجرم المشهود» (مجلة دروا دي ڤيڤر، ١١/١٥ و١٥/١٢/١٩٥٠). وكان من الممكن أن أحصل على تعويض مجز من أية محكمة جنح لو شعرت برغبة في ذلك.

وكان حامل لواء الموجة الثالثة هو السيد ريمي رور من خلال هذه العبارات :

"إن راسينيه هذا يصف معسكر برشنفالد كالتالي :

جميع الأبنية منظمة هندسياً وبشكل مستحب على الهضبة، وهي متصلة بعضها ببعض بواسطة شوارع إسمنتية: وهناك سلالم إسمنت ذات درابزين تؤدي إلى الأبنية الأعلى. وأمام كل بناء عرائش ذات نباتات متسلقة، وجنائن صغيرة مفروشة بالزهور – وهنا وهناك ساحات دائرية فيها نوافير مياه وتماثيل. وساحة التفقد التي تبلغ مساحتها نصف كيلو متر مربع، مبلّطة كلها و نظيفة بحيث لا تضيع فيها إبرة. وهناك حوض سباحة مركزي مع شرفة للغطس، و أرض للرياضة، وظلال ظليلة حسب الرغبة، إنه معسكر حقيقي من أجل قضاء العطل، وأي عابر يمكن استقباله في غياب السجناء يخرج منه مقتنعاً أنهم يمارسون حياة ممتعة، ملأى بشاعرية الغابات وخارج أي نطاق مشترك مع الحرب التي هي من نصيب الرجال الأحرار . . .

" إنني أنادي رفاقي في بوشنفالد، هل سيتعرفون على معسكرهم ؟ "

(صحيفة فورس أوفريير، الخميس ٢٥ كانون الثاني ١٩٥١)

يمكن للسيد ريمي رور أن ينادي رفاقه في بوشنفالد : فهذا لا يوجد في كتاب "ترهات أوليسيوس". ولدى وقوعه بالجرم المشهود أمام محكمة جنح بورغ–آن–برس، اعتذر وأراد تسوية الأمر (صحيفة لوموند، ٢٦ نيسان) بأنه لم يقرأ الكتاب، بل روي عن لساني ما سمعه عن موريس بارديش. و الواقع أن

موريس بارديش قد ذكر فعلاً هذا المقطع في كتابه "نورمبورغ ٢" و قد اقتبسه من الجزء الأول من كتابي (أي اجتياز الخط) حيث ورد ليعطي فكرة عن التجهيزات المادية في معسكر دورا في نهاية المطاف و ليس في معسكر بوشنفالد، و قد أورد ذلك بصدق، فلم يكن يسعى لتحريف معناه أو عزله عن محتواه.

و أضيف، مهما كان رأي السيد ريمي رور أنه في غياب السجناء – و أكرر : في غياب السجناء ! – كان معسكر دورا يطابق تماماً الوصف الذي قمت به، و يوافق على ذلك كل من رآوه. و حينما يعود السجناء بعد عناء يوم طويل من العمل، كانت الإدارة الذاتية للمعتقل تضفي عليه مظهراً آخر؛ أما ما سبق، وماتلا المقطع الذي يلومونني عليه بلا تروٍّ، و الذي لجأ السيد ريمي رور من أجل احتياجات القضية التي يتبناها إلى إبدالها، بكل مهارة، بثلاث نقاط، فقد عبّرت بوضوح عما أريده.

وأنا أعذر السيد ريمي رور، بطيبة خاطر، على هذا العمل السيء إذ أنه أورد في المقال نفسه مايلي :

" . . . إن أطر معسكر الاعتقال، أي شرطة مراقبة العمل، ورؤساء الأبنية، ورؤساء الزمر، ورؤساء الغرف، و جميعهم من السجناء، كانوا يعيشون من خلال الموت البطيء لرفاقهم."

وهذه هي إحدى أفكار كتاب "ترّهات أوليسيوس، التي تم تبريرها بصورة واضحة، وهو تماماً ضد ما كتبه حتى الآن كل مأجوري أدب المعتقلات و على رأسهم دافيد روسيه. و لكني أطرح هذا السؤال : هل ما اعتبر وشاية وقذفاً جاء عن لساني، يعدّ كلام إنجيل و جديراً بالاحترام إذا جاء عن لسان السيد ريمي رور؟ ؟ أم أنه لا يغفر لي أني كنت أول من حاول إخراج هذه الحقيقة البشعة من مكامنها ؟

* * *

أضـرب صـفـحـاً عن المقـالات اللاذعـة المسـتلهـمـة من روابط المرحّلين و التي، حرصاً منها على إبقاء الرأي العام في حال من اليقظة، كانت بعض الصحف مثل الفرانك تيرير، و الأوب، و الأورور، و الفيـغـارو و غيـرها . . . تنشـره بالتـواطؤ كل ثمانية أو خمسة عشر يوماً : وقد وصل بها الأمر من الاستهتار بالموضوعية أن أصبح عنوان الكتاب : "أسطورة معسكرات الاعتقال . . . "

و في آذار، أخذ الهجوم الذي شنّوه ضدنا يلهث حتى الهذيان.

أحد صغار المعوزين من الصحفيين كتب في صحيفة: "لوبروغرية دي ليون" وهو يسند إليَّ الموضوع بسخاء : "التعذيب أسطورة ! أفران حرق الجثث أسطورة ! الإعدام بالكهرباء أسطورة ! الموت بالعشرات أسطورة !"

حتى السيد جان كريهر نفسه، وهو المحامي الذي اختارته روابط المرحّلين، مدّ يد المساعدة في صحيفة "لو ريسكابيه" لسان حال المرحّلين، بما بدا له يسيل من نبع دراستي:

"لأنه إذا كنا نبتلع النقانق، والزبدة الفاخرة، إذا كـانت كل الأمور مـهـيـأة لتبذل لنا العناية و الترفيه الضروريين، و إذا كانت محرقة الجثث مؤسسة تقتضيها الصحة، و إذا كانت غرف الغاز أسطورة، وإذا، وبكلمة واحدة، كان رجال الشرطة العسكرية كانوا في منتهى الكياسة تجاهنا، فممّ نشكو ؟"

والقارئ سيقرر بنفسه، إذا كان هذا ما يستنتج مما كتبته. وهكذا ذهبت جهود كل هؤلاء الناس أدراج الرياح، إذ أن "الحقيقة" التي أرادوا غلبتها لم تتغلب، وفقدان الثقة الذي حاولوا جهدهم أن يرمونا به ارتدّ اليوم عليهم، هذا عدا الفشل الذريع الذي كبدتهم إياه محكمة النقض. و في مجلة الفيغارو الأدبية الصادرة في ٩/١٠/٥٤، طرح السيد أندريه روسّو الذي كان يشيد وبلا تمييز بكل مأجوري أدب المعتقلات، و لعله كان على ما يبدو تحت تأثير الشعور العام، طرح هذا السؤال:

"ولكن، بالنسبة للناجين من الجحيم، ألم يصبح حـال المرحّلين القـدامى، و بسرعة زائدة، مثيلاً لحال المحاربين القدماء في كل الحروب ؟ إذ أن الضحايا أكثر من الشهود."

هذه الطريقة في التعبير التي لا تأخذ شكل السؤال على نحو ظاهر إلا من حيث الاحتياط في الأسلوب هي أمام التاريخ، حكم مجمل دون استئناف و أكثر وضوحاً من حكم محكمة النقض على كل هذه الشهادات الموجهة و المغرضة في آن واحد ضد الشهادة التي كنت أول من استرعى نظر الجمهور إليها.

ولكن – واأسفاه – جاء هذا متأخراً إلى حدّ ما. إن أدباً مثيراً للشبهة كما كان عليه أدب المعتقلات في إيحاءاته نفسها، و أدباً لا يأخذه أحد اليوم على محمل الجد و سيكون يوماً ما وصمة عار في جبين عصرنا، قام خلال سنوات بتزويد مبادئه الأساسية إلى علم الأخلاق (الذي كان موضع تقريظ البلشفية – و لهذا أهميته !) و إعطاء السياسة ضمانته (والتي كانت اللصوصية التي تبررها المصلحة العليا – و هذه بطبيعة الحال ناجمة عن تلك).

* *

و الآن إليكم لبّ المناقشة التي يجعلها أحد الأمثلة أسهل منالاً . . .

ظهرت حديثاً في المجر شهادة جديدة حول معسكرات الاعتقال الألمانية، وتولت مجلة (ليه تان مودرن) تعميمها في فرنسا؛ وهي بعنوان : قائد الشرطة العسكرية، الدكتور مينجيلي من تأليف الدكتور نيستلي ميكلوس، وهو يتعلق بمعسكر أو شفيتز–بيركناو.

أول ما يخطر على البال أن هذه الشهادة لم تكن لتظهر إلا بعد موافقة ستالين بواسطة الشخص الوسيط من أمثال مارتان–شوفيه الموجودين هناك الذين تمتد صلاحياتهم كرؤساء أجهزة بحيث تسمح لهم بمنع كتب مثل ترهّات أوليسيوس

من أن ترى النور.

هذا الكتاب مثير للشبهة فقط لهذا السبب.

ولكن المشكلة ليست هنا.

فمن خلال أمور أخرى يزعم الدكتور نيستلي ميكلوس أنه يوجد في معسكر أوشفيتز-بيركناو أربع قاعات للغاز، طول كل منها ٢٠٠ متر (لم يحدد عرضها) وهذه القاعات مزدوجة بأربع قاعات أخرى لها الأبعاد نفسها من أجل تهيئة الضحايا. وهذه القاعات كانت تخنق ٢٠٠٠٠ شخص كل يوم، وأن هناك أربعة أفران لحرق الجثث، في كل منها ١٥ موقداً، في كل موقد ثلاثة محلات لحرقهم تدريجياً. ويضيف أنه فضلاً عن ذلك كانت تتم إبادة ٥٠٠٠ آخرين يومياً بوسائط أقل حداثة ويحرقون في موقدين هائلين في الهواء الطلق. ويضيف أيضاً، أنه خلال سنة واحدة حضر شخصياً هذه المجازر.

إني أزعم أن كل هذا، وبوضوح، غير صحيح وفي الحال التي لم يكن فيها مرحّلاً، فقليل من الحنكة تكفيه لإنشاء مثل هذه الشهادة.

في الواقع، تم بناء معسكر أوشفيتز-بيركناو منذ نهاية عام ١٩٣٩، وتم إخلاؤه في كانون الثاني ١٩٤٥، وإذا أردنا الاعتقاد بما قاله الدكتور نيستلي-ميكلوس، حول قتل ٢٥٠٠٠ شخص يومياً، فيجب الموافقة أنه خلال خمس سنوات تم قتل ٤٥ مليون شخص، كما تم حرق ٣٦ مليوناً منهم في الأفران الأربعة بعد الخنق، و٩ ملايين تم حرقهم في موقدي الهواء الطلق.

وإذا كان من الممكن تماماً استطاعة قاعات الغاز الأربع خنق ٢٠٠٠٠ شخص يومياً (٣٠٠٠ شخص في الفرن الواحد، كما يقول الشاهد)، فلا يمكن لأفران حرق الجثث الأربعة أن تحرقها بالتتابع، حتى ولو كان لها خمسة عشر موقداً ذات ثلاثة محلات، وحتى لو كانت العملية لا تحتاج إلى أكثر من ٢٠ دقيقة كما يزعم الدكتور نيستلي ميكلوس وهذا أيضاً غير صحيح.

فلو أخذنا هذه الأرقام قاعدة، فإن استيعاب كل الأفران التي تعمل في آن واحد لا يتجاوز ٥٤٠ في الساعة أي ١٢٩٦٠ في اليوم. وعلى هذا المنوال، لم يكن من الممكن إطفاؤها إلا بعد بضع سنوات من التحرير. طبعاً بشرط ألاّ تضيع ولا دقيقة خلال عشر سنوات؛ وإذا طلبنا المعلومات من مقبرة «بيرلاشيز» حول المدة التي يستغرقها حرق ثلاث جثث في موقد واحد، لرأينا أن أفران أوشفيتز ما تزال تلتهب حتى الآن وموعد انطفائها ليس قريباً.

وأتجاوز عن الموقدين في الهواء الطلق (اللذين قال عنهما كاتبنا أن طول كل منهما ٥٠ متراً وعرضه ٦ أمتار وعمقه ٣ أمتار) واللذين تم حرق ٩ ملايين جثة فيهما خلال خمس سنوات....

هناك أيضاً استحالة أخرى، على الأقل فيما يتعلق بالإبادة بواسطة الغاز: إذ أن كل من عكفوا على هذه المشكلة اتفقوا على البيان أنه «لدى المعسكرات النادرة حيث كانت توجد غرف الغاز (أوجين كوغون) لم تكن هذه الغرف في حال تسمح لها بالعمل إلا في آذار ١٩٤٢ وأنه منذ أيلول ١٩٤٤، صدرت أوامر، لم يجدها أحد، تمنع استخدامها للاختناق، وعلى النمط الذي تقدم به الدكتور نيستلي ميكلوس، يصل العدد أيضاً إلى ١٨ مليون جثة في السنتين والنصف هاتين، وهو رقم لا نعلم أي ضلوع في الرياضيات جعله السيد تيبور كريمر، مترجم الكتاب إلى الفرنسية، بالقوة ستة ملايين(١).

وأطرح الآن هذا السؤال الجديد والمزدوج: ماهي الفائدة التي يمكن الحصول عليها بالمبالغة إلى هذا الحد بدرجة الرعب و ماذا كانت نتيجة هذا الأسلوب بمعالجة الموضوع ، الذي كان عاماً؟

١- كتبت إلى الدكتور نيستلي ميكلوس ملاحظاً كل هذه الاستحالات فأجابني ٢٥٠٠٠٠٠ ضحية دون أي تعليق آخر.

لقد سبق و أجابوني، أنه بإعادتي الأمور إلى نصابها الحقيقي في إطار نظرية شاملة للقمع، فليس لي مخطط سوى تهميش جرائم النازية.

ولديّ إجابة أخرى جاهزة على الفور، و ليس لديّ الآن أي داع كي لا أعلنها. و قبل أن أقولها، أودّ أيضاً أن أضع أمام عيني القارئ و تقديره للأمور حادثاً ذا مغزى عن عقلية زماننا.

باعتباري أحد قراء مجلة (ليه تان مودرن) فقد أبلغت بطبيعة الحال هذه المجلة عن انطباعاتي عما أوحت إلي به الدعاية التي تقوم بها للدكتور نيستلي ميكلوس.

وهاهو الجواب الذي تلقيته من السيد ميرلو-بونتي:

«إن على المؤرخين أن يطرحوا هذه القضايا على أنفسهم. ولكن في الوقت الراهن، إن من شأن هذا الأسلوب في دراسة الشهادات أن يبذر بذور الشك فيما هو حق علينا أن نتوقعه، وبما أن الاتجاه في هذه السويعات التي نحياها هو أميل إلى نسيان المعسكرات الألمانية، فإن هذا الحرص الشديد على الحقيقة التاريخية الدقيقة يشجع على تزوير ضخم ينجم عنه القناعة إجمالاً أن النازية هي خرافة».

وجدت أن هذه الإجابة طريفة وأهملت الرد على ميرلو-بونتي الذي نسي بدوره المعسكرات الروسية وحتى... الفرنسية!

لأنه إذا رضينا بهذه العقيدة وأن الحرص الشديد على حقيقة تاريخية دقيقة يشجع تزويراً ضخماً في الوقت الراهن، فيمكن التساؤل بقلق عن مدى ما ينتهي إليه التزوير الضخم في الوقت الراهن من مسخ على صعيد التاريخ. ولنتصور فقط ماذا سيعتقد مؤرخو المستقبل حول محاكمة نورمبورغ البشعة التي تقع في الاتجاه الذي أعاد تطور الإنسانية على الصعيد الثقافي ألفي سنة إلى الوراء، أي إلى المحاكمة التي قُدّمت وكأنها جريمة في جميع كتب تدريس التاريخ، محاكمة فيرسانجيتوريكس من قبل يوليوس قيصر.

إن العلاقات التي أقامها السيد ميرلو-بونتي، أستاذ الفلسفة بين النتائج والأسباب لا تبدو دقيقة بشكل منقطع النظير، وهذا يبرهن أن كل واحد يزاول مهنته، وحتى في الفلسفة.... فقد تشابه البقر علينا!

* * *

بالإضافة إلى ما طرحته حول الإدارة الذاتية لمعسكرات الاعتقال، حيث سلطت الأضواء على الدور المحدد في تنظيم الرعب، فهذا يوم جديد أقدم فيه غرف الغاز التي -مع شديد الأسف- زينت أعناق رسامي إيبينال المختصين بمعسكرات الاعتقال. إن الأمرين متصلان بعضهما ببعض بصلة وثيقة وهذا يوضح ذاك.

هناك عدد ما من الوقائع، يتعلق بهذه القضية المثيرة، والتي لا يمكنها إطلاقاً أن تغيب عن الناس الشرفاء. في بادئ الأمر، الشهود جميعهم متفقون حول هذه البداهة حتى أن عشرة منهم(١) -تم الاستشهاد بهم ضدي من قبل الادعاء

١- هناك شاهدان كانا قد قدما خدماتهما للادعاء لم يحضرا: السيد مارتان-شوفيه، والأب المحترم الغريب الأطوار ريكه واعظ نوتردام. الأول الذي يمكن بسهولة فهم قلقه من الحضور إلى المحكمة وتحت نار مزالق اللغة «وهو الواثق جداً من إتقان قواعدها» بعيداً عن أعين مؤلفاته، حدد دوره ببرقية أعلن فيها عن إدانة شرسة. أما الثاني، فبواسطة رسالة طويلة موجهة إلى المحكمة، شهد أنني أنا وباراز كائنان دنيئان. هذه الشهادة تأخذ كل أبعاد قيمتها ومذاقها، إذا علمنا أنه في حزيران ١٩٥٢، تم توقيف المدعو ميرسيه في منطقة ليون الذي كان الأب المحترم ريكه قد ضمن شرفه، وصادق على سمات المواطن فيه والمقاوم. وذلك أن ميرسيه الذي كان أيام الاحتلال سائقاً في خدمة أحد الأجهزة الألمانية، ولم يتم توقيفه وترحيله إلا بسبب «سوء ائتمان». ولدى عودته استخدم المصدقة التي كان الأب المحترم ريكه منحه إياها بسذاجة ليحظى بثقة الأوساط الدينية وتجمعات المرحّلين والمقاومين الذين ابتز منهم بضعة ملايين... وإذا أحببنا أن تكون ضدنا شهادة هذا الكاهن العجيب الذي يمنح شهادات المقاومة للمتعاونين الأصليين مع الاحتلال، وشهادات الشرف التي يمنحها دون تمييز للنصابين لتكون وسيلة لممارسة «مهنتهم» دون أي تعرض للخطر

بالحق المدني- جاؤوا ليؤكدوا في حرم محكمة الجنح في بورغ-آن-برس: أنه لم يتمكن أي مرحّل على قيد الحياة -وأنا أعتذر من السيد ميرلو بونتي الذي ضمن الدكتور نيستلي ميكلوس دون تروٍّ- من أن يرى إجراء الإبادة بهذه الطريقة. وكنت قد حاولت مراراً وأفحمت الحماقات التي تزعم خلاف ذلك: وكان آخرها من حيث التاريخ الشهير ج.... الذي تحدث عنه ألبير بازار، وها أنا معتمد شخصياً على القول: إن كل الذين تصدوا إلى أوصاف دقيقة ومثيرة للعواطف للعملية من أمثال دافيد روسيه وأوجين كوغون، لم يفعلوا ذلك إلا بناء على بعض الثرثرات. وهذا -وأحدد ذلك أيضاً لتجنب أي سوء تفاهم جديد- لا يعني إطلاقاً القول إنه لم تكن توجد غرف غاز، في المعسكرات، ولا إنه لم تتم أية إبادة بواسطة الغاز: إن وجود التمديدات أمر، والغاية منه أمر آخر، واستخدامها الفعال أمر ثالث.

وفي المقام الثاني: من الملاحظ أنه في كل أدب المعتقلات، وفي محكمة نورمبرغ، لم يتم الحصول على أية وثيقة تثبت أن غرف الغاز، كانت قد أقيمت في معسكرات الاعتقال الألمانية، بناء على أمر من الحكومة بقصد استخدامها في الإبادة الجماعية للموقوفين.

هناك شهود، أكثرهم من الضباط أو ضباط الصف أو من أفراد الشرطة

تابع: فإن الله أول من يسامحنا. وإذا كان وهو الحليم، يغفر أيضاً للأب المحترم ريكه، فسنكون نحن أول من يفرح بذلك ومن أجل رفع الموضوع عن كاهل الأب المحترم ريكه، فليس هو الوحيد الذي منح شهادات مقاومة وهمية: إذ أن السيد ليكور، النائب عن الحركة الجمهورية الشعبية ووزير العدل الأسبق منح واحدة لجوانوفيسي تابع عميل أحد الأجهزة الألمانية. والسيد پيير بيرتو الأستاذ في الجامعة والمدير السابق للأمن القومي منح واحدة أخرى لعميل الغستابوليكا، المتهم بسرقة جواهر البيجوم، والنصّاب ديلاسّر استطاع أن يبتز مليار فرنك بمباركة من كل وزراء إحدى الحكومات بواسطة شهادة من هذا النوع والتي تم السكوت بحذر عن أسماء الموقعين عليها الذين يبدو أنهم من ذوي الرتب العالية في إدارة النظام. وها قد وصلنا إلى هذه الدرجة.

العسكرية، ذكروا حقاً في حرم المحكمة إنهم قاموا بالإبادة بواسطة الغاز و إنهم تلقوا الأمر بذلك: و لكن أياً منهم لم يتمكن من إبراز الأمر الذي كان يحتمي به؛ كما أن أياً من هذه الأوامر لم يظهر - عدا تلك التي ذكرتها في هذا الكتاب و التي لا تثبت شيئاً - في وثائق المعسكر حين تم التحرير. وهكذا كان من الواجب تصديق هؤلاء الشهود بناء على أقوالهم فحسب. و من يثبت لي أنهم لم يذكروا هذا إلا لينقذوا حياتهم في جو الرعب الذي بدأ يسود ألمانيا، منذ اليوم التالي لهزيمتها؟

وضمن هذا الإطار، إليكم حكاية صغيرة تذكر أمراً آخر مزعوماً أنه تم إصداره من هملر وقد أطنب أدب المعتقلات بالإشارة إليه: وهذا الأمر هو بتفجير كل المعسكرات لدى اقتراب قوات الحلفاء، و إبادة كل شاغليها بما فيهم الحراس.

وأكد ذلك رئيس أطباء الشرطة العسكرية في مستوصف دورا الدكتور بلاتسا لدى أسره فأنقذ حياته(١). وفي محكمة نورمبرغ، لوّحوا به ضد المتهمين

١- في دعوى شتروتهوف صرّح الدكتور بوغاريتس رئيس الأطباء في إيتربك (بلجيكا) في ٢٥ من حزيران ١٩٥٤ بما يلي:

«نجحت في أن أُعيَّن في مستوصف المعسكر وتم وضعي بإمرة طبيب الشرطة العسكرية بلاتسا وهو الرجل الوحيد في شتروتهوف الذي كانت لديه بعض المشاعر الإنسانية.

بينما في دورا، حيث جاء بعدها ليمارس مهمة رئيس أطباء المعسكر، فقد كان الرأي العام مجمعاً على أن يسند إليه مسؤولية كل ما هو لا إنساني في الكشف عن المرضى ومعالجتهم. كانت وقائع المستوصف تنضح بإساءاته التي قيل إن مساعده الدكتور كونتس لم يكن ينجح إلا بصعوبة للتخفيف من وطأتها. وهؤلاء الذين عرفوه في شتروتهوف تحدثوا عنه بعبارات مثيرة للرعب. وكان لي شأن معه وأنا من رأي جميع الذين كانوا على هذه الحال: كان وحشاً بين الوحوش. ولدى عودتي إلى فرنسا، ما كان أشد دهشتي لدى رؤية تراكم الشهادات عن سلوكه الحسن -صحيح أنها من موقوفين متمتعين بامتيازات- ولكنها بحق رجل، كان جميع من في المعسكر ينتظر شنقه. بَيدَ أني أدركت الأمر حين علمت أنه أول من أكَّد صحة أمر تفجير كل المعسكرات لدى اقتراب قوات

الذين أنكروا ذلك. بينما كتبت صحيفة «الفيغارو الأدبية» في ٦ من كانون الثاني ١٩٥١، تحت عنوان «يهودي يفاوض هملر» وبتوقيع جاك سابيل:

«بفضل ضغط غونتر، الذي مارسه على هملر بواسطة كرشتن «طبيبه الشخصي» بقي الأمر الوحشي بتفجير المعسكرات لدى اقتراب الحلفاء حبراً على ورق.»

وهذا يعني أن هذا الأمر، الذي تلقاه الجميع، وتم التعليق عليه بغزارة لم يصدر قط. ولعل أوامر الإبادة بالغاز كانت كذلك....

ولكن، قد يقول بعضهم، لماذا غرف الغاز هذه، في معسكرات الاعتقال؟

من المحتمل. وبكل بساطة، بما أن ألمانيا كانت في حالة حرب. وبما أنها قررت نقل أغلب صناعاتها إلى المعسكرات لتقيها من غارات الحلفاء، فلم يكن هناك مبرر لاستثناء الصناعات الكيماوية.

أما عن ممارسة الإبادة بواسطة الغاز فتبدو لي ممكنة إن لم تكن أكيدة: إذ لا دخان بلا نار. ولكن أن تكون معممّة إلى الدرجة التي حاول فيها أدب المعتقلات أن يقنع بها الناس وضمن إطار منظم فذلك خطأ بالتأكيد. إن جميع الضباط الفرسان في مستعمراتنا لديهم سوط مسموح لهم باستخدامه وفق رؤيتهم الشخصية ووفق مزاج خيلهم. والكثير منهم يستخدمونه أيضاً لضرب سكان البلاد الأصليين حيث يعيثون فساداً. وهكذا يمكن أن تكون بعض إدارات المعسكرات(١) قد استخدمت غرف الغاز للاختناق بينما هي مستهدفة من أجل

تابع: الحلفاء، وإبادة كل شاغليها بمن فيهم الحراس: كانت تلك مكافأة الشهادة المزوّرة التي لم يكن من الممكن آنذاك معرفة ثمنها، ولكن كان لا غنى عنها لإعطاء حجة لنظرية هي في حد ذاتها لا غنى عنها من أجل غرض سياسي.

١- وهذا لا يقتصر على مسؤولية الشرطة العسكرية.

استخدامات أخرى.

وفي هذه المناسبة، فإن آخر سؤال يمكن أن يُطرح: لماذا اعتمد كتّاب الشهادات بمثل هذا التضامن اللافت للنظر هذه المقولة الشائعة؟

السبب هو: بما أنه تمت بلا حياء سرقة الغذاء والملابس كما تمت المعاملة بوحشية إلى درجة كان يجب من خلالها تبرير موت ٨٢٪ -كما تقول الإحصاءات- من بيننا. فقد رأى الناجون من جماعة الإدارة الذاتية في غرف الغاز الوسيلة الوحيدة والمناسبة لتفسير كل هذه الجثث مبعدين الذنب عن أنفسهم(١).

وما كان أخبث هذا. والأنكى من ذلك أنهم وجدوا مؤرخين رسميين يجاملونهم.

وبقي أن نقول: إن اللص يصرخ بصوت أعلى من صوت ضحيته ويخنق صوتها كي يلفت أنظار الجمهور. وهذا ليس بالغريب عن أدبنا.

لم يتساءل أي شخص قط لماذا لم يكن من الممكن -ما عدا أيام بطاقات التموين الإضافية التي كانت تلعب الدور الظاهر للإسمنت- إنشاء روابط للمرحلين قابلة للاستمرار، لا على الصعيد المحلي ولا على الصعيد الوطني؟ ذلك أن مجموعة الناجين لا تميل باختيارها إلى التجمع في جماعات متآخية خاضعة لإيعازات المنافقين من جلاديهم القدامى، الذين كانوا -وكأن ذلك جرى مصادفة- زعماء تلك الحركات المختلفة.

١- تأكدت هذه لفرضية بصورة واضحة في ٢٢ من تموز ١٩٥٣ على منبر مجلس الجمهورية من السيد دي شيڤينيي، عضو مجلس الشيوخ عن إحدى المحافظات الشرقية، وهو أحد المرحّلين في بوشنڤالد إذ صرّح أن الألمان تركوا الموقوفين يجعلون شرطة منهم وعليهم ومن أجل إتمام عمليات الإبادة -دون غرف غاز- كانوا يجدون هواة مولعين بهذا الأمر.

ستجدون في صلب الكتاب وخاصة في الخاتمة العناصر الأخرى للإجابة على السؤال المزدوج الذي طرحته الآن.

* * *

مع ذلك هناك عناصر من هذا الجواب غير مدرجة في هذا الكتاب: منها دعوى معسكر شتروتهوف التي لم تكن قد جرت إبان كتابة جزأي الكتاب.

هذه الدعوى مثلها مثل كتاب نيستلي ميكلوس توضح عدداً من الأمور المستحيلة تتعلق بأسباب موت الموقوفين في ذلك المعسكر.

في حال قراءة قرار اتهام مفوضية الحكومة ضد المتهمين الذين كانوا أطباء في كلية ستراسبورغ والذين اتهموا بتجارب طبية أجروها على الموقوفين نجد من خلال صحيفة لوموند:

١- أن أحدهم متهم -وبناء على أمر منه- بقتل سبعة وثمانين يهودياً، رجالاً ونساءً، جيء بهم من معسكر أوشفيتز وأعدموا في غرف الغاز ليرسلوا بعدها إلى ستراسبورغ لتزويد المجموعة التشريحية للأستاذ الألماني.

٢- وقيل عن لسان الثاني: «أني أقر باختياري أن الدفعة الأولى للتجارب لم تسبب موت أحد.

٣- وهذا التعليق: «والمقصود الآن معرفة ما إذا سببت التجارب حول التيفوس وفيات. ويعترف النقيب هنري (وهو مفوض الحكومة الذي يوجه الاتهام) أنه قد لا يستطيع أن يقدّم الأدلة، ولكنه يعتقد أنه يمكن للمحكمة أن تساند قناعته حول القرائن في حال (كفايتها) كما هي الحال هنا. هذه القرائن يجدها في الشهادات وحيثيات محاكمة نورمبرغ؛ وفي أكاذيب هاغن (وهو الطبيب المتهم) وفي تكتمه خلال التحقيقات الأولى. وهو يعتقد أن هذه الوقائع يجب أن تتيح للمحكمة أن تجيب بحزم على السؤال المطروح: هل (هاغن) مُدان بتهمة القتل بالسم؟»

إن هذا يثبت بوضوح أنه لم يمكن قتل سوى سبعة وثمانين شخصاً في غرفة الغاز في شتروتهوف وفي التجارب التي تم إجراؤها. وإذا كان هذا العدد القليل نسبياً لما تراه تأكيدات أدب المعتقلات التي تشمل عامة المعسكر، لا يغير شيئاً من هول الواقع (والذي من المتفق عليه أنه خلافاً لادعاءات المتهم لم يكن الحادث بعيداً عن إرادته) فـلا يمكن أن ننسى أن الآلاف المؤلفة وربما عشـرات الألوف من الموقوفين قد ماتوا في هذا المعسكر، ولا يمنع هذا التساؤل كيف ولماذا ماتوا؟

إن كوني الوحيد تقريباً الذي وجّه الأفكار نحو هذه الظاهرة المأساوية لمشكلة المعتقلات، وذلك بتزويدها بالوقت نفسه بعناصر تقدير الأمور أي بالأسباب التي جعلت من كل معسكر موضعاً لأكل لحوم البشر، يبين مدى الشقاء الذي يعيش فيه عصرنا.

دافع أطباء شتروتهوف عن أنفسهم مدعين أن التجارب التي أجروها، جرت بالظروف الأمنية نفسها التي جرت فيها تجارب مماثلة قام بها الإنكليز في مانيلا، والأمريكيون في سين-سين، و الفرنسيون في مستعمراتهم. و قد أكد ذلك أستاذ معروف من الدار البيضاء في المحكمة كما أكّد ذلك من قبله آخرون في محكمة نورمبرغ، إذا أمنا بأطروحة دوكتوراه الطبيب في البحرية الفرنسية فرنسوا بايل بعنوان (الصليب المعقوف ضد الصولجان) المنشورة في فرنسا عام ١٩٥٠. إن ذلك الأستاذ الآتي من الدار البيضاء روى كيف أن عدداً من السود ماتوا بسبب لقاح تمت تجربته على ٦٠٠٠ منهم.

لا قيمة لهذه الحجة بالتأكيد: إذ لا يمكن الاعتذار عن الإساءة بإساءة الآخرين.

و لكن حجة مفوض الحكومة بقرار الاتهام بناء على القرائن -وهذا ما يعترف به! متجاهلاً الآخرين الذين لديه وقائع ضدهم جديرة بالعقاب مسندة مادياً ما هي أيضاً لا قيمة لها: لا يمكن القول سوى أن هؤلاء مدانون لأنهم ألمان

والآخرون أبرياء لأنهم إنكليز و أمريكيون و فرنسيون.

إن هذا الأسلوب في التفكير والحكم المستند إلى التبرير الأكثر بدائية في مجال التعصب القومي هو الذي أتاح التصريح بأن ستمائة شخص احترقوا في كنيسة و قرية قد دمّرت في (أورادور-سور-غلان بفرنسا) هم ضحايا أبشع الجرائم بينما مئات الألوف من الناس، نساءً وأطفالاً و شيوخاً أيضاً، تمت إبادتهم في ليبنريغ وهامبورغ، إلخ (في ألمانيا) و ناغازاكي و هيروشيما (في اليابان) في الظروف التي نعرفها، أي بتلك الوحشية أيضاً يشكل هذا إنجازاً بطولياً لا جدال فيه.

وهو أيضاً الذي أتاح تجنب اتهام المسؤول الكبير الحقيقي عن كل شيء : ألا وهو الحرب!

الحرب التي كانت نتيجتها في حرب ١٩١٤-١٩١٨ النازية التي استخدمت-ولم تخترع كما يعتقد عامة الناس- معسكرات الاعتقال، التي تمكن من خلالها في حرب ١٩٣٩-١٩٤٥ النظام الوحشي الذي نعرفه أن يجعل الجلادين مثل الضحايا. ولكن هذا لم يدخل في الموضوع إلا مصادفة.

* * *

من الطبيعي أن تكون لدينا اللياقة أو الجرأة في الاعتقاد أن الأمر لا يتعلق بمحكمة الجنح في بورغ-أن-برس ولا بمحكمة الاستئناف في ليون، حتى ولا بمحكمة النقض سواء أكنا على صواب أم على خطأ: إن السيد ديجان دي لا باسي نبّه بذكاء بالنيابة عنا أن الجدال الذي أثير حولنا لا يمكن إدراكه إلا في المجتمعات العلمية أو في أي مكان آخر حيث يعتاد الناس أن يجادلوا في القضايا الاجتماعية، وليس أمام المحكمة.

ولكن القادة المرتجلين للروابط الوهمية للمرحّلين و الذين يجاملهم القابضون

على زمام الأمور في الدولة لا يدركون أية حقائق أخرى سوى التي رسموها و التي يدعمها النظام أمام الرأي العام. ليسوا ضد معسكر الاعتقال لأنه معسكر اعتقال، ولكن لأنهم كانوا فيه محبوسين؛ و ما إن تحرروا حتى أعلنوا أنهم سيضعون فيه الآخرين. وهكذا ليس هناك أخطار ، وفي قاعة المجتمعات العلمية سيتجنبون تماماً دعوتنا!

بينما أنا أرفض من جهتي أن تتم إدانتي بصمت في النقاش العقيم الذي وضعونا فيه أمام القضاة و الذي يرفضونه أمام الرأي العام.

لدى كتابتي "ترّهات أوليسيوس" كان لديَّ شعور بأني أردّد صدى لبلانكي و بروبون ولويز ميشيل، غيد، وفايان وجوريس، وأن ألتقي مع آخرين مثل ألبير لوندر (في كتابه لم ير دانتي شيئاً) و الدكتور لويس روسو (في كتابه طبيب في سجن الأشغال الشاقة) وڤيل ديلاڤار (في كتابه رفاق بل) و مسيون (في كتابه كيف خضعت لخمسة عشر عاما من الأشغال الشاقة)، إلخ . . . والذين طرحوا جميعاً مشكلة القمع و نظام السجون من خلال الرؤيا نفسها، وفي الصيغ نفسها التي طرحتها، وهذا ما جعلهم يلقون استقبالاً حاراً من الحركة الاشتراكية في عصرهم.

أن يكون الأعداء الأشد ضراوة للكتاب هم من قادة الحزب الاشتراكي والحزب الشيوعي – وحدة العمل! – فتفسيره عائد، ربما، إلى القانون الغريب والمزعوم للتوازن التاريخي. يبقى أن (آلان سيرجان) بتقديره لنظام السجون الفرنسي وباتخاذه وحدات قياسه من الحركة الاشتراكية التقليدية في كتابه (فوضوي في العصر الذهبي) وجد أصداء لأفكاره خارج الحركة الاشتراكية.

وأنه في المناقشة التي جرت مؤخراً حول العفو العام في الجمعية الوطنية، كان موقف الحزب الاشتراكي و الحزب الشيوعي موقفاً ضعيفاً أكثر مما هو موقف متخذ و قريب من العقائدية.

وأنا آسف من أن اتخاذ هذا الموقف لا يرجع إلا إلى المفاهيم البالية عن

الأمـة، والوطن، و الدولة. و لهـذا السـبب فـإن هـؤلاء الذين يتـبـاهـون بأنهم الورثة الروحيون لأنصار ثورة ١٨٧١ وجول غيد و جوريس كانوا منقادين لا شعورياً إلى ضـمـان أدب كـان وهو يخنق المعطيات الابـتـدائيـة لمشكلة القـمـع في ثـقـافـة الرعب، مستنداً إلى التزوير التاريخي، فخلقوا جواً للجريمة في فرنسا و حفروا هوة لا قرار لهـا بين فـرنسـا وألمانيـا. وبغض النظر عن النتـائج الأخـرى، فكل شيء ظاهر التناقض في العديد من المجالات الأخرى.

وفي إحدى لحظات صدقه بادرهم، مع ذلك، دافيد روسية قائلاً:

"الحقيـقة، أن الضـحـية مثلها مـثل الجلاد، كلاهمـا دنيء؛ و أن الدرس الذي نتلقـاه من المعـسكرات يبين الإخاء في الحقارة؛ وإذا أنت لم تسلك سلوكاً شـائناً، فـذلك فـقط لأن الزمن لـم يسـعـفك وأن الظروف لم تكن مـلائمـة تمامـاً؛ إنه لا يـوجـد فارق في التواتر في تشوّه الكائنات؛ و البطء في التواتر وقف على النفوس الكبيرة، ولكن التربة الخصبة المختبئة تصعد وتصعد وتصعد حتى تتساوى الأمور حتماً. من سيصدق هذا؟ طالما أن الناجين لم يتمكنوا من ذلك. إنهم يخترعون هم أيضاً صوراً باهتة عن المعسكر، وأبطالاً باهتين من معجون الورق المقوى. فيتم استخدام بؤس مئات الألوف من الموتى لتحريم التعرض إلى هذه النماذج» (أيام موتنا ٤٨٨) وتظاهروا بأنهم لم يسمعوا شيئاً.

وهو نفسه، الذي كان كثير الاهتمام في أن يجرّ الشيوعيين الذين كان يكيل المديح إليهم، إلى محكمة الجنح، فقد نسي ذلك دون شك.

* * *

يمكن للقارئ أيضاً أن يتأمل ويفيد من بعض الوقائع التي من هذا النوع:

– في ٢٦ من تشـرين الأول ١٩٤٧ نشـرت جـمـيع الصـحـف الخـبـر التـالي:

«مأساة أخرى من مآسي معسكرات الاعتقال أمام المحكمة العسكرية»:

«اتُّهم إيطالي، يدعى پيير فلوريلني بأنه أيام معسكر بيرغن-بيلسن قتل سبعة من رفاقه.

«كان ممرضاً، ممرضاً بأساليب طبية غريبة. كانت متعته في أن ينفخ في الهارمونيكا ويجعل رفاقه في السجن يرقصون على نغمات هذه الآلة. وإذا رفضوا كان يضربهم بالعصا.

«وذات يوم، كان عليه أن يعالج ملازماً مريضاً، وقاده إلى المغسلة، وغسّله، ثم بعد أن احتج الآخر على فظاظة حركاته، صرعه بضربة على رأسه بعصاه. وحاول رفاق الملازم منعه، فقتل فيوريلني ستة واحداً إثر الآخر.

«وهو الآن متهم من قبل الناجين الذين كانوا في ذلك البناء.»

– في صحيفة لوموند الصادرة في ١٨من كانون الثاني ١٩٥٤ قام السيد جان-مارك تيولير، وهو يتحدث عن قضية شتروتهوف. -ويعد تيولير أحد النادرين من الراوين لوقائع المحاكم في عصرنا الذين لا يرقى الشك إلى موضوعيتهم- قام بوصف أحد السجناء النادرين الذين كان عليهم أن يجيبوا أمام القضاء عن سلوكهم داخل المعسكر:

"بين كل هؤلاء المتهمين كان هناك واحد ينتظر التحقيق معه بلهفة. كان اسمه إرنست ياغر، إذ أن ياغر لم يكن شرطياً عسكرياً موقوفاً، بل ينتمي إلى تلك الفئة المقوتة مثل الشرطة العسكرية-إن لم يكن أكثر من ذلك -في المعسكرات، إنها فئة شرطة مراقبة العمل. و الواقع كانت له في معسكر شتروتهوف صفة الموقوف الذي يتولى رئاسة زمرة بإمرة شرطي مراقبة العمل. وبهذه الصفة قام بالضرب و اللكم والقتل بالضرب على أم الرأس مثل أي شرطي عسكري بل أكثر.

"إن ياغر هو تجسيد لما لم يمكن لحياة المعسكرات الاعتقالية أن تفعله برجل ما . كيف قضى حياته؟ في الأربعين من عمره كان قد قضى أربعاً و عشرين فيها في السجن. و من أيام حريته لم يحتفظ إلا بذكرى الفترة التي كان

فيها بحاراً، دون أن يقول أكثر من ذلك، و اليوم الذي وقع عام ١٩٣٠ حيث كان على رصيف الميناء فجرح أحد رجال الشرطة جرحاً مميتاً أثناء مشاجرة جرت بينهما. وتم الحكم عليه بسبع سنوات سجن مع الأشغال الشاقة. ولدى حلول النازية، كانت أخباره غامضة في السجن. ولم يتم اكتشافه حقاً إلا حينما انتهت عقوبته فوجد نفسه وقد أعلن النظام الجديد أن عليه أن يبقى موقوفاً لعدم ائتلافه مع الحياة الاجتماعية و منذ ذلك الحين وهو يضع على سترته المثلث الأسود و شهد المعسكرات المتلاحقة. ولكن قبل رميته في المعسكرات بدأ الغستابو بتطهيره. وفي عالم معسكرات الاعتقال عرف الفترة الأكثر هولاً. كان في ذلك الزمن الذي لم يكن في المعسكرات سوى اليهود والغجر والبعيدين عن الحياة الاجتماعية، والشواذ جنسياً والقوّادين واللصوص. كان ذلك الزمن زمن الإبادة، ولم ينج منه سوى من كانوا على خط من الشجاعة ليكونوا ذئاباً قبل أن يتم افتراسهم(١).

"الكل يودون أن يعيشوا. ولكن كلاً منهم يود العيش على حساب الآخرين. بأي ثمن، وكيفما اتفق. أنشأوا وطوروا في المعسكرات كل أساليب عصابات الإجرام. وحين عينوه رئيس زمرة عمل في شتروتهوف، كانوا يعلمون أن لديه كل

١- عدد كبير من الناجين من المعسكرات -إن لم نقل العدد الأكبر- هم أولئك الذين اتبعوا هذه القاعدة حتى النهاية، أو دون أن يكونوا ذئاباً، استفادوا من رضا وحماية الذئاب، ذلك أن المعسكرات كانت محكومة من السجناء الذين كانوا ذئاباً، والذين كانوا بتفويض من الشرطة العسكرية يمارسون سلطة المرزبان. والجدير بالذكر أن هؤلاء الذئاب كانوا شيوعيين أو يعملون في خدمة الشيوعية. وهذا ما يفسر كون أكثر الناجين هم من الشيوعيين، سوى الذين نسوهم أو لم يكتشفوهم، أما الآخرون فقد لقوا حتفهم وهم الآن لا يضعون مسؤولية كل الموتى وكل الأهوال على عاتق النظام النازي- وهذا ما لا يمكن تأييده إلا بصعوبة إذ يجب الموافقة أن النظام النازي مسؤول فقط عن إقامة المؤسسات الاعتقالية وهي موجودة لدى كل الأنظمة بما فيها نظامنا- بل على عاتق أفراد من الشرطة العسكرية معروفين بالأسماء.

الكفاءات المكتسبة. أصابته العدوى من هذا الوجود الشائن فغرق في هذا النهر من الوحل. لم يتماسك أعصابه. كان عليه أن يكون من أولئك، وهم موجودون، الذين وصل بهم الأمر أن يسيطروا على حياة المعسكرات بالحقد مثل كل هؤلاء الكائنات الذين يرتدون البزّة! إن هؤلاء الأشباح المتضورين جوعاً واليائسين أصبحوا كريهين. وهكذا توالت الضربات، ونوبات الغضب."

هذا تفسير لا يتنكر لأفكار فرويد، ولاشك، ولكنه لايستحق أكثر مما يجب.

فضلاً عن ذلك يخطئ جان-مارك تيولير حتماً حينما يكتب: "إذاً ماهو الشيء المشترك الذي يجمع هؤلاء السجناء السياسيين، من حملة المثلثات الحمراء: من شيوعيين واشتراكيين ألمان، ومقاومين فرنسيين، أو بولونيين أو تشيكيين؟ إنهم السادة في المعسكر ويتوقعون أن يبقوا كذلك. وهكذا كان ذلك العهد حيث يقوم به سجناء الحق العام بالصفع والضرب بملء أذرعهم، وحيث يتهيأ السياسيون لتنظيم مقاومتهم، وإبداء مهاراتهم وكفاءاتهم في القيادة وشنهم الهجوم المعاكس باختطافهم المناصب الرئيسة في الحياة الداخلية للمعسكر."

ماهو الشيء المشترك الذي يجمعهم؟ ولكن ياعزيزي جان-مارك تيولير، بوجودهم على رأس السلطة في المعسكرات، كانوا يسلكون مسلك سجناء الحق العام تماماً، ويقول لك ذلك (ياغر) في هذه التعابير التي أوردتها في تقريرك بلباقة:

"أنا لم أقم بالتعذيب، بل على العكس فأنا الذي تلقيت الضرب من السياسيين . . . إنهم من صدرت عنهم أسوأ الأعمال. ولكن لم يحاسبوا على أعمالهم. فلماذا يحقدون على أناس مثلنا، من ذوي المثلثات الخضراء أو السوداء؟ حين وصلت إلى شتروتهوف لم يكن رجال الشرطة العسكرية الألمانية هم الذين صفعوني، بل السياسيون . ومع ذلك، وحتى الآن، لم نر أياً منهم يمثُل أمام المحكمة، كما أن الشرطي الرئيس لمراقبة العمل في شتروتهوف، الذي كان هناك، والذي قام بأسوأ مما فعلته، استفاد من منع محاكمته لعدم وجود ما يبرر الدعوى

ضده."

-وفي صحيفة أخرى، وبصدد دعوى شتروتهوف، كتب محرر قضائي آخر:

"جاء شهود آخرون عديدون لإثارة موت شاب بولوني، كان نائماً فلم يلتحق بالسرعة اللازمة بساحة التفقد، فجيء به بقوة الرفس بواسطة (هرمانتراوت) وألقي على شبه منضدة تستخدم لمارسة الجلد، وتلقّى خمساً وعشرين جلدة قاسية، أُرغم اثنان من رفاقه على القيام بها."

ستجدون في هذا الكتاب قصة (شتاديك) في (دورا)، و(فيوريليني) من (بيرغن-بيلسن)، وقصص آخرين كان سلوكهم هو سلوك (ياغر) نفسه أو هذين الشقيين اللذين أرغما-أو تطوعا-على القيام بخمس وعشرين جلدة عنيفة ضد أحد رفاقهم في الشقاء : سواء أكانوا سجناء حق عام أم سياسيين، فالآخرون تابعوا مهمة الأولين على رأس الإدارة الذاتية للسجن. وهناك في المعسكرات الألوف المؤلفة من أمثال فيوريلني، وشتاديك وياغر من الجلادين.

لقد تم التعرف على بعض سجناء الحق العام الذين طلب إليهم تقديم الحساب.

لم يطلب تقديم الحساب إلى السياسيين ولذا لم يتم التعرف إليهم. ولو أريد معرفة كل شيء، لما كان بالإمكان طلب تقديم الحساب من السياسيين: فقد استفادوا من تداخل الأمور والبلبلة، وقد كانت لديهم المهارة باستبعاد سجناء الحق العام في المعسكرات بأساليب مأخوذة من قوانين الأوساط الإجرامية، وتكمن في الوقت نفسه بالإيماء بالثقة للشرطة العسكرية الألمانية وجاء الوقت الذي تحولوا فيه إلى مدّعين وقضاة في آن واحد، فكانوا المؤهلين الوحيدين قانونياً ليطلبوا تقديم الحساب. وفي إطار هوسهم في البحث عن متهمين في كل مكان كان بإمكانهم إطلاق النار على الجميع، ولم يتبينوا حتى أنهم لم يلعبوا أي دور، وهم على رأس معسكرات الاعتقال، إلا الدور الذي كانوا يلومون فيه (بيتان) على تطوعه في أن

يكون على رأس فرنسا المحتلة.

هكذا مرت تلك الفترات التي لم يتبين فيها أحد آنذاك هؤلاء. بعد ذلك اكتشف أناس أنه كان هناك تسرع بالاعتراف في أن يكون للحزب الشيوعي دور في الحكومة، حتى أصبح أغلب المدعين والقضاة شيوعيين، والذين بالمصادفة لم يكونوا منهم فقد لعبوا لعبتهم سواء عن جبن أو لا وعي أو حساب للأمور. وعن هذه الطريق الملتوية للضرورة السياسية، انتهى الأمر إلى اكتشاف جزء من الحقيقة حول سلوك السياسيين في معسكرات الاعتقال. ولكن هذه الضرورة السياسية لم تكن واضحة إلا في ذهن طبقة معينة: إنها الطبقة الحاكمة التي لا تأخذ على الشيوعية إلا ما يهددها هي مباشرة. ولهذا السبب لم يتم التعرف إلا على جزء من الحقيقة: ولن يتم التعرف عليها بأجمعها إلا حين تعلم بقية طبقات المجتمع بدقة ولا سيما الطبقة العاملة الخطط الأكثر ظلاماً للشيوعية فيما يتعلق بها وبطبيعتها الحقيقية.

وهذا أمر بعيد بطبيعة الحال.

مع ذلك فلدينا بعض الفرص الآن، تزداد من خلال الأدب، من اعترافات هؤلاء. يقول مانيس سپيربر على لسان إحدى شخصياته، وهو مرحّل سياسي سابق:

«على الصعيد السياسي، لم نتقاعس، ولكن على الصعيد الإنساني، فقد وجدنا أنفسنا إلى جانب سجّانينا، فطاعتنا كانت تتجاوز قراراتهم... (وأصبح الدغل رماداً)

ومع الزمن، تتخلص هذه الاعترافات من شوائب التناقضات المرتكزة على الاعتقاد أنه يمكن الفشل على الصعيد الإنساني دون الاستسلام على الصعيد السياسي ولن يبقى سوى «وجدنا أنفسنا إلى جانب سجّانينا».حينئذٍ، ولا شك، سيفقدون خاصية العذر الذي يبرئهم والذي يودّون تقديمه، ولكنهم سيكسبون في

اتجاه الإخلاص المؤثر في أن العذر الذي يبرئهم سيأتي من الجمهور، وهذا أفضل بالنسبة إليهم.

وحين نصل إلى هذا الحد، فما أسهل أن نجد تفسيراً نبيلاً لظاهرة معسكرات الاعتقال على الصعيد الأخلاقي. والغريب في الأمر، هنا أيضاً، أنه بينما لا يفتش الأدب عموماً، وليس أدب المعتقلات فحسب، عن هذا التفسير إلا في محاولته أن يرتقي بنفسه خلال وصفه لضروب الوحشية بكل أنواعها الصادرة عن العدو، نرى أن المؤرخين، والمعلقين وعلماء الاجتماع يستسلمون دائماً إلى تقديس الكره الذي يعد السمة الرئيسة لعصرنا، والشعور العام نحو النقيض يتظاهر من خلال ردود أفعال غير متوقعة يعبّر عنها هذا المقطع من رسالة قارئ منشورة في صحيفة لوموند بتاريخ ١٧ من تموز ١٩٥٤.

«إن كل هذا لا يمكن تفسيره فقط بوحشية الناس. فالوحشية محددة، لا شعورياً، وفقاً للغريزة. والطبيعة هي قانون دون العلم بذلك. إن الهلع الذي أصابنا مجدداً لدى قراءتنا مَحاضر (متز) تولّد من تناقضاتنا نحن المثقفين، ومن همومنا التي كانت قبل الحرب، ومن خيبتنا الجبانة أمام رتابة عالم بدون عنف، من حب اطلاعنا الفلسفي، من مظهرنا الملول تجاه «تجريدات» مونتسكيو وڤولتير وديدرو، وتمجيد التضحية في سبيل التضحية، والإيمان في سبيل الإيمان، والنشاط في سبيل النشاط، والإخلاص في سبيل الإخلاص، والحماس في سبيل الحرارة التي تزوّده بها، والدعوة إلى التبرع، أي البطولة: وهذا هو مصدر الهتلرية الدائم.

«الرومانسية والإخلاص من أجل ذاتهما، والتفاني من أجل ذاته، كانت تلزم أيّاً كان في سبيل أية مهمة. هؤلاء الرجال -وهذا حق- لم يكونوا يعرفون ماذا يفعلون. والإدراك هو بالضبط معرفة ما يتم فعله، والتفكير في مضمون ما. إن مبدأ المجتمع العسكري حيث يقوم الانضباط مقام الفكر، حيث يكون ضميرنا خارجنا، ولكن في نسق عادي، يلتحق بفكرسياسي أي عام، ويستمد منه سبب

وجوده وشرفه كان وحده يسود العالم ضمن إطار الحذر العام تجاه الفكر المنطقي الذي يزعمون أنه غير فعّال وعاجز.

وهكذا كـان من الممكن فـعل أي شيء بالإنسـان. إن دعـوى شـتـروتهـوف تذكرنا، خلافاً للتجريد المتعجرف، أن حرية الإنسان تستسلم أمام الألم الجسدي والغموض. كـان كل رجل يستطيع أن يزعم أنه حرّ شريطة أن يقبل بموته. والآن فإن العذاب الجسدي والجوع والبرد أو الانضباط وهي أقوى من الموت تحطم هذه الحرية. وحتى في معاقلها الأخيرة هناك حيث تعزي نفسها بعجزها عن العمل وأن تبقى فكراً حراً فإن الإرادة الخارجية تتغلغل فيها و تستعبدها. وهكذا تقتصر الحرية الإنسانية على إمكانية التنبؤ بخطر سقوطها وتحمي نفسها من ذلك الخطر. إن الفرصة الوحيدة للإنسان هي في صياغة قوانين وخلق مؤسسات عادلة تجنبه تجارب الاستسلام. وفيما يتعلق برومانسية البطولة وصفاء النفس اللذين يكتفيان بذاتيهما، يجب مجدداً التعويض عنهما بالاستغراق بالأفكار التي تجعل النظم السياسية للمجتمعات أمراً ممكناً. إنها تتهاوى حين لا تعود تكافح في سبيل أي شيء، بل في سبيل أي فرد." (إيمانويل ليفيناس).

هذا كل ما في الأمر: مبدأ المجتمع العسكري حيث يحل الانضباط محل الفكر الذي كـان يجد نفسه وحيداً في سيادته على العالم؛ حريّة الإنسان التي تتهاوى أمام العذاب الجسدي والغموض: الوحشية المحددة فقط وفقاً للغريزة؛ القوانين والمؤسسات العادلة الضرورية قادرة على أن تجعل الإنسان يتجنب تجارب الاستسلام، قوانين لم تكن توجد ولما توجد بعد وهي فرصته الوحيدة.

حقاً إن المنطق لا يتم بناؤه إلا على الإنسـان الذي استسلم وتحول إلى جلاد. ومن الأفضل للضحية كما كتب مانيس سبيربر: "أما ما يتعلق بقضية معرفة ما إذا كـان الألم يثبت أي شيء لمن يعانيه، فإنها تبدو لي صعبة جداً. وبالمقابل، يبدو لي بالتأكيد أن الألم لا ينقض رأي فاعله، تاريخياً على الأقل."

وهذا صحيح إلى حد أن ضحايا الأمس هم جلادو اليوم، والعكس بالعكس.

* * *

لم يبق أمامي الآن سوى أن أشكر بالجملة ودون تمييز جميع من قاتلوا بشجاعة في سبيل "ترّهات أوليسيوس".

قيل لي أنه كان يوجد بينهم فاشيون فابتسمت بهدوء: بما أن من يعيبون عليَّ ذلك هم بالتحديد أولئك الذين يطالبون في الوقت نفسه بمصادرة الكتاب، وفي كل صحفهم يقررون على كل الناس تقريباً منعهم من الكتابة والكلام وحتى من الحركة، فكيف عليَّ أن أمتنع عن التفكير من أنه إذا كان يكفي أن أعتقد لتتم مباركتي، فلا يكفي أن أرفض المباركة لئلا أكون فاشياً؟

قيل لي أيضاً أنه كان يوجد بينهم أيضاً متعاونون إبان الاحتلال، وقد واسيت نفسي لدى ملاحظتي أنهم مازالوا معدودين كذلك، وعلى كل حال فقد كانوا مختلطين مع عدد مدهش من المقاومين الأصليين.

وأخيراً فقد لاحظت على الأخص أنه في المجال المتسع للرأي العام، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، استمر الكثير من الناس، أو عاودوا التفكير في جميع القضايا، بعيداً عن القواعد الضيقة للطوائف والكنائس، والأحزاب، ولكن بالرجوع إلى القيم الإنسانية.

ويبدو لي أن من طبيعة هذا الأمر أن يفسح المجال لكل الآمال.

ماكون، كانون الأول ١٩٥٤

پول راسّينيه

سيرة حياة المؤلف

ولد بول راسّينيه في ١٨ من آذار ١٩٠٦ في بيرمون قرب مونبيليار (شرقي فرنسا). وكان أبوه مناضلاً اشتراكياً، حين كان لهذه الكلمات معنى، وقد تم تجنيده خلال الحرب العالمية الأولى. وتسببت نشاطاته السلمية والأممية بحبسه خمس سنوات.

وتم استقبال الثورتين الروسية والألمانية بأمل وسط الأسرة. في عام ١٩٢٢، وفي سن السادسة عشرة انتسب بول راسّينيه إلى الحزب الشيوعي، وسرعان ما انضم إلى المعارضة في الحزب، وتم فصله عام ١٩٣٢. فشكّل مع بعض المناضلين من العمال "اتحاد الشيوعيين المستقلين للشرق" ونشر صحيفة "عامل بيلفور". ساهم في مختلف المحاولات لتوحيد الحركة الثورية على الصعيدين النقابي والسياسي.

ولدى رؤيته تراجع الحركة العمالية، وأمام عدم الإمكانية العملية لإعادة بناء منظمة ثورية مستقلة لا تتخذ الطابع الطائفي، آثر بعد ٦ من شباط ١٩٣٤ أن يدافع عن أفكاره داخل الحزب الاشتراكي الفرنسي.

تولى أمانة اتحاد الحزب في بيلفور، وكان من اتجاه مارسو بيفير، ثم بول فور، وحاول جهده في مقاطعة فرانش-كونتيه تعميم المواقف السلمية الخاصة بلويس لوكوان، ولدى اتهامه بأنه من أنصار السلم عام ١٩٣٩ أبعد بواسطة بول فور وخضع لقمع رئيس الوزراء دالادييه.

بعد الغزو الألماني، تابع كفاحه، فأصبح من رجال المقاومة منذ الساعة الأولى، واشترك بتأسيس حركة التحرير في الشمال الفرنسي، ونظم الإنتاج الضخم للوثائق المزوّرة وأسس الصحيفة اليومية السرية "الجمهورية الرابعة" التي أشارت إليها إذاعة لندن.

ولدى توقيفه من قبل الغستابو الألماني (تشرين أول ١٩٤٣)، قاموا بتعذيبه مدة أحد عشر يوماً (سحق اليدين، كسر الفك، تفجير الكلية) كما تم توقيف زوجته وابنه الذي كان يبلغ العامين من عمره مدة شهرين.

تم ترحيله إلى معسكر بوشنفالد (بسبب عجزه بنسبة ٩٥٪) (ثم ١٠٥٪)، ولم ينج إلا من خلال انضباطه ضمن نظام متعسف وبسبب إخلاص نويه.

وعاد إلى تولي مكانه على رأس اتحاد بيلفور في الحزب الاشتراكي. ولم يتردد في التصريح بأنه لم يصادف في المقاومة أغلب الرجال الذين يتحدثون الآن باسمها.

تم انتخابه نائباً اشتراكياً في المجلس التأسيسي الثاني، وسقط في ١٠من تشرين الثاني ١٩٤٦، إذ أن الحزب الشيوعي قطع عليه الطريق بدعمه للمرشح الراديكالي.

انسحب تدريجياً من الحياة السياسية "الفعّالة" وكرّس نفسه لدراساته التاريخية والنظرية.

على أثر نشر "ترّهات أوليسيوس" تم شن حملة وطنية عليه: تم فصله من الحزب الاشتراكي بناء على مداخلة من غي موليه ودانييل مايير. ولدى تقزّزه، اقترب من الاتجاهات الفوضوية والسلمية واحتفظ بصداقة وتقدير بعض الرجال المعروفين وبعض أعضاء الحزب الاشتراكي ولاسيما في مقاطعة فرانش-كونتيه.

وأقام أيضاً علاقات عمل وصداقة مع بعض المؤرخين وبعض الرجال الشرفاء من أقصى اليمين، أو المعدودين كذلك، مما أُخذ عليه بشدة. وكما لو أن معاشرة بعض رجال اليسار كان أقل دناءة.

توفي في ٢٨ من تموز ١٩٦٧ مقتنعاً أن عمله سيأخذ طريقه، وأن الإنسانية ستنتهي إلى خلق سلالة جديرة بالفهم.

كان بول راسينيه يحمل كلاً من وسام العرفان الفرنسي ووردة المقاومة، وهما وسامان لم يضعهما قط.

الفهـرس

هـذا الكتـاب

- الكاتب الفرنسي بول راسينييه عمل في صفوف المقاومة الفرنسية، أُوقِفَ ورُحِّل إلى معسكرات الاعتقال النازية حيث بقي تسعة عشر شهراً، كانت كافية ليقدم صورة واقعية وموضوعية، وبعيدة عن الانفعال والمبالغة، إنها الحقيقة التي شاهدها بأم عينه.

- لاحظ بعد التحرير، أن هناك مبالغة من الكتّاب الذين اختصوا بأدب المعتقلات في وصف معسكرات الاعتقال، وما جرى بها من استخدام غرف الغاز، وعمليات القمع والإبادة، فكتب (تُرّهات أوليسيوس) الذي تعرض بسببه إلى المحاكمة من السلطات الفرنسية والفصل من الحزب الاشتراكي.

